ديسمورفوفوبيا

نقمة على الجسد

جواهر البيولي

رواية من نسج الواقع وحياكة الخيال

إهداء :

اهدي هذه العصارة الفنية الأدبية لمن أحببته و تركني، ولكنه ألهمني، على أمل أن نلتقي و نعيش معا في مخيلتي .
سويا إلى الأبد ..

" الكتب التي يسميها العالم بالخالدة، هي الكتب التي تظهر للعالم عاره "

-أوسكار وايلد -

المقدمة:

لعل لكل شخص ذلك الجانب الشهواني البهيمي[1] الذي يخجل به ولا يفصح عنه ويخاف من أن يدركه الناس، ولكن بالمقابل هذا هو الجانب الأكثر إثارة فينا، الجانب الأكثر غموضا في نفسيتنا، الجانب المسؤول عن معظم تصرفاتنا التي لم نجد لها أي تفسير، لكن فسرها اللاوعي بِردات فعل مختلفة وأحلام أو إن صح التعبير كوابيس.
ذلك الجانب المظلم من القمر الذي طال ما خفنا من أن تنكشف أوراقه للآخر الذي لن يراه إلا مرضا نفسيا مسكوتا عنه وجب تداركه في أقرب الآجال قبل أن يزداد الأمر تعقيدا.
عقدة من عقد الآخر الذي في باطننا، الذي يستحوذ عن قسم كبير من رفوف ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا القريب إن كان منه أو البعيد.
وأنا اليوم، عزمت بعد تفكير طويل أن ازيح كل الستائر عن شبق[2] ربما يعتبر غير متداول، أو ربما معظمكم لم يسمع به ابدا.
شبقا تداخلت فيه نزعة جنسية مصحوبة بحب السيطرة، حب التحكم وحب السلطة.
وهذا بالتحديد ما سوف اتناوله كمحور اهتمام في الصفحات القادمة، صفحات سوف تتلو لكم قصة حب لم تبدأ لكي تنتهي، ولن تنتهي لتكون تراجيدية.
قصة حب ساهمت خيوط الخيال والواقع معا في حبكها.
قصة أساسها الوهم وأحلام اليقظة وأشباح التقديس الأعمى.
فهل لأوهام اليقظة أن تصبح حقيقة؟

[1] البهيمة : الغرائز الحيوانية التلقائية المغروسة في الإنسان بالفطرة.
[2] الشبق : اشتداد الشهوة الحسية للجماع.

وهل للحقيقة أن تصبح وهما؟
وهل يمكن للحب أن يكون سرابا عابرا؟
أسئلة تكون الإجابة عنها باسئلة اخرى، فنهرب من ظلمات الجهل إلى أماكن اعتم وأحلك، أماكن نفسح فيها عن شهواتنا لأنفسنا، أماكن نتعرى فيها من هويتها الاجتماعية المفروضة علينا، ومن قيودنا التي يفرضها علينا المجتمع ويجعلنا نهرب من أنفسنا، بعيدا عن الايروتيكية[3]، والسادية، وكل أنواع الفيتيشية[4] ...
أنا التي اختبأ خلف هذه الأسطر، سوف اتجرد من الصورة التي رسمها المجتمع.
سوف اتحدث و سأفصح عن حب، وعلاقة يسودها الجنون والشبق.
تلك الأشياء التي تجذب انتباه مجتمعنا الشرقي، وتجعله ينفرك، ويحتقرك ويخزيك في نفس الوقت...
لكن رغم كل هذا فهي تثير انتباهه، وتهيج أحاسيسه، وتغري شياطينه.
حقا انه لمجتمع رهيب.
إنه لمجتمع حقير.
منافق...
فيا عزيزي الذي تتمعن في هذه الكلمات المبعثرة، انظر إلى حروفي بعين الفيلسوف، احكم على قصتي كمحلل نفسي يفصح له مريضه عن كل ما بداخله، واعطف علي عطف إله على عبد ضعيف لا حول له ولا قوة، ولكن لا تنظر إلي كشخص مجنون يلاحق شهواته مهما كان الثمن.
أما الآن فدعوني أروي لكم قصة مسبوقة بعقد نفسية غرست في داخلي كمخلب صقر ولتصبح الهاجس الوحيد والأساسي في حياتي.
فهل أنا حقا مجنونة؟

[3] الايروتيكية : الأدب والخيال الجنسي.
[4] الفيتيشية : انحراف جنسي ونفسي يقوم على إشباع الرغبة الجنسية من طريق الانجذاب إلى أجزاء من الجسد.

*

الجزء الاول:

*** اللقاء الوهمي الأول***

كل ما أستطيع تذكره عن تلك الأيام التي تلاشى معظمها من ذاكرتي أني كنت على حافة هاوية السنوات الأخيرة من المراهقة لكن لم أكن كباقي المراهقات. كنت المثال المناسب للمراهق الثوري الانطوائي الذي كسّر كل القيود الاجتماعية، الدينية وحتى الدراسية في البيئة التي نشأ فيها.
المراهق اللامبالي، بطل الأفلام الهوليوودية نجم الثمانينات والتسعينات الصاعد.
كل شيء آنذاك كان مختلفا في مظهري وفي سلوكي وحتى أسلوب تعاملي مع الناس، شعر أسود عادة ما ألون بعضا من خصلاته بالأحمر أو الأزرق أو الأشقر وكل الألوان التي أتيحت أمامي، كنت أحب الصبغات الملونة وأحب تغيير قصَّة شعري كلما أحسست بالملل أو خاصة بالإكتئاب، فمثلا بعد مرورنا بعلاقة حب فاشلة، أول شيء نفعله نحن النساء هو تغيير قصات شعرنا، ففي ذلك نوع من التمرد على ما كنا نعيشه، وأضع ماكياجًا أسود على جفوني وطبقة كحل رفيعة تحت عيوني، حاجبان يكادان أن يكونا أشبه بخيط رقيق اشمئز منهما الناس خاصة في المعهد أيام دراستي لأن الله قد لعن النامصات، ومنذ ذلك اليوم بدأت أدرك أني حقا ملعونة، أحمر شفاه قاتم أو عادة اسود أو أي لون داكن، أرجواني رمادي أو بني... خرصٌ في انفي، ذلك الخِرص الذي لم يفارقني أبدا منذ أن ثقبته في بداية مراهقتي، وملابس سوداء ضيقة دائما ما أثارت الجدل بسبب وزني الزائد، فالمرأة عورة وجسدها عورة لا يجب أن تبْرز محاسنه أو عيوبه بملابسها العصرية الضيقة، أما المرأة الممتلئة أو السمينة دعونا نسمي الأشياء بمسمياتها فيا حبذ أن تُخبأ هضاب الشحم تلك في جلباب واسع، فلا يجب على إمرأة سمينة أن ترتدي الملابس الضيقة أو القصيرة، أو السراويل و خاصة منها الجينز، أو أن تواكب الموضة، أو تضع على وجهها أطنانا من مساحيق التجميل، لأنها قبيحة في كل

الحالات ولن تنفعها الموضة ولن تعطيها أي أنوثة والناس لا يرغبون في رؤية تضاريس لحمها العاري وكثبان شحمها المقزز النتن الذي يجعلهم يتغامزون عليها في الشارع والعمل والمدرسة وكل الأماكن، ويتنمرون بأبشع الكلمات، "دب"، "بقرة"، "خنزير"، "كركدن"... هذا ما أستطيع تذكره من الكلمات التي نسيت معظمها، حقدت على أغلبها وضحكت على بعضها.

لم أكترث لما كانوا يقولون، لكن لا جدوى من الإنكار فتلك كانت مشكلتي الأساسية ايام الثانوية، أطرد يوميا من المعهد لأني سمينة، أو بالأحرى لأن ملابسي غير لائقة، هذه هي التهمة الوحيدة التي كانت توجه إليّ، لأني اواكب الموضة كبقية أصدقائي بكل عفوية ليس إلا، لكن أصدقائي ليسوا سِمَان مثلي لكي يطردوا، وهنا بدأت أفهم أني سأبقى منبوذة إلى الأبد إن لم أتغير... ومع ذلك لم أتغير بل واصلت السير في نفس الطريق التي يراها الناس خاطئة، فهذا طبعهم في النهاية، يتنمرون على أي شيء فقط لأنهم يحسون بالنقص.

وما زاد استياء الناس من مظهري الخارجي هي اكسسوارات التي ارتديها من جماجم وكل الأشياء التي تخيفهم، رأس معدن[5]، أطلق الناس العاديون هذه التسمية على شريحة من الناس المماثلين لي. فالبشر يشعرون بتهديد لذاتهم عند رؤيتهم لشيء غير مألوف.

كتلة سوداء تتدحرج و تسد الطريق.

أتذكر جيدا ملامح الخزي على وجه أمي كلما رافقتها لمكان ما، أو زارنا شخص ما، ملامح حاولت اخفائها لكن المسكينة لم تفلح لأنها لم تكن بارعة بالتمثيل فغالبا ما تكون تصرفاتها فاضحة وخاصة عندما توضع في موقف أشبه بالمأزق الذي لا مفر منه فتراها تحاول التبرير كلما سألها أحد :" لماذا إبنتك هكذا؟"

" خذيها لطبيب تغذية."

" ستعاني كل أنواع الأمراض عندما تكبر."

وبالفعل لقد كانوا على حق، في نهاية المطاف وجدت نفسي أعاني من كل أنواع الأمراض المستعصية، لكن لم تتمثل هذه الأمراض في السمنة وداء السكري وارتفاع ضغط الدم...

[5] رأس معدن : metalhead تسمية أطلقت على فئة من الناس التي تستمع الى موسيقى الروك و الميتال.

بل كانت أمراضا من نوع آخر لعل أبرزها من الأمراض العضوية هو فقر الدم والصداع النصفي المزمن، أما بالحديث عن الأمراض النفسية فقد تنوعت من الاكتئاب الحاد، الأغورا فوبيا[6]، أفكار سوداوية وانتحارية متواصلة، انتقاد مبالغ فيه للذات، فقدان الشهية العصابي[7] ،اضطراب ثنائي القطب[8]، حب إيذاء الذات، وسوء تقديرها، صدمات نفسية، وهلاوس عديدة متداخلة لا يمكن تفسيرها، وصولا إلى اضطرابات أخرى غير مشخصة.

أحسست بتأنيب الضمير كلما أكلت أو شربت أي شيء، نقمت على نفسي كلما تناولت أكثر من وجبة في اليوم.

انقطعت عن الأكل لدرجة المرض والشحوب ولكني لم أفقد أيا من وزني.

خلال تلك السنوات لم يعد الأمر حبيس تلك الكيلوغرامات الزائدة، بل زاد معه سوء تقدير أمي لي وصارت تقارنني بأي أي شخص تراه ظنا منها أنه أفضل مني وظنا منها أن تلك المقارنات ستجعلني أسعى لصقل ذاتي نحو الأفضل.

انتقادات جعلتني أحس بأني كائن غير مرغوب فيه وغير مرحب به على الكرة الأرضية، لكن الجانب المشرق في هذه المأساة الطفولية كلها أن انتقاداتهم لم تزدني إلا قوة وتشبثا بما أنا عليه، فأنا لم أكن رأس معدن بالتعبير المجازي للكلمة فقط، بل كنت اكتسب من صلابة الرأس مايشبه صلابة الفولاذ نفسه.

تدريجيا بدأت أدرك العالم وكل ما يدور من حولي، كلما وعيت أدركت أن المجتمع سيواصل نفوره لي فقط لأني مختلفة، فزدت نقمة على كل ما كان حولي، فتراني أَبْني على أنقاض كتب الفلسفة التي كانت المهرب الوحيد لي من عالم كنت أقابل فيه نفس الأشخاص ولكن في أجساد مختلفة، آراء دينية وفلسفية وسياسية مغايرة لآراء أترابي وأفراد عائلتي.

تجرأت على أن أفكر بصوت عالٍ وتجرأت على مناقشة أفكاري في مآدب مختلفة، وقارعتهم بالحجة والعقل وهددت سكينتهم.

---

[6] الأغورا فوبيا : الخوف من التواجد في الأماكن العامة بين حشد من الناس.

[7] فقدان الشهية العصابي : هو مرض نفسي يتصف بالاضطراب في الأكل والانخفاض الشديد في وزن الجسم، مع الخوف من زيادة الوزن.

[8] اضطراب ثنائي القطب : مزيج من نوبات الاكتئاب أو الابتهاج المبالغ فيه التي تجتاح المريض بصفة غير طبيعية.

كل تلك الأفكار المحظورة اغرتني، ولعل أهم ما أرست عليه عيناي كانَ تلك الخفايا الجنسية الشهوانية التي ينفرها مجتمع عربي بسيط يخاف من التفكير خارج الصندوق، مجتمع يخاف من ما يوجد خارج الكهف.

ففي مراهقتي كنت تلك الفتاة المغامرة المتمردة التي كان أقصى طموحها تجربة كل شيء وخاصة كل مايقال عنه حرام ولا يجب التفكير فيه كالدين مثلا وعالم الجنس خصيصاً لأني ببساطة أحببت العصيان والتمرد.

فبالاضافة إلى أسئلة الخلق والبعث والوجود بأكمله التي لن تكون موضوعنا اليوم، بتُّ ألقي أسئلة متعددة عن ماهية الجسد ومعنى أن تمتلك جسد امرأة وأن تتصل بجسد رجل وما معنى الجنس، فبالنسبة للمرأة في مجتمعنا، كلمة جنس لا يجب أن تلفظ البتة، ولا يجب التفكير بها، ممنوع منعا باتا لمس أو تحسس أعضائك التناسلية حتى عن وجه الخطأ، يمنع اكتشفها واكتشاف كيفية عملها ونقاط المتعة فيها، أيضا يمنع ممارسة العادة السرية ليس لأنها حرام على حد قولهم بل خوفا على الفتاة من أن تفقد عذريتها الطاهرة الشريفة وتَضيع قطراتُ الدم تلك هباءا ويذهب غشاء بكارتها إلى الجحيم أين ستقبع مع شهواتها الفاسقة إلى الأبد، بل نربيها ونغرس في ذهنها قيمة واحدة وهي قيمة الشرف المحصور في أن تبقى عذراء لا يسمح لها حتى بأن تنظر لجسدها العاري في المرآة أو تختلي به للحظة من المتعة، فالعذرية هي التي تكسبها قيمة في المجتمع العربي المسلم المحافظ الذي يصبح متعصبا عندما يتعلق الأمر بالفاحشة، فلا مالُها وتعليمها ولا أخلاقها ستغفر لها

وتنجّيها من بطش رجل متعطش لسفك دماء غشاء بكارتها الرقيق واغتصاب براءتها في مجتمع لا يكون فيه الرجل العدُوّ الوحيد للمرأة، بل المرأة نفسها تكون عدوة للمرأة، سأخبرك كيف يحدث ذلك، تكون عدُوّةً للمرأة الأخرى التي تحررت من كل هذه القيود العقائدية السخيفة وعدوة للمرأة الأخرى التي تم اغتصابها بتهمة أنها لم تعد شريفة حتى وإن كانت هي الضحية الوحيدة في القصة، عدوة للمرأة المطلقة أو الأرملة التي لم يرأف بها المجتمع المنزاح للشق الذكوري، وأيضا عدوة امرأة قالت لا للتمييز الجنسي ولا لإقصاء المرأة من المجتمع، وعدوة للمرأة الأخرى التي خيرت حياتها المهنية على حياة زوجية تعيسة ويصل الأمر لأقصى

حالاته عندما تصبح عدوة لذاتها ولجسدها فقط لأنها ولدت في جسد أنثى، أنثى لا تتمتع بتلك الميزات الاجتماعية التي يتمتع بها الرجل من قوة سيطرة وحضور وسلطة هكذا تصبح تلك المرأة التي تربي ابنتها على نفس تلك المعتقدات من طاعة اسيادها من الرجال والانحناء أمامهم وأمام أوامرهم اللاإنسانيةِ. فهي ليست إلا نملة ضئيلة أمام كل كائن ذكر.

أما أنا، وبكل فخر فعلت كل الذي طلبوا مني أن لا أفعله.

لا أعرف حقا لماذا، إن كان تمردا عن تقاليد مغبَرّة لا يجوز أن نقول عنها أنها صالحة للتطبيق في القرن الواحد والعشرين، أو إن كان حبا للمعرفة والمغامرة، أو ربما مزيجا بينهما الاثنين.

لم أهتم لكل ما قيل في تلك المواضيع ووضعت اصبعي على مكمن الداء، أو مكمن الآفة الخطيرة، الظاهرة الجهنمية التي تعتبر من أكبر خبائث الشيطان، وهي بدون أدنى شك "الجنس".

هذه الكلمة التي جعلت الناس منفصمين في أفكارهم ورغباتهم، فالعقل يحثنا على عدم الإنصات لذلك الشيطان الخبيث اللعين، وأجسادنا وقلوبنا وعواطفنا، وكل غرائزنا وحواسنا تدعونا لارتكاب ما سماه المجتمع بالرذيلة. فيغدو الناس ممزقين بين عقائدهم الدينية ورغباتهم الجنسية الدنيئة.

الجنس هذه الكلمة التي لم يُلقنّي أحد معناها ولم تكتسب من السمعة سوى سوءها، في الآن ذاته تسابق الناس لنيلها في الآخرة، والفوز بأطهر حوريات الجنة.

في الواقع لا أستطيع أن أتذكر أي نوع من دروس التربية الجنسية التي يعطيها الوالدين لأبنائهم عند دخولهم مرحلة البلوغ، لا أستطيع التذكر لأن هذا الأمر لم يحدث، لم تخبرني أمي عن ماهية الجنس أو التكاثر أو الإستمناء، ولم ندرس التربية الجنسية في المدرسة بحجة أنها حرام وستلوث عقولنا الطفولية البريئة، فكلما سألت أي أسئلة من هذا القبيل لم يسُدوا رمق جوعي المعرفي سوى بإجابات أضحت المحرك الرئيسي لفضولي، وينتهي بي المطاف وسط إعصار فكري يحمل في جُعبته كَمًّا لا متناهيَا من الأسئلة، أسئلة وجودية سَعيت للبحث عن أجوبة لها بنفسي، فكان المنطلق من منبع ذاتي.

أتذكر جيدا كيف بدأت أمارس العادة السرية في سن صغيرة جدا منذ بلوغي، وكنت افعل ذلك بمنطلق غريزي لا غير، لم أعي ماذا كنت أفعل عندها أو لماذا، وأمي كانت تغضب كثيرا عندما تمسكني متلبسة أثناء عملية الإستمناء، "حرام" هذه كانت الإجابة الوحيدة، بعدها يتهاطل على التوبيخ، ولكن لم تكن بالأمر الحرام عندما يقوم به أخي، فبالطبع هو رجل وله كل الحق الحرية التامة في الإستمناء لأنه لن يفقد عذريته في كل الأحوال، بل سيتباهى به الجميع ويقولون في فرح "لقد كبر وصار فحلا".

في البداية شعرت بريبة كبيرة وتأنيب ضمير وخجل وخزي وعار لأني قمت بشيء حرام، بكيت لأني كنت مذنبة في نظر أمي وفي نظر كل الناس، وعلمت أني لم أكن مثل كل الفتيات اللواتي في عمري، بحيث كنت دائما أتوق لأن أعيش كامرأة رغم صغر سني بذلك صرت أستمني خلسة بعيدا عن كل الأنظار، لم أتمكن من أن أغض بصري عن غرائزي الجنسية لأني كنت مفعمة بالطاقة والنشاط وحب المعرفة واللذة. أردت أن أصبح امرأة تقع في الحب مع من تختار، امرأه تريد رجلا يشبع كل رغبتها، لا أن تشبع هي رغباته كما يقولون، رفضت أن أكون دمية جنسية أحركُ مشاعر رجل اختارني ولم أختَرْه، بل أردت رجلا يداعب كل نبض في جسدي، ذلك النبض الذي يتوق للحياة ولأسمى درجات النشوة الإلهية.

وفي مقتبل مراهقتي بلغت ذروتي الجنسية، عندها أيقنت أن العادة السرية كما يسمونها لم تعد تفي بالغرض، جسدي أصبح يطالب بحقه في الاستِمتاع بالمعاشرة الجنسية لأن كل شيء بزغ وتفتح ليصير مستعدا أتم الإستعداد لذلك الإثم الجميل "الجنس" . فكنت كل مرة أكتشف في نفسي نقاط الشهوة وكنوز المتعة المدفونة في جسدي، فأحببت ما كنت اكتشف، وادمنت ما كنت أفعل إلى أن وصلت إلى أعلى درجات الابتهاج الجنسي وحققت الاتصال الجسدي الروحي والوجداني مع من أحبه واشتهيه محاولةً أن أجد نفسي ومن أكون كأنثى محبة للحياة وأن أعانق الطبيعة وأن تلعب روحي مع العصافير والملائكة واتحرر من ما يظنه المجتمع خطيئة، لذلك وضعت ابتسامة كبيرة على وجهي وحجزت تذكرتي نحو الجحيم.

ومع مرِّ السنوات، أصبحت إنسانة ناضجة وواعية، وأدركت أن حُكم المجتمع كان الخطيئة الوحيدة في العالم، خطيئة غير ملموسة وُجِدت لها أفضع الأعذار.

فعندما يغتصب أحدهم امرأةً ما، نلوم المرأة لأنها ملابسها فاضحة وليست محتشمة، حتى وإن كانت ملابسها محتشمة مستورة سنجد طريقة لنومها أيضا لا تقلقوا فمجتمعنا بارع في إدانة المرأة بينما يجد آلاف الأعذار للرجل.

عندما يمارس الرجل والمرأة الجنس، لا نلوم سوى المرأة بالطبع لأنها هي من أغوت آدم وراودته عن نفسه وسمحت له بمعاشرتها، مهما ارتكب الرجل من آثام ومعاصي ستلام المرأة لذلك، "أمه لم تحسن تربيته" هذا ما نقوله عندما يخطأ الرجل، وها نحن هنا مجددا نلوم المرأة على أفعال ارتكبها رجلٌ في قمة رشده، نلوم المرأة على كل أخطاء البشرية بينما نشرّعُ لكل خطأ يقوم به الرجال.

ننعت اجمل مخلوقات العالم بالعورة، ونغض أبصارنا إن مرت بجانبنا ونستغفر ونستعوض منها لأن المرأة زهرة من حديقة إبليس، نعاملها كأن وجودها لا منفعة تُجنى منه سوى الجنس، بالطبع فقد خُلقت من ضلع أعوج لإشباع الرغبات الحيوانية المكبوتة ولا توجد أي مصلحة أخرى في خلقها.

كل هذه الحكايات المتداولة التي كنت أسمعها من هذا وذاك زادتني إحباطا ونقمة على كل مخلوق بشري محيط بي، وبيئة وعقائد وجدت نفسي ملتزمة بها رغم أني لم ولن أختارها، عقائد وسخافات حبذتُ الموت على الرضوخ لها، لكن كان الأمر أشبه بالمستحيل أن تكون الشخص العاقل الوحيد بين آلاف المجانين، حتما سيرون أنك أنت المجنون وليس هم، وهذا ما حدث لي، نعتُّ بالجنون لأني كنت مختلفة. في شكلي المستفز وفي تفكيري المهدد لغبائهم، لذلك انعزلت بعيدا عن المجتمع وتلذذت بخطيئتي مع الجنس الآخر وأفكاري الفلسفيةِ المخالفة للسائد آنذاك.

هجرتهم واستمتعت بِآلية التعايش في جسد امرأة متحررة من جميع قيودهم.

فالمرأة بالنسبة لي كنت أعتبرها مركز الأرض، تشرق الشمس من أجلها، وتتفتح الأزهار والورود على صدرها الناعم وتمطر السماء باكية من شدة اللذة على خصرها، نعم انها المرأة الخِصبة المِعطاءة التي تُسيّر كل العالم.

إنها آلهة الجمال والجنس والمتعة والخصوبة.

إنها المرأة رمز الحياة.

إنها القداسة بأم عينها.

ولكن هذه الصورة الشعرية الجميلة التي رسمتها للمرأة في مخيلتي تحطمت وتشوهت.
ولم تصبح سوى مجرد قصيدة رثاء يلقيها رومنطيقي منكوب على أطلال شبح حبيبة هاجرت أو لم تكن موجودة بالأساس.
تلطخت لوحة فينوس[9] بالدماء، دماء الغدر والخيانة.
دماء الطعنة التي يطعنها الرجل في قلب المرأة التي قد سلبها إياه مسبقا.
وسلبها حريتها، بهجتها، بريق عينيها، ليكون قدرها الوحيد أن تضمحل في كينونته وحكم المجتمع القاسي.
لعل جميعكم تتساءلون عن ماذا حدث؟
بالطبع سأخبركم فقد تصالحت مع ذلك الأمر وتجاوزته، فعلى الأرجح فقدان العذرية في سن زهوري صغير خارج الإطار الشرعي لم يكن بالفكرة السديدة.
لماذا؟ ليس لأني آبه بترهات العذرية والتقاليد التافهة التي تناستها معظم الثقافات الأخرى، وبالطبع ليس لأنه حرام فذلك كان آخر همي، بل بسبب قطرات الدم اللعينة تلك التي كانت الدليل الوحيد لإثبات عذريتي، لكن لم يكن هناك أي قطرات دم خلال أول عملية جماع قمت بها ولا أعلم لماذا.
غير أن التفسيرات المنطقية والعلمية كانت عديدة ومتنوعة، ولكن لم يقبلها عقل ذكوري عربي متعصب فاتهمت بالفجور والمجنون والخيانة لأنه لم يكن لي نصيب من قطرات الدم الأسطورية التي يتحدث عنها الجميع، لم يكن لي أي نصيب من "الشرف" لم أتمكن من إثبات عفتي وطهارتي وعذريتي التي غادرت الكون دون أن تُراق دماءها، عندها أيقنت كل اليقين أني ملعونة، فقد تركني أكثر رجل أحببته وعشقته في حياتي، ذلك الرجل الذي تقاسمت معه نفس الأفكار والمبادئ الفنية والثورية في مجتمع بالكاد تمكنّا من التأقلم فيه، بل في النهاية اكتفى بالمغادرة ووصفي بالعاهرة كغيره من الآخرين الذين نالوا نصيبهم من الإنتقاد في الصفحات السابقة.

[9] فينوس : وهي آلهة الحب و الجمال و الرغبة والجنس لدى الرومان.

فسعادتي بفلسفتي العميقة لم تصمد طويلا أمام بطش المجتمع وخاصة الرجال الذين سحبت منهم كامل ثقتي، وسرعان ما تقدمت في السن وأدركت أنني لا أنظر للحياة من نفس الزاوية التي ينظر منها المجتمع الذي يرى أن الرجل أساس الحياة، هو من خُلق أولا وهو من يُمتع المرأة، ويشبعها ويجعلها تعيش أفضل وأرقى وألذ الأحاسيس الممتعة، أحاسيس لم تخلق لهذه الكرة الأرضية، بل أحاسيس روحانية سماوية بعثت من الفردوس الموعود، متعة أبدية تجعلك تطفو فوق سحاب من وهم، وهم المتعة السرمدية التي يحلم كل كائن حي على وجه البسيطة بتحقيقها. فيتحول الرجل بساديته ليصبح محورا للأرض وكل ما خلق من انس وجان وكائنات حية مرئية ومجهرية يسلط عليها قسوته ويطوعها من أجل راحته وخدمته فقط لأنه الكائن الأسمى الذي خلقت الأرض من أجله.

وبفضل كل ذلك نلت مكانتي في المجتمع كعاهرة، أما هو... فمازال رجلا فحلا شريفا يبحث عن عذراء أخرى تصلح لتكون مثالا يقتدى به ويتباهى بها أمام كل الناس... إنها ليست مبالغة بل هي مجرد صورة مبسطة عن معاناة الأنثى في المجتمع المتديّن المحافظ.

أصبحت هذه الصورة أشبه بكابوس يصيبني بالجاثوم،[10] ويطاردني كلما تقدمت بالسن وأطفأت شموع عيد ميلادي وأتممت فصلا من فصول حياتي الذي أحزن على انقضائه وأتمنى الموت عندما أطفأ شمعات الميلاد بينما يصفق الجميع ويتمنى أن تتحقق أمنيتي... لكنها لم تحقق هي أيضا فالله لا يجيب دعاء المغضوب عليهم حتى وإن كان التماسا للموت.

لم أطفو على سحابة الحب الذي ظننت أنه ابدي ، بل لحسن حظي أني لم أعش في ذلك السراب إلا لأشهرٍ معدودات. في تلك الفترة الحساسة من عمري تم تشخيصي على أني أعاني من اكتئاب سريري حاد سبب انقطاع علاقة عاطفية فاشلة مخلفة عديد الاضطرابات النفسية التي مازلت أحاول التعايش معها إلى يومنا هذا، كنت بريئة براءة الملاك الذي صار شيطانا، كنت أطهر من كل مقدسات الدنيا بأكملها إلى أن انقلبت حياتي بسبب مجتمع متجبر ورجل أقسى من ذلك المجتمع.

[10] الجاثوم : شلل النوم.

فهمت السبب الذي جعل صديقاتي يرقعن غشاء بكارتهن، لم يكن نفاقا... بل لأنه لا يوجد حل آخر بين أيديهن غير إيهام العريس المستقبلي أنه سيكون الرجل الأول والأخير في حياتهن.

وهكذا عدن طاهرات.

أما أنا فقد احترقت في نيران خطيئتي لسنوات وسنوات لأني رفضت فكرة النفاق والتظاهر بالبراءة.

لكن خطِيئتي تلك هي التي جعلتني اتخبط بين أفكاري التي لم تشق طريقها نحو المجد في مجتمع يعتبر اختلاف الرأي فيه فسقا وزندقة جزاءها العقاب.

سنوات جعلتني أدرك وأوقن من دون أدنى شك أن في الضفة الأخرى من المجتمع يتغلغل مسعى وحيد للرجل وهو جعل المرأة شيئا ملكه، أداة للمتعة، وأداة لتكاثر طفراته الجينية حتى وإن كانت جينات مشوهة.

ففي مجتمعنا هذا ننشأ على نحت المرأة كالطين، فنهيؤها قلبا وقالبا من أجل إشباع غرائز الرجل الحيوانية، نجعلها على أهبة الاستعداد لخدمة لمبتغياته سوى كانت الجنسية، أو صورته الاجتماعية التي سوف تلمعها له الزوجة المستقبلية المصون.

تلك الزوجة التي ألصق عليها المجتمع ملصق المواصفات المتعارف عليها، فعلى سبيل المثال يجب أن تتمتع بقدر لا بأس به من الجمال فلا تكون قبيحة تجعل الناظر لها يشمئز أو جذابة مثيرة تغري الناظر إليها وتسيّل لُعابه وتحرك أحاسيس الجنسية المكبوتة التي لا يتحكم فيها بينما يدعى قدرته على التحكم في كل شيء، لذلك يجب على جمالها أن يكون محتشِما بريئا وأيضا أن تكون ثرية أو ميسورة الحال تتمتع بوظيفة قارة ودخْلٍ مرموق ومتدينة مطيعة محافظة على كل التقاليد الحياتية العربية إلى جانب إن تحظى بمستوى عائلي وثقافي لا بأس به ولكنها لا تُعمل ثقافتها ولا عقلها في الحياة اليومية أو بالأحرى في الحياة الأسرية وخصيصا الزوجية بل تترك عقلها وكرامتها في منزل أبيها تحديدا في غرفتها مع باقي ألعابها وأحلامها الذين قتلتهم يوم وقّعت وثيقة عقد قرانها، أما الشرط الأهم هو أن تكون عذراء عفيفة طاهرة لم تدنسها يد الطبيعة، نقية وعذبة نقاء ماء زمزم.

الشرف والسمعة قبل كل شيء.

هذا ما تقوله الأمهات والآباء لبناتهم.

فيا عزيزتي المرأة إن توفرت فيك هذه الخصال النبيلة التي لا أملك أيا منها فستتزوجين ولا خوف عليك من العنوسة.

بإذن الله سيأتي ذلك الفارس المقدام على الحصان الأبيض ويخلصك من كابوس العنوسة الذي أفزع كل الفتيات اللواتي تجاوزن العشرين وهدد كل النساء المقبلين على سن اليأس، "اليأس من الزواج واليأس من الحياة الخالية من المتعة الحسية"، فمن يأبه إن كان الرجل حقا يحب زوجته، أو يعاني من عجز جنسي، أو مثليُ الجنس وأجبر على الزواج، أو منحرف عديم الأخلاق، أو عاطل عن العمل غير قادر على إعالة أسرته، من يأبه إن كان خائنا أو زير نساء سكيرا يتعاطى كل أنواع المخدرات المباحة والممنوعة، فهو في كل الحالات سيبقى رجلا خالٍ من العيوب وسيستر المرأة الضعيفة المنسحقة ويحرس شرفها من كل الخبائث والمدنسات وخاصة من كلام الآخرين والأخريات.

أما الآن فلنَعد إلى الحديث عني أنا التي كنت افضل مثال لعكس كل ما وصفته أعلاه، ربما لأن عائلتي كان آخر همها إن حافظتُ على عذريتي، لأني كنت وما زلت من أفشل المخلوقات التي وضعت رِجلها على الأرض. وفي كل الحالات لا أمل لي بأن أحظى بزواج مرموق ككل الفتيات، أتذكر جيدا ما كان يُقال لي " ستتزوجين أسوأ رجل في الكون كله"، وهذا ما كانوا يؤمنون به، لأن اختياراتي كانت مختلفة عن اختيارات بقية النساء، فقد سخروا مني عندما وأعدت رجلا أسود البشرة بحجة أنني أفضل منه، وسخروا أيضا عندما واعدت رجلا سمينا (أقصد اسمن مني)، والآخر أكبر مني سنا، والآخر مكتئب لدرجة لا تحتمل، والآخر لا يحظى بمستوى تعليمي مرموق، إلى آخره من حجج وسخريات...

كانوا يعتبرون أن ذوقي رديء لأنني لم أحظى بعديد الإختيارات مثل بقية الفتيات اللواتي يتقدم عشرات الرجال لخطبتهن، لأن الرجل بكل بساطة لن يحب إمرأة سمينة كالخنزير أو كالحوت الأزرق ولن يقبل بأسلوب عيشها المتحَرر فوق اللزوم، لن يقبل بامرأة تدخن وتشرب وترتدي ملابس غير محتشمة، حتما سيصير أضحوكة إن تزوجها.

كلمات كنت أسمعها منذ أن بدأت أعي وأفهم ما يدور من حولي، منذ نعومة أظافري هذا ما كانوا يقولونه لي في عائلتي وبين أصدقائي في المدرسة وكل المجتمع،

"يجب أن أفقد الكثير من الوزن لكي أعجب الرجال، يجب أن ألبس الحجاب حتى أعجب الرجال، يجب أن أتقن الطبخ والغسيل حتى أعجب الرجال"، لذلك قررت أن لا أعجب الرجال.

وأن لا أعجب الناس عموما.

كلمات وعبارات وجمل جعلت النزعة السادية والنرجسية وحب التسلط والتعطش للسلطة تكبر بداخلي يوما تلو الآخر، وصنعت هدفا وحيدا لحياتي عملت ليلا نهارا على تحقيقه، هدف لم تتجرأ أي من النساء على الركض وراءه، فكل ما أردت أن أعيش من أجله هو تحطيم صورة الرجل الذي تخافه وتنحني أمامه كل النساء، هوس ولد من نقمتي على المجتمع عموما وعلى الرجل بالتحديد حيث أردت أن أبني حياة خالية من زوج عربي شرقي متسلط تنصهر شخصيتي تحت إمرته، بل أردت أن أسيطر وأتدخل في أبسط القرارات المنزلية، وافرض رأيي الذي نادرا ما كان خاطئا.

حتى وإن كان خاطئا كنت أنا التي أقرر، وبطول الوقت أصبح جميع من في المنزل يخافني.في

الواقع لم يكن خوفا من ذاتي كشخص بل خوفا من نوبات الغضب التي تنتابني وفي نهاية المطاف نعتوني بالجنون، أصبحوا يعاملوني كحيوان متوحش لا يجب أن يظهر للعلن بمفرده، فرغم أن عائلتي لا تستطيع أن تعاكسني الرأي، إلا أنهم كانوا يقومون بذلك تجنبا لغضبي ليس إلا، لكني بذلك كنت قد رسمت صورة مشابهة لصورة الرجل العربي الذي كنت اهرب منه ولكن في جسد امرأة.

أعترف بأن نوبات الغضب كانت تنتابني في عديد المناسبات وفي أغلب الأحيان يستحيل السيطرة عليها، وهذا ما جعلني أجزم أن تلك النوبات هي ما جعلتني محط سخرية وتجنب من قِبَل أفراد عائلتي . حتى وإن كنت حقا فتاة فاشلة،لم أكن أعترف بذلك، كنت أفرض كل شيء أريده واحققه واتباهى به أمام عائلتي وأمام المجتمع مع عدم المبالاة إن كان ذلك أخلاقيا أو غير أخلاقي.

كنت اتباهى أمام الجميع بأن لدي عبدًا جنسيا يلبس ملابس فتاة بينما أقوم بإذلاله إلى أقصى درجة.

كنت أتباهى بقوتي التي سحقت الرجال وانخراطي في علاقات جنسية سادية دموية عنيفة غير مهتمة بانطباعات الناس من حولي.
فبعد تجربة الحب تلك التي ختمت بالفشل والخيانة، عدت لمعترك الحياة من جديد وعرفت أني لا اقهر، عرفت إني أقوى من أي رجل يقف أمام وجهي في هذا المجتمع وأصبحت الآلهة المتكبرة الجبارة القوية، لا يسكنُني سوى هاجس وحيد وهو كيف اسيطر على الرجال، اعذبهم، اسلبهم إرادتهم وعقولهم واجعلهم ملكي وتحت امرتي، أتحكم حتى في أنفاسهم والهواء الذي يستنشقونه.
ولدت لاقود.
ولدت لاسيطر.
ولدت لأكون آلهة.
هذه العبارات أصبحت ترنّ في اذني، نومتني مغناطيسيا زادتني شرا وبطشا.
هل هي نقمة على الجنس الاخر او على نفسي؟ أم هو كبت ؟
أم هي ردة فعل ناتجة عن علاقة بثت سمومها في داخلي واخذت اقيس عليها كل الرجال على أنهم سواسية؟
لم يكن المنطلق الوحيد علاقتي الفاشلة بل خصصت وقتا كافيا لسماع غيري من المنسحقاتْ، فتاة أصغر مني تركها حبيبها لنفس السبب الذي تركني حبيبي السابق من أجله "لم يكن هناك دم"، فتاة أخرى كانت طالبة في كلية الحقوق التي لم تنفعها في الدفاع عن حقوقها أمام حبيبها الذي يضربها ويعنفها، يسرق نقودها ويخونها باستمرار ولكنها تحملت كل ذلك لكي لا يشمت فيها المجتمع، حالات اغتصاب وتحرش واستغلال تام للمرأة في كل المجالات حتى في ميدان عملها.
فمرحبا بكم في واقعنا الذي نتعايش معه يوميا ولا نرغب في إصلاحه لأن إصلاحه يهيّج الحساسية على الرجال.
راودتني كل هذه الوساوس، ولم يتجاوز عمري العشرين عندما بدأت ترَصُّد فرائسي من أضعف الرجال وأكثرهم عقدا نفسية، رجال يترجون المرأة أن تعذبهم وتذلهم وتعيدهم لحجمهم الطبيعي... "مخلوقات وضيعة" .
فلم أكن آبه لمظاهرهم أو لأعمارهم، لم يكن عندي مقياس معين اتصيد به ما يطيب لي ويحلو لخاطري من فرائس، والمضحك في الأمر أني لم أتكبد عناء البحث عن

هذه الفئة المنسحقة من الرجال بل هم الذين كانوا يتكبدون مشقة البحث عني والوصول إلى مملكتي والدخول في طقوسي وعبادتي والركوع أمام أقدامي.
كانوا حولي كالذباب في كل مكان لكني حرصت دائما على انتقاء الأفضل والأفضل هو من تكون درجة تحمله للألم أكبر.
كنت اكتفي بالمشاهدة والتفكير في خطط نفسية توقعتهم في شباك ساديتي المقيتة التي لا تعرف معنى للرحمة، بينما اتفننُ في تعذيبهم بهدف الانتقام لنفسي من كل كائن ذكر ولكل امرأة مظلومة عاشت وذابت في مجتمع رجولي لا يقر بوجودها إلا للجنس والأعمال المنزلية، وأصبح ذلك الدافع الذي يجعلني اتلذذ بآلام الآخرين وأطور من طرق التعذيب لكي يصبح الرجال أذل من خنفساء ضئيلة سوف يدهسها فيل.
فكان الضرب والخنق وغرس الإبر وإطفاء أعقاب السجائر في مناطق مختلفة من أجسادهم وسكب الشمع على أجساد هؤلاء المرضى النفسيين وسماع تأوهاتهم التي كانت أشبه بتهويدة شجية تطرب اذنيّ وأكبر مصدر للإنتشاء عرفته في حياتي .
كنت أنا الآلهة، وجعلت العديد من الرجال البؤساء يركعون لي، كنت استمد قوتي من بؤسهم وفشلهم الذريع في الحياة التي أحسست وأنا اعذبهم أنها بين يديّ.
كلما زادت ساديتي كلما زاد احساسي بالعظمة، احساس قلة من القلائل يدركون معناه، ربما هتلر يدرك معناه، إنه لَإحساس شرير ولكني كنت من خلاله استمد رغبتي في الحياة.
أصبح المجتمع يراني امرأة بشخصية صلبة كالفولاذ واكتسبت ثقة في نفسي.
ثقة تمَوّه المجتمع على الاضطرابات النفسية التي كنت اعانيها والتي لم أعد اكترث لها طالما كانت صورتي أمام الناس وخاصة الرجال ثابتة وقوية، فغدوت في أبهى حلة امرأة ذا ثقافة وذا موقف.
امرأة لا يتمناها الرجل الشرقي التقليدي ولكن يشتهيها الرجل المغامر الذي أعيته تقلبات الحياة وأصبح يبحث عن الألم ليدرك أنه مازال على قيد الحياة، المرأة الفولاذية التي لا تركع لأي رجل مهما كان، بل حتى الشيطان كان يركع أمام قدميها ويتعجب لأفكارها وينبهر بأفعالها.

وهكذا أصبحت الصورة العصرية لفينوس في الفراء[11]، غير أني لم ارتدي الفراء.
وقفت أمام رجال ذو شأن وسلطة يلبسون بدلة وربطة عنق أمام مجتمع لا يعي شذوذهم، وأمام كل العالم وكل التقاليد العربية المحافظة بمكياج اسود ثقيل وجسم ممتلئ أثقل منه وشعر خيم فيه الليل وسكن الغراب في سواده وأحمر شفاه أحمر قاتم كالدم سَكَر من لذة خمره عُشاقي، وملابس سوداء مغرية ضيقة كان معظمها مخملي أو من الجلد الذي لم يزدني سوى قوة شخصية، ملابس ومظهر يعكس لمن يراه قوتي وعظمتي وبهذا سلبت تفكير كل رجل ينظر إلي وسرقت قلبه وشغلت انتباهه، وبذاك كنت قد نجحت في مهمتي واقتبست من صورة فينوس في الفراء، صورة جديدة لفينوس في الجلد.
فينوس القوطية[12] التي بنَت مملكتها الاسطورية الحديثة على الجماجم المهشمة لكل من قال لها لا.
وفبالفعل منذ تلك اللحظة بدأ عصري الذهبي.
كانت تلك الفترة بمثابة أوج عطائي، تعلمت القيادة وكيفية السيطرة على رجل وإهانته واستغلاله وجعله لعبة بين يديَّ ثم ارميه كالمنديل المتسخ لأني مللت منه ولم يعود ذا أي نفع أو قيمة عندي، أو ربما لم تكن له قيمة عندي منذ البداية .
نصر حققته على مجتمع متخلف ميؤوس منه، وعلى بشرية توارثت معتقدات خاطئة لأجيال وأجيال.
رغم أن كل هذا الشر السادي لم يتجاوز الغرائز الجنسية وللأسف ظلَّ حبيس غرفة مظلمة تنيرها شموع اشعلتْ نار التلذذ بالألم في قلوب العبيد الذين كنت امتلكهم، غرفة ضيقة لم تتجاوز البضعة أمتار، وفي تلك الآونة زاد بي جنون العظمة، وهوس السيطرة والتملك الذي أصبح كل ما اريده، أصبح هذا هو حلمي الوحيد، أردت لكل العالم أن يمتع عينيه ويرى أني قادرة على التحكم، قادرة على السيطرة على حياة شخص آخر واكون حقا إلها في حياته وليس مجرد حافز جنسي لشبق التلذذ بالالم والمعاناة، أردت أن أصبح قادرة على السيطرة على أدق التفاصيل في حياة شخص آخر حتى وإن كانت تفاصيل كأكله وشربه ولبَاسِه واستحمامه....

[11] فينوس في الفراء : رواية إيروتيكية مازوخية للكاتب ليوبولد فون ساشر مازوخ و نشير هنا للشخصية البطلة السادية فينوس أو فاندا التي كانت لا تلبس الا معطفا من الفراء.
[12] قوطية : نسبة للحضارة القوطية في التاريخ التي عُرفت بالملابس الداكنة التي صارت في عقود الأخيرة حركة في موضة.

تفاصيل أحب أن أتحكم فيها من أكبرها إلى أصغرها أردت أن أكون أنا المشرفة عليها كلها وهكذا احس فعلا إني بمثابة خالق يتحكم في عبده، في قضائه وقدره.
كنت أبحث عن شخص لا أكون له فقط بمثابة إله يقدسه في نزوة جنسية عابرة، ليس فقط بمثابة كائن مقدس أشرف وأنبل التقديس.
أردت شخصا أكون له بمثابة يديه وساقيه والعقل المدبر والمحرك لكل حياته.
لا يستطيع القيام بأي شيء بدوني وأنا السبب الوجودي الوحيد لاستمراره في الحياة.
صرت احلم بمثل هذا التقديس الأعمى الذي يجعل العبد أعمى البصر والبصيرة يقاد كالدابة إلى الاسطبل. هذا كل ما اطلبه من العالم لكي اثبت ذاتي، أو بالأحرى لأفرض ذاتي على شخص مسلوب الإرادة ، مسلوب الذات. شخص مكبل وأنا الملاك المنقذ الذي سيُخَلصه ويعطيه معنى لحياته.
أنا حقا لم أعلم ماذا حل بي في تلك اللحظة ولماذا انتابتني هذه الأفكار. ربما لأن التمرد على جسدي لم يساعدني في العثور علي المعنى الحقيقي لوجودي ولم يجعلني احس بالحب الذي كنت أبحث عنه.
ولكن السلطة تولّد الحب، ليست السلطة العمودية التي اتحدث عنها هنا، وليست بالسلطة التي مارستها على أشخاص يائسين من الوجود .
السلطة هنا تصبح ذلك التجبر اللامباشر، كعلاقة خالق بمخلوق، كعلاقة أُمٍ بمولودها. علاقة متشابكة بين التسلط والحب، فلا يمكن لابن أن يكره أمه مهما اشتدت قَسوتها، الأم التي تُرضع وتُطعِم وتُحَمِم وتَحمي.
إنها الحصن الآمن، إنها الغابة المثمرة مهما توغل فيها من شرور مخاطر ووحوش إنها كالبرِيَّة قاسية وحنونة.

وتتالت الأيام، ومللت كل شيء في حياتي.
مللت من تلك العلاقات السَّاديَّة التي أحلم بها، مللت التأوهات التي لم أعد أهتم لها وتلك التهويدة أصبحت بمثابة ضوضاء تلوثٍ سمعي ولم تعد مصدر انتشاء لي وفي النهاية قررت أن أضع حدا لاسطورتي المرعبة التي روعت كل البشر.
واعتزلت السادية.

واعتزلت الحياة لأجد نفسي في الفراغ.
كيف للفراغ أن يقتل؟ أن يصبح حِملا فارغا لكنه ثقيل، أثقل من الكون كله، كيف للفراغ أن يكون عبئا ممتلئا لهذه الدرجة؟ ممتلئا بأسئلةٍ وفرضيات ومشاعر وخيالات لم تجد طريقا تقطعه من العقل الباطني إلى العالم الحسي.
كيف لي أن أعيش في الفراغ الذي سجنت فيه نفسي بين لوحات أرسمها كانت تعيسة الحظ مثلي، أو حتى أكثر تعاسة، فقد احتقرها الجميع... بين جدران شهدت على كل احتضار وعلى كل نَفَسٍ ظننت في إحدى الليالي أنه سيكون الأخير، لكنه لم يكن الأخير فقد كنت وللأسف شخصا فاشلا حتى في إنهاء حياتي، ربما لم أتحلَى بالجرأة الكافية لإنهائها، ولم تكن لدي الجرأة الكافية أيضا لمواصلة الحياة التي كُتب علي أن أتمتع بجمال فنونها وسحر كتبها وحدي، لأني وكما ذكرت سابقا كنت شخصا منفورا من الجميع بدون أصدقاء حقيقيين ولا وهميين، غير ناجح في كل المجالات الاجتماعية، ولم أستطع أن أثبت ماهيتي بالدراسة ولا بالعمل ولا حتى بالتعذيب.
فراغ لم يملأه أي رجل ولا أي هواية كالتي يَسد بها الناس العاديون ثقوب الضجر الذي حولهم، حتى كل الملذات والخطايا السبعة المميتة لم تقتل ذلك الشعور المنتشر داخلي كالسرطان، كأنه لا يوجد أي علاج يستأصل سرطان فشلي المنتشر، كأنني غريق بين أمواج عزلتي اصارع محاولة النجاة لكن العمق يسحبني للأسفل ويمنعني من الصعود لسطح الماء، حتى الموت لم يأت ليخلصني من ذلك العذاب، فهو أيضا كان كبقية المجتمع يستمتع برؤيتي أتخبط بين أنفاسي الأخيرة التي لم أتمكن من التقاطها، فلا سبيل للغرق ولا سبيل للنجاة، هذا هو الإحساس بالفراغ الذي كنت أعيشه ألف مرة في الدقيقة، يملأ رئتايْ ويحبس أنفاسي ويقطع الأكسجين عن عقلي الذي يفكر في أسوأ الأشياء ويتخذ أسوأ القرارات في حق نفسي وحق الجميع.
وهكذا بكل بساطة انطفأت نيراني لأني لم اجد من يقدرني ومن ينقذني من هذا المخاض، أو من يقدر وجودي على هذا الكوكب، وعدت بكل بساطة إلى حياتي البائسة الانعزالية السابقة.

بعد أن حققت كل ما اردته من الحياة، بعد أن جعلت الرجال تركع وتتذلل وتنفذ كل ما آمرهم به، حتى أصبحت كل هذه الأمور عادية تكسوها الرتابة، أشياء أمارسها مثل ما أمارس روتيني اليومي ولم يعد الألم مصدر تلذذ ونشوة بالنسبة لي.
فقد أردت المزيد من السيطرة والتحكم، أردت المزيد من الشر أردت أن اسيطر حتى لو كان بشكل ضمني أن أمسك خيوط الدمية الخشبية واجعلها تحاكي الحركات التي "انا" أُقررها.
أردت أن أكون شيئا ذو قيمة في حياة شخص ما.
أردت أن أكون "أنا" حياة شخص ما.
ثم اكتئبت...
لأني لم أجد سبيلا أنفذ به ما يدور بذهني
وشعرت بالضعف، والعجز والفشل.
واصلت عزلتي التي وجدت فيها نفسي وحيدة، لا أحد لأتسلى به، لا أهداف لا أصدقاء ولا مستقبل، كنت أطوف في العدم باحثة عن طوق نجاة،عن قشة أتمسك بها.
أردت شيئا آخر مغايرا لكل ما عهدته، لكني لم أعرف من أين أبدأ لكي أخطط .
لم أعرف بمن اتسلى وحياة من سأدمر هذه المرة، أو ماذا أريد أن أفعل.
لم أجد لعبة العب بها ولا دمية فودو[13] اعذبها واغرس فيها الدبابيس.
آلاف الأسئلة تدور في رأسي. حلقة مفرغة تفقدنِي الأمل.
فكلّ مرة كنت أفقد فيها الأمل، جعلتني تلك الممارسات القمعية في حق غيري أحس بقيمتي في المجتمع، كالدولة تماما، لا تستطيع أن تحس بعظمة شأنها إن لم تقم بقمع الأبرياء من مواطنيها وابادة معارضيها وقتل أحلامهم وتفقيرهِم وتجويعهم . لكن هذه المرة كانت مختلفة فقد سئمت من تلك اللعبة القذرة التي تلعبها الدولة اللا مبالية بما يحدث وراء أسوار القصر، أردت شيئا أبشع وأكثر قذارة، لكن المضحك في الأمر أني لا أعرف ما هو ذلك الأمر، ما الشيء الأكثر سلطة وفتكا من السادية فكل الأبواب مغلقة في طريقي.
كل الطرق مسدودة.

[13] الفودو : مذهب ديني يمارس في جنوب أفريقيا يقوم متبعيه بغراسة الدبابيس في دمى تمثل أعداءهم.

مسدودة لأنه لم يوجد طريق .
متاهة.
أدور في متاهة.
عقلي هو المتاهة وأنا حبيسته، حبيسة أفكار نرجسية معدومة.
افكار أشبه بالاوهام.
أوهام احاول تجسيدها على أرض الواقع.
فكنت امتخض بين الوهم واليأس، وأحلامي السادية التي لن تفارق مخيلتي، و لكن نسبة نجاحي هذه المرة ضئيلة لأن فريستي مجهولة وغير موجودة ولا أعرفها ولا تعرفني، فبمجرد التفكير بأني أحوم في عتمة العدم تغزوني موجات من اليأس لأني أبحث عن المستحيل... واريد المستحيل.
ولكن اسمه مستحيل والمستحيل يستحيل تحقيقه وإن كنت حقا آلهة فسأحقق كل ما اريد. فالإله لا يعرف المستحيل، لا توجد كلمة مستحيل في قاموسه.
فصرت اتلذذ بهذه الأفكار وأشعر بالمتعة بمجرد التفكير بها وهكذا زادت بي الهواجس الجنسية الفيتيشية وكانت هي الدافع الوحيد الذي يدفعني للحياة ولعدم الاستسلام. سأركض وراء شهواتي الايروسية[14] وسأساور البحث.
البحث الذي سيكون أصعب هذه المرة، لأنني لم أعد أعرف ما الذي سيشبع شهواتي الجهنمية الغريبة، شهواتي التي تلتهم كل شيء أمامها كالنيران، تفسد كل ما هو جميل وبريء، كل ما أريده هو الشر والخراب والسلطة المُطْلقة العموديّة الاستعبادية التي تتحكم في كل شيء وفي كل شخص، التي تقهر كل رجل ظن أن المرأة حشرة مكانها المطبخ أو غرفة النوم، أن المرأة آلة للتكاثر والمعاشرة.
إنها حقا لَأفكار غريبة بأتم معنى الكلمة، أفكار انتفاضيّة نسوية قاتلة.
اتمنى لو كنت انسانا عاديا يعيش حياة طبيعية بدون افكار وهواجس وحب للأدرينالين يسيطر على حياته.
بل لسوء حظي فقد رسمت طريقا مغايرة، سهرت على تصميمها وتسطيرها كما يحلو لي، لاني اذا أردت شيئا ما، حصلت عليه مهما كانت الأثمان، غير أن هذه المرة مختلفة عن سابقاتها، إنه حلم لا أعرف من أين ابدأ بتحقيقه.

[14] الايروسية : طبقا لايروس وهو اله الحب عند اليونان، والايروسية تعني الرغبة الجنسية الشديدة.

لذا أحسست بفشلي وتوهمي للعظمة والسيطرة والإنتقام، بالطبع أنا لست برجل دين لأقود ملايين العامة المعميينَ وأجعلهم يركعون لي وأعدهم بأشياء لا صحة لوجودها، ما أنا إلا فتاة تحمل في روحها حب التحكم والتسيير.

هذا إن صح استعمال كلمة إنسان لوصفي، فالإنسان يا عزيزي القارئ سبق وقلت في الأسطر التي قرأتَها سابقا لا تسيطر عليه غرائزه وتتحكم فيه كأنه غير قادر على الإدراك والتمييز بين الخطأ والصواب، فالشيء الذي يرتقي بنا من مرتبة الحيوان هي قدرتنا على إعمال العقل والسيطرة على الغرائز، فقد كنت أمقت الرجال الذين تسيطر عليهم غرائزهم العدوانية والايروسية بينما كنت احاكي ما يفعلون و لكن بطريقة فيها نزعة من التمرد على أفعالهم الشنيعة، أعلم أن الإعتراف بالخطأ من أكبر الفضائل، فعند اعترافك بخطئك لن يتمكن أي شخص من لومك عليه، لأنك قد اعترفت وانتهى الأمر لذلك يؤسفني القول بأني تمكنت من أن أسيطر على كل ما اريد إلا ذلك الجانب الشهواني الحيواني الذي يدفعني لارتكاب أخطاء ومعاصي ومحرمات.

حزنت لأني لن أترك أي بصمة في هذا العالم، لم أؤثر على أي شخص بالإيجاب، ورحيلي ذات يوم لن يؤثر في العالم أيضا، فستستمر الأرض بالدوران والناس بالتعايش السلمي وغير السلمي دون أن يلاحظ أحد اختفائي، لا أحد ليبكي على الاسطورة الإلهية المندثرة مثل غيرها من الأساطير ولا أحد لينتحب فوق ضريحي. فقدت الاحساس بقيمتي.

أردت أن أرى قيمتي وذاتي في عيني شخص ما، شخص لن يرحل مهما حدث لأني بكل بساطة الآلهة المباركة التي لا يمكن هجرها.

أردت أن أرى التقديس والولاء، كولاء رعية لحاكم باطش مستبد يستمد حياته ورفاهه ويحصد أرباحا من عَرَقهم واتعابهم.

أردت أن أجد شخصا لا يستطيع العيش بدوني بالمعنى الحرفي للكلمة.

أن أُنومه وأن اسحره فيصبح فاقدا للإرادة والقوة في حضرتي وفي غيابي

أن أملك كل ما أريده مهما كانت النتائج والعواقب.

سيئة أو جيدة.

كارثية أو سعيدة.

سأغامر هذه المرة أيضا، ومثل كل مرة سأحطم القيود، وازعزع العراقيل وأذلل كل الصعاب التي تجتاح طريقي.
إما أن أفوز بكل شيء أو لا.
وعشت لمدة لا بأس بها على هذا المنوال تسيطر علي أفكار لا ركيزة أساسية لها، هلوسات جعلتني أعيش كأني لست على قيد الحياة.
جسد خاوٍ يبحث عن سبب لوجوده، يبحث عن قيمته الملموسة ودلالاتهِ المفقودة.
وغمرتني تلك الأسئلة الوجودية التي طالما ظننت أني وجدت أجوبة لها.
رحت أسأل نفسي كيف اثبت ذاتي واسيطر على رجل في آن واحد، كيف اكسر صورة الرجل النمطية في مجتمع شرقي عربي مكبوت دون سادية جنسية. هذه الأسئلة الجديدة التي سأعمد على الإجابة عنها في الأسطر القادمة. كيف أغسل دماغه واجعله يؤمن بي دون أي نزوات عابرة؟
بقيت ابحث واسأل نفسي ماذا أريد حقا.
اريد شخصا، لكنه ليس ككل الأشخاص العاديين.
اريد شخصا واعيا عاقلا اسيطر عليه ويحبني لدرجة العبادة، وللقارئ هنا حقا أن يتساءل كيف لعاقل أن يجعل مريضا نفسيا مثلي يتحكم فيه؟
كيف لي أن أسيطر عن شخص عاقل إن كان واعٍ؟
وكيف لي أن اقيّده وأجعله ملكي شيئا خاصتي ككرسي متروك في المنزل أو ككأس أو كأريكة أو دمية ألعب بها متى أريد وأحطمها عندما أمِّل منها ؟
عندها بدأت هذه الفكرة كسابق افكاري الجهنمية الشيطانية تتكون كالجنين في ذهني، وجدت في عقلي الباطني محور اهتمام جديد، هوسا نفسيا جديدا، ليست السادية هذه المرة، إنها "الأكروتوموفيليا".
هكذا يسميها الأخِّصاء النفسيين، إن صح التعبير هذا هو المصطلح العلمي الذي يطلق على إضطراب نفسي آخر لم أكن أعلم أني أعاني منه ولم تكن لدي دراية بوجوده، مرض مدفون في خبايا أفكاري، فهو عبارة عن شهوة جنسية تحيل على اشتهاء الأشخاص المبتورين الفاقدين لاحد اطرافهم أو اكثر من طرف واحد، أشخاص يفتقرون لمقومات العيش العادي كأغلب الناس، هذه المجموعة البشرية التي تستوجب وجود شخص في حياتهم ليقودهم كخطوة أولى ومن ثمة يساعدهم

على القيام بالمهام اليومية، شخص عاجز، غير قادر على القيام بأبسط الأشياء وحده، شخص لن يتركك أبدا لأنك عنصر أساسي في حياته، رجل لن يتجرأ على الخيانة ولن يتحكم ولن يتمكن حتى من الذهاب للحمام بمفرده، لأنه بكل بساطة لا يستطيع القيام بأي شيء من دون مساعدة.

فبحثت عن كل التفاصيل التي تخص الأكروتوموفيليا ولكن ما راعني أنه لا يوجد دراسات تطرح هذا موضوع الذي يعتبر جزءا متفرعا من الشذوذ الجنسي المعروف ب البارافيليا،[15] والذي يتضمن العديد من الأمراض الفيتيشية التي تتجاوز الخمسمائة شذوذ جنسي، ومعظمها غير معروف ومازال قيد الدراسة، ولكن كل هذه الأمراض لم تثر انتباهي، بل كل ما أردت القيام به هو إيجاد القدر الكافي من المعلومات التي ستساعدنِي على فهم هذا الشذوذ الذي لم يتم التحدث عنه بما فيه الكفاية في مواقع الويب ولم أجد كتبا ومقالات تتطرق إلى مواضيع العابرين جسديا[16]، بل كل ما وجدته هو كتاب واحد يتمثل في أطروحة لأحد الأطباء النفسيين من جامعة زيوريخ، لأنه لا يزال موضوعا متشعبًا وغير واضح لدى الأخصائيين النفسيين وأطباء الأعصاب.

فمكونات هذا الاضطراب تنقسم إلى ثلاثة، كل منهما مرتبط بجانب بيولوجي، أو عصبي أو نفسي، فلهذا السبب ينظر كل أخصائي إلى هذه المتلازمة من زاويته الخاصة.

تعتبر الأكروتوموفيليا وعديد الاضطرابات البارافيليّة الجسدية النفسية الأخرى المماثلة لها جزءا من تشعبات سيكولوجية يصعب تفسيرها لأنها تتشكل في الطفولة المبكرة وتبقى مخزّنَةً في اللاوعي لتتحول فيما بعد إلى منبهات جنسية تنقسم إلى سالبة أي حب الشخص لأن يصبح مبتورًا، أو منبهات جنسية موجبة وهي حب الشخص في التحكم والسيطرة على الأشخاص المبتورين كمحفز جنسي.

فبالحديث عن العوامل البيولوجية التي تبدأ منذ الطفولة مثل الإهمال العاطفي: الذي يتعرض له الطفل في سنوات الأولى حتى وصوله لسن البلوغ أي إلى سن الثانية عشر كحد أقصى.

---

[15] البارافيليا : مصطلح طبي يستخدم لوصف حالة الشعور بإثارة الجنسية تجاه أشياء وحالات لا تكون جزءاً من المنبهات الجنسية العادية.

[16] العابرين جسديا : تبدأ أعراضه في مرحلة المراهقة المبكرة وينطوي على نتائج مؤذية كتغْيير أشياء في الجسم مثل بتر عضو ما، و يرتبط اضطراب تكامل هوية الجسم بالذهان التخيلي الجسدي

البحث عن الحب : الذي يتمثل هنا في استعطاف الناس إذ كان هذا الشخص مقعدا أو مبتورا، أو إيجاد الشخص السليم للحب الذي يحتاجه في شخص مبتور أو مقعد.
كذلك الانتباه الذي يتمثل في نفس الشيء: الإنتباه لأنه شخص مبتور أو مقعد ومحور اهتمام لدى الجميع، أو حصول شخص سليم البنية على الانتباه الذي يبحث عنه من شخص مقعد أو مبتور.
أما السِمات العصبية لهذه المتلازمة هي حسية جسدية يتم من خلالها الإحساس بلمس الأشياء وهكذا تحقق النشوة التي تُطبّع بحب بتر عضو جسدي ما أو الميل لشخص مبتور أو مقعد خاصة في سنوات الطفولة، فعند طرح سؤال لمجموعة من الناس عن أول مرة عرفوا أنهم يشتهون أشخاصا معاقين فكانت الإجابة أنهم لا يتذكرون متى لاحظوا نشأة ذلك الاضطراب النفسي لأنه وجد فيهم منذ الصغر أو لاحظوه منذ السن السابعة أو الثامنة أو عند بداية سن البلوغ على أقصى تقدير.
أما الجانب النفسي هو البحث عن جذب الانتباه والاثارة الجنسية الناتجة عن تحطيم صورة هندسة الجسد التي صممها المجتمع، والهروب من الرتابة والبحث عن تحديات جديدة. فالناس المنجذبين لأشخاص يحملون إعاقة يجدون أن الشخص المبتور مثير أكثر من شخص مقعد أو أعمى أو أصم وذلك لأن تركيبة جسده ليست كباقي الناس، بل مختلّة وفيها شيء من التفرد والتنوع عكس سائر الخلق.
وأنشأت دراسة شملت مجموعة من الناس ينجذبون لأشخاص مبتورين يجدون أن بتر كلا الساقين لشخص ما هو أكثر إثارة من بتر ساق واحدة وأجمعوا على أن البتر يكون في المستوى الأعلى من الفخذين، وكلما فقد المبتور أطرافًا أكثر كلما زاد انجذاب الأكروتوموفيلي له. لأنه يحس بِتبعيّته وتعويله على شخص سليم في كل متطلباته اليومية.
حيث يحبّذ الأكروتوموفيلي أن يكون شريكه مبتور اليدين أو الساقين مع ترك جزء من الأطراف يعرف ب"الجذعة" ليلمسها الشخص الأكروتوموفيلي ويحقق بذلك نشوته الجنسية. فكلما زاد بتر الأطراف كل ما أحس الأكروتوموفيلي أنه قادر على السيطرة الجنسية والتحكم في شريكه أكثر.

لذلك تبقى ملابسات هذا الاضطراب ونشأته غير محددة ومجهولة بسبب اختلافها من شخص إلى آخر وبسبب عدم الانفتاح على هذا الموضوع لحساسيته وهشاشته في المجتمع.

وإلى حد الآن الدراسات لا تزال قائمة في هذا المجال الذي تدور من حوله عديد نقاط الاستفهام. فإذا تناهى مصطلح الأكروتوموفيليا إلى مسمعك لأول مرة، فلك الحق أن تتساءل عن ماهيته وكيفية نشأته في باطن إنسان عاقل وما هي الأسباب التي أسفرت عن وجود هذا الاضطراب وهل له علاج نفسي أو لا، فقد تختلف خطورة هذا الإضطراب من شخص إلى آخر، ولكن الفئة الأقل خطورة هي الفئة التي تعرف بالمحاكِين، أي أنهم أشخاص سليمي البنية لا يعانون من أي إعاقة جسدية ولكنهم يتظاهرون بالإعاقة في الأماكن العامة ويحاكون كل تصرفات الأشخاص ذوي الإحتياجات الخاصة وذلك من خلال استعمال كرسي متحرك طوال الوقت أو التظاهر بأن أحد أطرافهم مبتورة وذلك قصد لفت الأنظار أو إثارة الشفقة.

أما الفئة الأخرى التي تعتبر أكثر خطورة هي الفئة التي تعاني هوسا تاما لا يستطيعون السيطرة عليه حيث قرأت عن وقائع شنيعة بتَر فيها الأكروتوموفيلي أحد أطرافه، أو قام ببتر طرف أو أكثر من أطراف شريكه الذي يريد أن يصبح عاجزا ومبتورًا حيث تعددت الحالات التي يقوم فيها شخص ما بِبتر أيدي أو أرجل شريكه الذي يريد أن يصبح شخصا مبتورًا ولكن تفشل هذه العمليات في أغلب الأحيان لما فيها من تعقيدٍ وما تتطلبه من معدات طبية غير متاحة للشخص العادي ويسفر عنها من نزيف قادر في أغلب الأحيان على أن يكون سببا للوفاة، وقرأت أيضا عن شخص يعاني من متلازمة نزاهة الهوية الجسدية[17] يريد أن يصبح عابرا جسدي فذهب للطبيب وطلب منه أن يبتر له ساقه اليسرى مقابل مبلغ وفير من المال، وفي هذه الحالة بعض الأطباء يوافقون على الإقدام على عملية متهورة كهذه بسبب المبلغ المالي المغري الذي يعرض عليهم رغم أن مثل هذه العمليات ممنوعة قانونيا ولكن بعض الأطباء يقومون بها في الخفاء، وقرأت أن طبيبا آخر عرضت عليه حالة مشابهة فرفض القيام بالعملية وأخضع المريض للعلاج النفسي الفوري وتم زجّه في مصحة للأمراض العقلية لأن العبور الجسدي يعتبر جنون ولا حرية

[17] متلازمة نزاهة الهوية الجسدية : هو اضطراب متسم برغبة الشخص بأن يكون معوقًا أو بشعوره بعدم الراحة إزاء صحته الجسدية السليمة.

شخصية، فهؤلاء العابرين جسديا يعتبرون أن البتر حق من حقوقهم وجزء من حرياتهم لذلك يجب تشريعه.

كل هذه الحالات ما تزال قيد البحث والدراسة لِما في الأمر من حِدَّة وتعقيد يختلف من انسان إلى آخر. لذلك لم أتمكن من تشخيص الحالة التي كنت أمر بها ولم أجد أرضية أبني عليها فرضيات تدعم شذوذي. كيف لي أن أفهم منبع ذلك الشعور الذي ينتابني بينما عجز أمهر الدكاترة وعلماء النفس في شرحه، ربما كما هو دارج في بعض الدراسات العلمية التي وجدتها وبعض الكتب التي طرحت موضوع إضطراب نزاهة الهوية الجسدية بشكل عام فالأشخاص الذين يبحثون عن سرقة الأضواء وأن يحضوا بالحب والإهتمام يعانون من متلازمة نزاهة الهوية الجسدية ويسعون لبتر أطرافهم أو يتمنون أن يصبحوا مشلولين أو يفقدوا القدرة عن الحركة أو يصبحوا معاقين عاجزين تماما. أما الأشخاص الأكروتوموفيليين الذين يحلمون بالسيطرة على أشخاص أقل منهم غالبا ما يحلمون بالسيطرة على أشخاص مبتوري الأطراف وكسر قيود المتداول، وهنا يمكنني القول أن الأكروتوموفيليا هي الجانب السادي لمتلازمة نزاهة الهوية الجسدية لما فيها من حب سيطرة وتسلُّط على الأشخاص الضعيفين.

رغم نعتي للأكروتوموفيليا بالجانب السادي لملازمة نزاهة الهوية الجسدية، غير أن بعض الأطباء الذين أثارهم هذا الموضوع لا يشاطرونني الرأي، بل يرون هذه المتلازمة كاضطراب نفسي لا علاقة له بالسادية أو بالمازوخية.

فجمعت أفكاري وكل المعلومات المتناقضة التي صارت بحوزتي. بداية من الإعاقة العضوية وبالتحديد أقصد البتر سوى أن كان منذ الولادة أو نتاج حادث أو مرض وهنا تصح كلمة مبتور على الحالتين حتى وإن ولد الشخص بدون أطراف، وانعكاساته النفسية والاجتماعية على الشخص المبتور في رحلته التي لن تنتهي مع هذه الإعاقة . قرأت كتبا علمية في مجال الطب لعلها تساعدني على تعميق معرفتي بهذا الإضطراب والتي تتعلق بعمليات بتر الأطراف التي انقسمت إلى جزئين الأول ناتج عن أمراض يعتبر أشهرها على سبيل المثال التهاب السحايا وهو عدوى الفيروسات أو البكتيريا أو غيرها من الكائنات الدقيقة.

أو الإنتان وهو حالة مرضية تتميز بتفاعل التهابي نتيجة عدوى جرثومية وظهور جراثيم في الدم والأنسجة. وهذه الأمراض التي ينتج عنها عادة بتر كل الأطراف الأربعة أو قد تصل العدوى في أقصى الحالات إلى الأنف والفم مما يؤدي إلى استئصَالهما.

وسبب آخر ناتج عن حوادث سوى حوادث طرقات أو حوادث شغل، نزيف حاد، أو تفجيرات إلى آخره من الحوادث المتعددة... والتي يكون فيها البتر الخيار الوحيد لإنقاذ حياة المريض.

دققت في كل المفاهيم والمصطلحات الطبية التي لست متعودة عليها كأني طالبة مجتهدة تبرع في مجال الطب والجراحة، فقد شمل بحثي الإجراءات كلها من البداية إلى النهاية بدأً من تهيئة قاعة العمليات للمريض وصولا إلى تحديد مكان البتر وتبنيج المريض، وكيفية التعامل مع الأوردة والشرايين والأعصاب والعضلات الموجودة على مستوى الساق أو اليد وكيفية قطع العظم وتمليسه لكي لا يسبب أي إزعاجات المبتور والحرص على التخلص من شظايا العظم المتناثرة في مكان الجرح وكيفية تغريز الطرف المبتور ثم أخيرا التضميد.

حرصت على حفظ أدق التفاصيل كأني جراح ماهر سيباشر عملية بتر طرف ما. تفاصيل لم تكن تثير أيا من اهتماماتي ولم أتصور في أحد الأيام أنها ستصبح ذا قيمة بالنسبة لي. فعلت كل هذا فقط لأمسك بزمام الأمور من منبع انطلاقها ولكي أفهم ضحيتي القادمة كما يجب وأدرس نفسيته قبل أن أقترب منه .

أما ما بعد العملية حرصت أيضا أن تتوسع معرفتي لتشمل كيفية التعامل مع الجروح الناتجة عن البتر والآلام المنجرة عنه والمسكنات التي ستخفف من حدة الأوجاع للشخص المبتور ومتى وكيف تغير الضمادات ومتى يلتئم الجرح، ومتى يستطيع المريض تركيب الأطراف الاصطناعية وماهي تكلفتها، وما هي أنواعها التي تختلف حسب اختلاف طول الطرف المتبقي بعد البتر وكيف تشتغل وكيف تصنع وما الفرق بين الأعضاء الإصطناعية العادية والأعضاء الآلية المتطورة، وأخيرا وليس آخرا إعادة التأهيل، التي تتكون من إعادة تأهيل المريض للتأقلم مع وضعه الجديد نفسيا وجسديا بدأً بتقبّل إعاقته والإنفتاح على المجتمع مجددا وصولا إلى التمارين الرياضية التي يقوم بها من أجل الحفاظ على مرونة عضلاته المتبقية

في مختلف الأمور والتحرك بالأطراف الاصطناعية إن وجدت فيتعلم كل شيء من البداية كأنه، كأنه طفل صغير يحاول أن يمسك قلما ليكتب أو ملعقة ليأكل... كل شيء بتعلمه مرة أخرى من جديد كأنه شخص حديث الولادة ولكن بطريقة أصعب .
أبحرت في عالم لم تكن لدي أدنى دراية به دون إهمال الجانب النفسي للشخص الذي فقد طرفا أو أكثر أو الشخص الذي ولد فاقدا لأطرافه كتشوه جيني.
فللتوضيح أكثر الجانب النفسي يختلف كل الاختلاف بين هذين الشخصين، بالنسبة لشخص وُلد فاقدا لطرف أو أكثر، يكون قد تعوّد التعايش مع إعاقته وتعوّد على الاختلاف وتأقلم مع محيطه وتعود على أن يساعده الناس كثيرا في أبسط الأمور، لأنه ولد مختلفا ونشأ على تطويع إعاقته وإعمالها في معترك الحياة.
عكس شخص فقط أطرافه في حادث أو في مرض، فهنا أول شيء سيصيبه هو اضطرابات نفسية نتاج تلك الصدمة، صدمة حادث مدمر حرمه استقلاليته وحريته التي كان يعيش بها. فحياته ستتحول من النقيض إلى النقيض خاصة إذا فقد أكثر من طرف، وكيف لذلك الحادث الفظيع أن يكون نقطة تحول سلبية في حياته ويجعله رافضا لما هو عليه لأشهر وربما لسنوات، سنوات ستتراكم فيها العقد النفسية صعبة التدارك تصل عادة للإنتحار.
ولكن هنا تكمن نقطة التشابه بين هذين الشخصين الحاملين لإعاقة ما وهي هشاشة شخصيتهما وسوء تقديرهِما للذات، ففي أعماق كل منهما نجد إضطرابات نفسية ونفورا للأنا المختلف عن الآخرين والآخر الذي غالبا ما يعتبر مصدر قلق وتهديد لهما في نفس الوقت، عقَدا تتطلب عزيمة تصقل من جلمود للتغلب على كل الإعاقات ولتمويهِ المجتمع وتغطية الصراعات النفسية التي يعاني منها هذا الشخص.
لم أهتم إن كانت ضحيتي الجديدة المسكينة التي ستقع في شباكي عما قريب قد فقدت أطرافها في حادث أو ولدت بدون أطراف ولم أهتم إن كانت الإعاقة على مستوى اليدين أو الساقين، همي الوحيد كان في التحكم والسيطرة على شخص بمثل هذه المواصفات، وأكون أنا المنارة المضيئة التي تقوده في ظلمة الليل.
كنت أعلم أن الإختلاف الذي يصفه المجتمع ب"الإعاقة" ليس بمثابة نعمة كما يظنه الأكروتوموفيليون أو العابرون جسديا، فما أسوأ أن نكون مختلفين، وأن لا نشبه

المحيطين بنا. فهنا يكون التفرد أشبه باللعنة، بالتعويذة المنحوسة التي لن تُفَك طلاسمها، قدر أشبه بجحيم لن يزول وعذاب لن ينتهي، لعنة يكون الأكروتوموفيلي المستفيد الوحيد منها.

هذا ما كنت أبحث عنه شخص لن يرحل أبدا، شخص يظل بجانبي إلى الأبد عكس غيره.

كل هذه الأبحاث زادتني هوسا وتشوقت لمزيد من المعرفة، بعد كل الدراسات الإكلينيكية التي أجريتها والتي جعلتني أتساءل عن نفسية شخص تعرض لصدمة كهذه، لذلك غيرت مهنتي الخيالية التي امتهنتها من طبيبة وجرّاحة ملمّة بكل ما يتعلق باختصاصها، إلى صحفية متقصية عن ماهية هذا الإضطراب، تنزل إلى الميدان وتعاين إحدى الحالات التي قضّت أياما تدرسها وتقرأ عنها بصفة مباشرة، ولحسن حظي الأمر كان في منتهى السهولة فقد تخطيت المرحلة الصعبة ووجدت حالة لأعاينها.

يومها، لبست ملابسي السوداء الطويلة كالعادة وقبعتي السوداء المستديرة، وأخذت حقيبتي الجلدية التي وضعت فيها بعض الأوراق وقلما في حالة احتجتهم لتدوين أي شيء وشددت الرحال إلى المستشفى الجامعي الذي لم يبعد سوى بضعة كيلومترات عن منزلي، كان أكبر مستشفى في البلاد وهناك عرفت أني سأجد شيئا أتسلى به .

دخلت عابرة البوابة الحديدية الضخمة واندهشت لعظمة الهندسة المعمارية القديمة التي تركها المستعمر الفرنسي، كانت مساحة المستشفى تعادل مساحة عشر ملاعب رياضية مع بعض، بنايات شاهقة ومساحة خضراء واسعة كأنها مدينة مستقلة بذاتها.

من السهل أن تضيع بين أجنحة هذا المستشفى واروقته، لذلك كان علي أن أكون حذرة.

منذ أن عبرت تلك البوابة الحديدية انشغلت بامتاع ناظريَّ بروعة المكان وجماله إلى أن وجدت ما كنت أبحث عنه بحيث لعبت الصدفة دورها وسهلت علي كل الأمور، استوقفني الهدف الذي جئت من أجله، كان الأمر سهلا لم يتطلب مني أي مجهود فبعد دقائق من التجوال في حديقة المستشفى والتمتع بمنظر الأشجار والأزهار والمرضى المتشبثين بالحياة والتائقين إليها وجدت بينهم رجلا عجوزا تدل

ملامحه على أنه غير مستمتع بهدوء شيخوخته وجمال المكان، مبتور الرجلين غاطس في كرسي متحرك وتجلس بجانبه ملاك الرحمة، ممرضة جميلة أنيقة سمراء البشرة لطيفة الملامح تبدو في العقد الثالث من عمرها.

رغم أن ذلك العجوز لم يكن الضحية المناسبة التي أبحث عنها، لأنني لم أجده مثيرا، كأن مجرد عجوز مبتور يصارع من أجل البقاء على قيد الحياة كغيره من المرضى المحيطين بي لكنه سيكون مفيدا في استكمال أبحاثي، عندها لم أتردد للحظة وتوجهت نحوهما بكل ثقة في النفس كأني حقا صحفية، هذا وقد برعت في الكذب وتقمص الأدوار طول حياتي أكذب على نفسي وأكذب على الآخرين .

وقفت قبالتهما بملابسي السوداء وأحمر شفاهي القاتم وابتسامتي المخادعة حييتهما وبعد أن بادراني التحية قلت:" عذرا سيدي، هل لي بكلمة معك على انفراد، فقد جئت من أجلك."

نظر إلي كأنه يسأل نفسه إن كان يعرفني، حدّق مليا ثم قال:" أجل بكل سرور."

وقفت الممرضة وباشرت بالإبتعاد لكن قبل ذلك توجهت نحوي وهمست:" لا تطيلي الحديث معه فهو متعب."

ثم أشارت بيدها إلى إحدى الأشجار وأضافت:" سأنتظر هناك تحت تلك الشجرة في حال احتاجني."

فابتسمت وقلت لها:" شكرا لك، لن آخذ الكثير من وقته."

جلست الممرضة تحت إحدى الأشجار تراقبنا عن بعد، أما أنا فقد جلست في مكانها على المقعد الحديدي جانب الرجل العجوز وقبل أن أنطق بكلمة قاطعني:" عذرا يا آنسة فأنا لم أعرفك."

ابتسمت وقلت:" في الواقع أنا لا أعرفك أيضا."

وضحت له الأمور وقلت له أني صحفية أعمل لحساب إحدى الجرائد الخاصة وعملي التحقيقي هذه المرة يتناول موضوع الإعاقة، استحب الفكرة وفرح بقدومي، أخرجت هاتفي من الحقيبة وتظاهرت بتسجيل المحادثة بعد أن استأذنت للقيام بذلك، ثم بدأت ألقي عليه بعض الأسئلة:" ما اسم حضرتك ؟"

فقال:" اسمي محمد وعمري خمسون."

وواصل حديثه بكل حماس قبل أن ألقي عليه أي سؤال:" صرت مقعدا في سن الثمانية عشر وقبل بضع أسابيع فقدت كلتا رجليّ، تم بترهما لأن المرض أصبح خارجا عن السيطرة."

قاطعته مستفسرة:" فهمتك، ولكن هل لي أن أعلم ما هو المرض الذي تعاني منه ؟... بالطبع إن كان الأمر لا يزعجك."

نظر إلي بعينيه البنيتين المحوقتين وشحبت بشرته الحنطية المجعدة التي سئمتْ المرض والمعاناة ووقف شعره الرمادي المنفوشُ الأَجعد الذي جردته الأيام من لونه الأسود ليكتسيهُ الشيب وقال:"أخيرا هناك من يهتم لأمري، لم يسألني أحد عن أحوالي منذ سنين، حتى الناس هنا... كل الممرضين والأطباء يتقاضون راتبا ليعاملوني بلطف."

سافر السيد محمد بذاكرته وعاد إلى الوراء وشرع باستحضار شريط ذكرياته، تنهد وقال في أسى وتحسر:" كنت عدّاءا محترفا في المدرسة الثانوية، كانت أياما كالحلم، كنت أحب الجري والمشاركة في كل أنواع السباقات وفي تلك الأيام كان حلمي أن أصبح رياضيا محترفا... إلى أن تعرضت لحادث سيارة، لم أتوقع أن أصِل لهذه الحالة الرثة في ريعان شبابي، ظننت أن هذه الأشياء تصيب الآخرين لا أنا، ظننت أن هذه الأشياء أسمع بها فقط أو أراها في الأخبار."

في تلك اللحظة شعرت بمدى الأسى الذي يحس به السيد محمد وانتقل لي الألم الذي كان في عينيه، تمنيت لو أستطيع تخفيف ذلك الألم وقلت قصد مواساته:" أنا حقا آسفة لم أقصد أن أسبب كل هذا الإزعاج."

فابتسم وسرعان ما انبسطت أسارير وجهه وقال:" ليس هناك أي إزعاج لقد أمضيت أكثر من نصف عمري على هذا الكرسي، اعتدت الأمر وصارت تجمعني به علاقة حميمية وطيدة، تقبلت هذا الكرسي وصار بمثابة صديق لي، لكن ما أزعجني حقا هو فقداني لرِجلَيَّ إنه الأمر الذي لم أتقبله، الآن صرت أحس بالإختلاف و معنى أن لا تكون كالآخرين رغم أني لم أكن مثل الآخرين منذ البداية و لكن الآن الأمور صارت أسوأ، كل الناس ينظرون إلي كأني مخلوق فضائي... كأن شعري أخضر ولساني مقسوم إلى نصفين كلسان الأفعى، تلك النظرات جعلتني أتخلى عن كل

أحلامي، فبعد الحادث لم أفقد الأمل وسعيت لأكون معلقا رياضيا، لكن هذا الحلم أيضا تلاشى كأحلامي الأخرى وككل حياتي."

اختلست النظر إلى رجليه المبتورتين فوق الركبة والضمَادات مازالت موضوعة عليهما، كانت طبقة سميكة من الضمَادات فانتابني الفضول لتحسس تلك الأطراف ولمعاينة سمك طبقة الضمادات فوضعت يدي على فخذه بجرأة غير مسبوقة وقلت قصد مواساته:" لا تقل ذلك هذه ليست نهاية العالم، أنا متأكدة أن زوجتك تحبك وعائلتك وكل أصدقائك يهتمون لأمرك، تقبل الأمر فهذه هي الحياة نعيشها بحلوها ومرها."

نظر إلى يدي الموضوعة فوق فخذه فأبعَدتُها على الفور وابتسمت ابتسامة خفيفة تخفي توتري، لكنه قال ضاحكا:" أنا لم أتزوج أبدا في حياتي وليس لدي أي أطفال لأضحي من أجلهم، من هي المرأة التي ستقبل بي زوجا لها؟ لا أملك في هذا العالم سوى أختي وهي ثرثارة جدا، كلما تزورني تثقب طبلة أذني بحديثها الذي لا ينتهي عن أولادها وعن وظيفتها ويومها الشاق... لكنها تحبني وهي الوحيدة التي تبعث فيّ الأمل."

ثم أضاف:" قبل أعوام عندما كنت في الثلاثينيات من عمري تعرفت على امرأة ألمانية كانت آية في الجمال والروعة شقراء فاتنة وجذابة بعينين خضراوين واسعتين كهذا العشب الذي حولنا وقوام ممشوق كالاجنبيات الموجودات على أغلفة المجلات إسمها إليزابيث، كانت مثالية في كل شيء، حسدني عليها كل أصدقائي... وكانت مستعدة لتتزوجني وتتقاسم معي محنتي، كانت المرأة الوحيدة التي تقبلت إعاقتي ولم تعاملني بلطف فقط من باب الشفقة بل أحبتني بصدق... لكني كنت مغفلا، فبعد أن قررنا الزواج جاءت من ألمانيا خصيصا لنتقابل ونُتِم مراسم الزواج وأسافر معها لألمانيا، عندها اختبأت كالدجاجة ولم أقابلها حشرتُ رأسي في التراب كالنعامة لأيام ثم اختفيتُ كليا من حياتها دون أي مبرر لم أرُدّ على مكالماتهَا ورفضتُ رؤيتها، كنت خائفا من فكرة الزواج والإرتباط والإقدام على علاقة جدية، أعرف أنه كان تصرفا حقيرا جعلها حزينة لأيام، لكن بعد سنوات علمت أنها تزوجت وصارت سعيدة مع غيري عندها ندمت على كل ما فعلته في حق تلك

المسكينة ومنذ ذلك الحين لم أتعرف عن أي امرأة أخرى، تقدمت في السن واعتدت على الوحدة وعلى حياتي التي أقضيها بين جدران منزلي أو جدران المستشفى."
واصلت طرح أسئلتي المتعلقة بالجانب النفسي وتدوينَ المعلومات المهمة
واطلعني السيد محمد على كل التفاصيل التي أردت معرفتها وقال:" صدمة الحادث لم تفارقني كامل حياتي، بحيث أنني أصحو كل ليلة على نفس الكوابيس التي تتكرر فيها ومضات من ذلك الحادث الأليم، خاصة في الآونة الأخيرة عندما أعلمونِي أنهم سيبترون لي كلتا رجليّ، فكرة الموت أثناء العملية لم تفارقني لم أتقبل أنني سأنام لساعات ثم أستيقظ دون رِجلين، بالإضافة إلى فقداني الثقة بنفسي وخوفي من الصورة التي سيرَاني عليها المجتمع الساخر الذي لا يرحم."
نسيت نفسي في غضون ذلك الحديث الشيق فالسّيد محمد كان رجلا طيبا لم يبخل بالجواب على أسئلتي بل فرح بها و حاول إفادتي قدر الإمكان.
أظن أنه كان ثرثارا بعض الشيء مثل أخته التي حدثني عنها.
لكن أكثر شيء أثار إعجابي في ذلك الرجل هي صراحته تحدث عن مشاكله النفسية ومخاوفه بكل سلاسة ولم يكبت أيا منها، وكان يتمتع بحس دعابة طريف وكوميديا سوداء جعلتني أضحك من قلبي إلى أن وجدت الممرضة تقف أمامنا وقالت:" أظن أن هذا يكفي، لقد طلبت منك أن لا تطيلي الحديث معه وها قد مرت ساعة كاملة، أظن أن عليه الرجوع إلى غرفته ليرتاح."
وقبل مغادرتي أعطاني عنوانه المنزلي في حالة احتجت المزيد من المعلومات وقال أيضا أنه سيغادر المستشفى في اليوم الواحد والثلاثين من هذا الشهر.
شكرته على حفاوته وروح دعابته ثم قال لي:" أنت أيضا ظريفة جدا والوقت مر بسرعة معك، إلى اللقاء وأنا متأكد من أننا سنلتقي مجددا يا آنسة."
ودعته وغادرت المستشفى وفي الطريق ضحكت على كلام ذلك الرجل الذي كان متأكدا من أننا سنلتقي مجددا، رغم أني لم أكن أخطط لزيارته مرة أخرى فهو ليس النوع الذي أريده من الرجال ولا يصلح ليكون فريسة افترسها، نظرت إلى الورقة التي كتبت فيها عنوان السيد محمد وكنت سأرمي بها في الشارع، لكن تلويث البيئة كان آخر همي لذلك رميتها في الحقيبة وواصلت المشي مسرورةً بالإنجاز الذي حققته اليوم، فالجانِب المشرق في كل الحكاية هو أني فهمت طريقة تفكير شخص

مبتور أو مقعد وفهمت طريقة تعامله مع الناس والعلاقات الغرامية ورهابه المبالغ فيه وخاصة تلك العقد النفسية الناجمة عن تلك الإعاقة: اضطرابات نفسية مختلفة خاصة اضطراب الكرب التالي للصدمة[18] ونوبات الهلع ونوبات القلق والاكتئاب والأفكار الانتحارية وخاصة العزوف عن المجتمع. كل هذه المعلومات من دون أدنى شك ستقودني إلى فريستي وستساعدني على فهم استراتيجيتها.

بالإضافة إلى أني استنتجت بعد عديد الدراسات العلمية التي تفرعت إلى طبية ونفسية، نظرية وتطبيقية أن هؤلاء الناس يسهل تسييرهم والسيطرة عليهم لأنهم يعتبرونك بمثابة الملجأ الآمن لهم، فأنت سوف تعتني بهم توفر لهم قوتهم وشرابهم وتحميهم وتسهر على راحتهم وتعطيهم كل الحب اللازم الذي حرمهم منه المجتمع.

وواصلت الغوص في أعماق الأكروتوموفيليا هذا الاضطراب الجنوني التي تمرد على العادات الجنسية المعهودة، وزاد حبي لهذا الشبق وزاد فضولي لمعرفة المزيد عنه.

وجننت.

جننت لأني أردت أن أجد شخصا بهذه المواصفات لاحرك حياته، انسان لا يستطيع القيام بأي شيء من دوني حتى أن كانت أبسط الحاجيات اليومية.

شخصا سيقبع في مكانه وينتظرك مدى الحياة.

وهكذا أُصبحُ موضع اهتمام إنسان ما والعمود الفقري لحياته: مصدر فرحته ومصدر بهجته ومصدر إلهامه.

السبب الذي يجعله ينهض متفائلا كل صباح.

وكل قراراتي وأوامري تنفذ لأني أنا السلطة، أنا القدر.

أصبح هذا الجنون كجمر يوقد جحيم أفكاري، أردت أن أجرب كل ما يدور في ذهني وأن أمارس سلطتي على شخص ضعيف الحال فاقدا للحيلة أمام قسوتي.

فمن سيكون الضحية القادمة؟

أين سأعثر عليه؟

أو أين سيعثر علي؟

[18] اضطراب الكرب التالي للصدمة : هو نوع من أنواع المرض النفسي والمشاكل المتعلقة بها و يسبق هذا الاضطراب حادثا أو عدة كوارث.

هل ستتحرك الكواكب والنجوم وتصطدم الأقدار وتلاقيني بحبيبي مجهول الهوية؟
اتحرق شوقا للقاء شخص لا يعرف بوجودي، ولا يدري ما الذي أعدّه له في المقابل.
يا حبيبا هاجت أشواقي للقائه، إني أنتظر قدومك على أحر من نار جهنم.
إني أناديك وأناجيك بإسم القدر الإلهي الذي سيجمعنا قريبا.
بإسم المحبة الروحية التي فاقت قوتها كل الأبعاد الكونية.
بإسم قانون الجذب الفكري تعال إلي...
وشبع محروما أعياه الانتظار.
واتعبه السهر.
وأثملته الشهوة.
وسلبته وعيه.
ولا وعيه.
فأمسيت كالعاشق التائق لمعانقة الحرية.
الحرية الموعودة.
والخلاص المنشود.
أخذت أفتش في ارشيفات عقلي، لعلي أجده، لعلي أعثر عليه في الأوراق المبعثرة، في دفاتري المخبأة، في كتبي المَنسية ورسوماتي الغير مكتملَة أو في أحلامي الغير متحققة.
أسير في الشوارع كذئب يسيل لعابه من كثرة الجوع، ابحث في كل قطيع بشري أراه عن فريسة مجهولة.
روحي تطوف وعقلي يطير، باحثين بين أحشاد من العامة النمطيين.
"عنه" ذاك الذي اخترته ولم أره، والذي لا يعرف لي سبيلا أو طريق.
نحن الاثنان سويا نسير في متاهة وجب علينا أن يلقى فيها أحدنا الآخر قبل فوات الأوان.
ەفي تلك اللحظة أيقنت إنه حقا أمر صعب أشبه بالمستحيل، وقد يتطلب يقتضي البحث أشهرا أو سنوات... وربما لن نجد بعضنا مهما حدث، لأنني بكل بساطة لم

يسبق لي أن تعرفت على شخص من ذوي الاحتياجات الخاصة في حياتي، أظن أني لم أقابل شخصاً مبتورا قَط.
هل سأسكن المستشفيات والمصحات بحثا عن رجل فاقد لأطرافه؟
هل سأَجِدُ رجلا وأقطع كل أطرافه... يا له من جنون.
ما كل هذه التعاسة.
بعد برهة من عناء البحث الذي لم يجدي نفعا أدركت أني أضيع وقتي وأتوهم علاقة لا يمكن أن تتجسد على أرض الواقع.
عدت أجر أذيال الخيبة إلى غرفتي مجددا وجلست وحيدة حبيسة تلك الأمتار المظلمة.
أشعل الشموع واتأمل وأحتسي كأسا من الخمر وأفكر فيه ذلك الحبيب الشبح.
والموسيقى الكلاسيكية الكئيبة تتدفق لتغمرني بين ألحانها الخالية من الكلمات، ذلك هو الشيء الوحيد الذي عشقته في الموسيقى الكلاسيكية، هو أنه لا توجد أي كلمات تشوه تلك الألحان التي أسمعها إن كنت سعيدة أو حزينة، فللموسِيقى الكلاسيكية سحرها الخاص الذي يتماشى مع كل مزاج دون أن تعكر مزاجك كلمات لا ضرورة منها. فأنساق مع كل نغم أفكر بحبيبي الضائع المفقود، وأتمنى أن يكون معي ليتلذذ بأعذب الألحان وأسقيه ما تيسر من الخمور ونعيش تعاستنا سويا بكل بهجة وسرور.
كانت الشموع تشتعل، والنار في داخلي تلتهب وقلبي يحترق ودمي يفور، كانت الأغنية المجريّة المشؤومة كما يدّعون "الأحد الكئيب[19]" تُغني بكلماتها الكئيبة التي من يسمعها يفكر في الإنتحار وأنا كالمرأة الممزقة التي فقدت زوجها قربانا في إحدى الحروب العالمية. إمرأة لا تستطيع أن تنوح بطلًا ضحت به من أجل خدمة الوطن والإنسانية. لا قبر لترثي عليه من تحب، لأنه مات وتقطع إلى أشلاء، مثل ما يتقطع قلبي في هذه اللحظة.
كان يُخيّم على كل أرجاء المنزل ذلك الطابع الحزين الذي عهدته.
ديكور باهت وأثاث بالي يعكس شخصيتي المنفصمة بين الفن والجنون.
موسيقى تُمجِّد الموتى.

[19] الأحد الكئيب : قطعة موسيقيّة جازيّة كتبها الفنان المجري رجو شرش سنة 1933 إحياءً لذكرى المفقودين الّذين أحبّهم.

ظلام دامس.
كُتُب حازت على أكبر قسط من رفوف المكتبة التي وجدت لنفسها مكانا في ركن من أركان قاعة الجلوس المظلمة، وفي تلك المكتبة يوجد روايات كلاسيكية عالمية كان أغلبها يعود للعهد القوطي، كتب فلسفية، روايات بوليسية وأخرى ايروتيكية ودواوينُ أشعار.
هذا ما كنت أقرأ، وهكذا كنت أعيش.
لوحات كلاسيكية علقت في كل جدران المنزل وقد رسمت كل تلك اللوحات بكل فخر، ذلك كان الشيء الوحيد الذي افتخرت به، نعم انها بأدنى شك موهبتي في الرسم، وذوقي الأدبي الرفيع.
لوحات من حقب زمنية مختلفة، بعض من عصر النهضة[20] وبعض آخر من حقبة الروكوكو[21]، أما بالنسبة اللوحات التي كانت تستهوي انتباهي أكثر كانت من حقبة الباروك[22] .
فكان للمتمكن من تاريخ الفن أن يلاحظ ذلك بسهولة تامة. وأن يلاحظ أيضا أني من هواة جمع اللوحات الكلاسيكية التي برعتُ في رسمها وإخراجها نسخًا مطابقة للأصلية تحَديْت بها أكبر الرسامين العالميين.
لوحات زيتية مبعثرة هنا وهناك متكومة في كل شبر من المنزل.
لوحات منسيّة مثلي، تعبق منها رائحة الحنين للماضي، لزمن لم أعشه وحبيب لم ألقاه وحقبة زمنية لن تعود ولن تأتي مجددا.
وأخذت اتجول بعينيّ في أرجاء الغرفة وأتأمل بكل تقديس وتمجيد لوحاتي التي قضيت سنين ابدع في رسمها، كأن الرسم هو الشيء الوحيد الجميل الذي يجعلني اقتل ذلك الملل السائد في حياتي ويجعلني أعود بالزمن للوراء لعصور كان لها بالغ الأثر في مجد الحضارة.
فالفن بالنسبة لي هو من أنبل الأشياء على الإطلاق، ففي الماضي كان الناس يقدرون الذين يبرعون في الفنون ويمتهنونها.

[20] عصر النهضة :هو حركة فنية و أدبية و بشرية ظهرت في إيطاليا في القرن الخامس عشر لتشمل أوروبا بأكملها.
[21] الروكوكو: يعد حركة فنية ظهرت في القرن الثامن عشر ويعد امتدادا للباروك لكن بتقنيات مختلفة.
[22] الباروك : فن نشأ في أوروبا الغربية في القرن السابع عشرليشمل عديد المجالات كالأدب و الرسم و المعمار.

عكس ما يحدث الآن، ليت القرون تعود بي للوراء وأنساب مع ملكة أفكاري وتداعب ريشاتي ما اختلف من اللوحات القماشية والخشبية.
إني أتنفس الفن وأعيش من أجله واكرس حياتي لأرقى الفنون وأجملها، فعندما ينظر شخص ما للوحة كلاسيكية تأسره وتسحر قلبه بدقتها وما تحمله في بطنها من قصص وخفايا.
"لنا الفن كي لا تميتنا الحقيقة" كما قال نيتشه[23] .
ولنا الحلم كي لا تدمرنا قسوة الحياة، وأنا علقت روحي بين الفن والحلم وعشت في عالمي الخاص، زينتُ بفرشاتي والواني أحلام اليقظة التي لم تعد مجرد أوهام وافتراض، بل صارت تتداخل مع حياتي اليومية.
فالحلم بمثابة فن.
والفن هو مفتاح الحياة، فأن تحلم هو أكبر دليل على أن قلبك ينبض بالأمل ومفعم بالحياة. لذلك لن أفقد الأمل، حتى وإن كنت أعتبر أن الأمل أكبر كذبة بشرية اخترعها الإنسان ليتشبثَ بأحلام يعرف أن نسبة تحققها أكثر من ضئيلة.
وسأداعب هذا الواقع القبيح بريشة رسام عاشق ولهان وملهَم.
فالحب هو أكبر مصدر للإلهام، وأكبر منبع للحياة.
وأنا أحب وأهوى، أنا فنان غلبتْه القوى الخارقة للحب، حب من طرف واحد، حب ميئوس منه...

فماذا علي أن أفعل؟

[23] نيتشه : فريدريش فيلهيلم نيتشه هو فيلسوف ألماني كان لعمله تأثير عميق على الفلسفة الغربية وتاريخ الفكر الحديث.

على وقع هذه الكلمات التي كنت أهذي بها في حالة لا وعي اعتيادية كنت اتحاور فيها مع ذاتي، رجعت بذاكرتي إلى الوراء، ورأيت مشاهد غير واضحة من ماض كان قد تجسد في حياتي ولم ابدي له أي اهتمام، وعصفت بي الأفكار واخذت ادور في زوبعة الماضي الذي لا أتذكر إذ مضى عن مروره أشهر أم سنوات، حدث عادي لا يصلح للتذكر لأنه كان بسيطا، نعم لقد كان بسيطا في تلك الفترة من الزمن، أما الآن، فهذا الحدث الذي تذكرته سيمثل أكبر منعرج في حياتي، أكبر تحول درامي يحصل لي بعد كل هذه الأشهر السوداء وما مرّ علي من قحت وعناء وجفاء عاطفي.

كيف لم انتبه لهذه الخطة من قبل، كيف نسيت هذا الرجل ولم اعره أي انتباه؟

حقا إن لحظة التأمل هذه اجدت نفعا.

وجدت الرجل الذي أعياني التفكير به، وجدت طريدتي الجديدة مختبأ بعيدا عن الأنظار داخل رأسي.

الشخص الذي أتْلِفَت أعصابي وأنا ابحث عنه.

صرتُ اسعد مخلوقة في العالم الآن لأني وجدت الحل لجزء كبير من مخططي، وجدت ضالتي تائهة في حدائق عقلي السرية.

لا تتحمس كثيرا يا عزيزي القارئ، فإني سأطلعك على حبيبي الذي صرت ألهف أكثر للقائه، حبيبي الذي لم يعد وهما، ولم يعد شبحا. بل أصبح إنسانا بشحمه ولحمه، ولم يعد يفصلني عنه سوى مخطط منبثق من قعر الجحيم.

أتذكر ذلك اللقاء الوهمي الأول الذي جمعني بقدري الذي لم أكن أعرف أنه سيكون قدري ونصفي الثاني وشريك حياتي الذي ستكون حياته بين يدي، أو ربما حياتي بين يديه.

وجدت فريستي منذ وقت طويل أو بالأحرى رأيته تحديدا قبل عامين، ولم يفصلني عنه سوى الزجاج، زجاج تلفاز يبث أتفه البرامج وأسوأها، فأنا لم أكن مولعة بمشاهدة البرامج التلفزيونية التي تلوث العقل البشري وتفرض عليه الصورة التي تريدها، كنت في غرفتي كالعادة مستلقية في السرير أفكر في العدم مثلما تعودتم بي،

عندها ناداني أحد أفراد عائلتي وقطع حبل أفكاري قصد أن أشاهد برنامجا تلفزيا محوره الرسم.
فخرجت من غرفتي وذهبت لأجلس مع أفراد عائلتي الذين نادرا ما أجلس معهم بسبب تعاليّ عن كل الناس، نعم فقد شملت ساديتي أفراد عائلتي أيضا، لذلك كنت أحبذ المكوث وحدي في غرفتي والتحديق بخيوط العنكبوت الموجودة في السقف التي لم أرغب يوما في إزالتها لأن ذلك العنكب الصغير صار بمثابة صديقي الوحيد، على أن أجلس مع عائلتي وأشاهد الابتذال الذي يبثه التلفاز.
لكن في تلك الليلة ذهبت لأشاهد التلفاز، ثم رأيته... من بين كل الجموع الغفيرة التي كانت موجودة هناك وقع نظري عليه هو بالذات.
عندها فهمت كل ما قرأته عن الأكروتوموفيليا، فمن الواضح أن هذا الشخص ظل راسخا في مخيلتي دون أن أعي ذلك، مثل هؤلاء الناس الذين تعلقوا بشخص من ذوي الاحتياجات الخاصة دون انتباههم ونتج عن ذلك كل هذه الإضطرابات التي ذكرتها أعلاه.
كيف لم انتبه له منذ البداية وراح من بالي كليا، لوهلة ظننت أني جننت وظننت أن هذا الشذوذ جاء من العدم.
أذكر أنه أعجبني من النظرة الاولى، ومن شدة إعجابي به أستطيع أن استحضر كل ما رأيته في ذلك البرنامج يومها.
كان يتحدث بكل ثقة في النفس وبكل رباطة جأش، رغم أن لوحاته لم تجذب انتباهي في البداية ولم انظر إليها من الجانب الفني.
لا، لا تعجبوا، فأنا لست من عشاق المناظر الطبيعية، ولا رسوم المباني، ولا اللوحات التقليدية لبعض الأماكن السياحية المعروفة كالتي كان يرسمها، ولكنه مع كل هذا شدني، وجذبني بطريقة أو بأخرى سرق كل انتباهي واستحوذ على مكان في عقلي، حتى وإن لم يخطر على بالي بسرعة فاسمه حفر في أعمق المناطق في سراديب دماغي وأظلم دهاليز قلبي
عينان زرقاوان... ذلك الأزرق النيلي الداكن، مثل بحر عميق، تسقط فيه، تغوص وتغوص إلى أن تغرق بين أمواجه الهائلة المدمرة
أما أنا، فللاسف فقد غرقت في تلك العينين

لم أجد مصطلح يعكس ما أحسست به عندما رأيته يتحدث لأول مرة، فقد كان يتحدث عن لوحاته وحبه الفن ومعارضه التي أقامها بكل فخر واعتزاز النجاح الذي حققه رغم كل العوائق الدراسية والاجتماعية التي تعرض لها.
وتعالى تصفيق الجمهور وزاد فرحه الممزوج بدموع الفرح ودموع التغلب على كل الصعاب.
مع بعض الحزن الذي يسكن في عينيه
شجن يخفي بداخله غصة ولوعة.
إكتراب يحمله على أكتافه منذ أن عانق هذا العالم.
نعم حالته كانت كالآتي شعور بالغبطة يسيطر عليه إحساس بالحرقة على الحال التي هو عليها منذ الأزل.
مفارقة كانت وليدة تلك اللحظة.
احساس للأسف لم تستطع براعته في الرسم أن تخفيه، حزن متراكم نفس الحزن الذي رأيته في عينَيْ السيد محمد، احساس كأنه قليل القيمة حتى وإن بلغت قدرته الإبداعية ذروتها، احساس كأنه ليس كالآخرين، لأنه حقا ليس كالآخرين، ليس مثلنا ولن يكون مثلنا، لماذا نحن شعب نُزيف الحقيقة ونقول أن الإعاقة ليست إعاقة الجسد بل إعاقة الفكر.
لماذا نغطي الواقع بأكاذيب وردية، أو بالأحرى نتظاهر بتجميل ما نراه قبيحا.
نغطي ما لا نريد نقاشه أو مواجهته.
نعم ربما قد تحدى إعاقته الجسدية وتمكن من الرسم ولكن لن يستطيع أن يتحداها في حياته اليومية بل ستبقى عائقا، حاجزا بينه وبين الحياة.
رغم أنه لم يكن كالآخرين إلا أنه لم يعمد إظهار ذلك، بل كان يردد أنه لا يحس باختلافه وإعاقته، والإعاقة هي مجرد وصف ليس إلا.
فكلمة الإعاقة على حد قوله ليست بالنعت القاسي، أو بالشتيمة، بل هي مجرد وصف لحالته الجسدية، لذلك هو لا يمانعها ولا يمانع التحدث عن المصاعب التي تعترضه يوميا.

تبدو كلمات مشجعة وباعثة الامل في الشخص العادي وفي الشخص ذو الاحتياجات الخاصة على حد السواء، إنه خطاب مؤثر يجعلك تندفع نحو الحياة وتقهرها بكل أهوالهَا وأغوالِها.

ولكني قرأت بين السطور.

قرأت ما عجز أن يقوله لسانه، فأنا لا أعجب من ذلك لأننا نحاول أن نكون أقوياء أمام مجتمع متنمر لا يعرف للرحمة سبيلا.

فنخاف من أن يطرق ذلك الآخر أبوابنا ويفسح مجالا لإخراج مخاوفنا التي لا نريد مواجهتها حتى أمام المرآة.

لا، نحن لسنا بجبناء بل نشأنا على الكبت منذ الصغر.

رأيت في عينيه الكلمات التي لم يتجرأ أن يقولها.

لكن السيد محمد سبقه و يتجرأ على قولها وعقلي عمد فهمها ودراستها والإحساس بها وقراءة لغة الجسد.

الكلمات التي سمعها وسيتواصل في سماعها إلى آخر نفس في حياته.

الكلمات الموجعة والنظرات القاسية التي يلقاها في كل لحظة فيتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعه.

فربما، قد كنت من القلة القلائل الذين لاحظوا ذلك الحزن وراء أمواج عينيه الهادئة وربما كنت أنا وحدي التي لاحظته لأن معظم الناس كانوا منبهرين بلوحاته وعزيمته وحبه للحياة ورسائل الأمل التي كان ينشرها في كل القنوات. فلوحاته كانت بمثابة المعجزة الإلهية بالنسبة للعقول البسيطة.

لكن للعينين قدرة فائقة على التعبير تتجاوز الحركات والأقوال.

لأن العينين لا تكذب ولا تراوغ، بل تعكس داخلية الإنسان مهما كان بارعا في الكذب، فإن كذب أحدهم فسترون الكذب في عينيه، كذلك إذا راوغ، أو إذا أحب.

فقط أمعن النظر مليا في أعين من تحب وسترى الحقيقة.

مثل ما رأيت أنا الأسى في عيني رجل عاجز.

ولعلكم تتساءلون ما الإعجاز في لوحاته؟

وما هي الإعاقة التي يعاني منها هذا الفنان.

ولعلي أطلت الوصف متعمدة التغافل عن أهم التفاصيل، تفاصيل أحاول إستحضار أهمها لأني وكما تلاحظون لا أتمتع بذاكرة قوية. فرجائي عزيزي القارئ لا تشعر بالملل لأني سوف اكمل لك رواية الجانب المُعجزة في القصة.

خاطف قلبي وسارق عقلي إسمه دانيال، نعم أستطيع تذكر اسمه إلى يومنا هذا، لأنه ليس بالاسم الدارج في مجتمعنا، وأذكر أيضا أنه كان جالسا في كرسيه المتحرك، يروي للجمهور قصة نجاحه في الرسم وكيف تمكن من أن يقبع على عرش الفن رغم اختلافه وحمله لإعاقة يصعب التأقلم معها...

أما أنا فمازلت في لحظة تأمل، أحدق في لهيب الشمعة وأحاول إستحضار أدق التفاصيل التي قالها دانيال في ذلك البرنامج الذي شاهدته في لحظة ملل.

من هو دانيال هل أستطيع تذكر كل المعلومات التي ستسهل الطريق للقائه؟

يجب أن أحاول التذكر وبعدها يجب أن أبحث، حتى أجد سبيلا لوصاله.

ثم أغمضت عيناي وحلقت مع أرواح الماضي المعذَّب التي دقت على أبوابي كالغراب في ليلة عاصفة وباردة كقلبي لعلها تزيل الثلوج من طريقي وتقودني لحبيبي.

استطعت أن أستحضر أنه كان في أوج عقده الثالث ولكنه يبدو أصغر بكثير، فمن يراه سيقول أنه عشريني لوسامته، وأتذكر أيضا أنه يقطن في مدينة أخرى مجاورة لا تبعد كثيرا عن المدينة التي أعيش فيها أي أن بيني وبينه كيلومترات قليلة، سأقطع دروبها بتلهف.

وأَذكر أنه قد أشار إلى أنه ولد بتشوه خلقي على مستوى اليدين مما أسفر على ولادته دون يدين كليا، بالإضافة إلى إعاقة على مستوى الساقين فكان نتائجها تشوه في عظام الساقين جعلهُ غير قادر على المشي ونتج عن ذلك التشوه قصر في قامته، فلا أتصور أن طوله يتجاوز المتر ونصف المتر.

والآن بعد أن علمتم ما الأمر الذي تغاضيت على سرده من البداية، والذي لم يعد سرا، فكما ترون، دانيال لم يكن يعاني من عاهة عضوية واحدة، بل كان يعاني من مختلف العاهات والتشوهات على مستوى النمو واليدين والساقين.

ينعم بنصيب رحب من الوسامة، بالإضافة لكونه رساما مثلي.

أحببته حب فنان لملامسة لوحة بيضاء بِكر.

توق فنان لمعانقة أحلام لا يمكن تجسيدها على أرض الواقع.
نرجسية فنان وتعصبه على فنه وغيرته عليه.
هكذا كانت أحاسيسي تجاه دانيال.
حب وفن ونزوات شاذة.
كانت فرحتي بإيجاد الشخص المفقود الذي بحثت عنه في كل الأماكن و بين البشر الذين اعترضوا طريقي لا توصف.
عبرت الأزمنة لألقاه...وتنفست الصعداء أخيرا.
استلقيت على السرير مطمئنة البال بعد طول العناء، أبتسم وحدي كالمجنونة.
ورحت أتخيل دانيال وأخطط للقائه.

أما الآن دعوني أسرد لكم بقية التفاصيل.
طالت المدة...
وأصبح دانيال يسكن في خيالي كامل الوقت.
كم تمنيت في تلك الليالي الخاليات من الأحاسيس والعاطفة أن أعانقه وأفعل كل ما أريد معه إلى أن أضجر.
وأصبحت أكثر من مجرد شخص منحرف شاذ عابر جسديا، حيث صرت أتخيل دانيال معي في كل مكان، معي في السرير، وفي المنزل وحتى على طاولة الطعام معي في الشارع وفي المعارض، نرسم مع بعضنا ونتحدث عن حبنا للفن.
سأكون سنده في كل شيء ولن أجعله يستحق وجود شخص آخر في حياته خلافي.
صرت مجنونة دانيال، عشيقته الوهمية، زوجته التي سيفرغ فيها شهوة سنوات من الحرمان.
أردت أن أمتعه وأن أشعرهُ بكيانه كرجل قادر على إشباع امرأة، فدانيال بالنسبة لي مغرٍ أكثر من أي رجل سويٍ في العالم وأوسم من أي رجل قابلته في حياتي.
وصارت هذه النجوى بمثابة الأفيون الذي يخدرني ويجعلني أُقلِع كالصقر وأطير لأعانق كل كواكب درب التبانة والنجوم المندثرة والشهب المتطايرة، وأنسى هذا العالم وحالة التيه والضياع التي أنا عليها.
إلى متى سأظل هكذا؟

إلى متى سأبقى أسيرة أحلامي المبهمة؟
أشتاق إليه كاشتياق المنفي لأرض الوطن.
كاشتياق الثوْريٍ لميدان الحرب.
كاشتياق الروح للحياة.
والجسد للموت.
والكائنات للانقراض.
والكون للفناء.
افكار أحاول التغافل عنها لأيام عديدات لعلي أنساه وأجد شيئا آخر أتسلى به ولكن باءت محاولاتي بالإخفاق.
بؤسي يجعلني أحلم بالسيطرة على حبيبي، أريد أن أراه يعتمد علي ويطلب مني القيام بكل شيء.
لا أعرف لماذا أناديه حبيبي، وهو لا يكترث لي ولا يعرفني ولم يسمع عني.
لكنه مع ذلك سيبقى حبيبي.
حب من طرف واحد، حب يكون فاشلا في أغلب التجارب، ولكن يكفيني شرف هذا الحب العذري الطاهر حتى وإن كانت ضحيته.
كم تمنيت أن أراه وأن أسمع صوته ينادي باسمي ويغازلني ويقول لي أني بهجته وسعادته، وأن حياته بدأت للتو عندما أنرتها بشموع وجودي.
أصبحت أسير في شوارع وسط المدينة آملة أن ألمحه.
لكني لمحت كل الوجوه إلا وجهه.
رأيت كل الكائنات إلا هو.
كنت أبحث عنه في المقاهي في القطارات، في الشوارع في المركبات الثقافية في أندية الرسم وفي دور الشباب، وحتى في البرامج التلفزية والإذاعية.
وصرت مشاهِدة وفية للتلفاز الذي كنت أعتبره صديق سوء، وجليسة للمذياع ذاك الصاحب السفسطائي[24] الثرثار.
وملمة بالمعارض الفنية، وأخبار النقابات والجمعيات الفنية.
آمِلة أن ألقاه، أو أن أراه في التلفاز مجددا، أو أسمعه يتحدث في إذاعة.

[24] السفسطائي:إسم فاعل من السفسطة عبارة عن محاجَجة تبدو وكأنها موافقة للمنطق، لكنها تصل في النهاية إلى استنتاج غير مقبول.

أو حتى أن أقابل شخصا يدلني عن مكانه.
بحثت عن إبرة في كومة قش.... دون جدوى.
وهكذا مرّت سنة كاملة وأنا على هذه الحالة الميئوس منها، سنة كاملة ولم أعثر على خيط أو دليل قاطع يقودني لشخص لا أعرف إلا إسمه، عندها أيقنت أن دانيال لن يعترض طريقي ولن ألقاه ولن يلقاني لقد مرت سنة كاملة دون أن ألقاه، هل ستمر سنة أخرى دون جدوى، هل سيتطلب الأمر ملايين السنين لأرى طيفه.
لماذا الأمور معقّدة لهذا الحد؟
في تلك اللحظة علمت أن ما أطلبه هو شيء أبعد من المستحيل، كأنني أبحث عن شخص لا يعيش معي في نفس الكوكب ولا في نفس البلاد.
وليس له وجود بالأساس.
أحسست بالإحباط في تلك الفترة لأني لم أتمكن من الحصول على ما أريد، وهذا ما يحدث لي في كل مرة.
فرح عارم وأمل وهمي ثم حالة إحباط.
أنا لست بآلهة ولا أملك أي قوى عظيمة لأجده، لماذا أكذب على نفسي وعلى كل الناس الحمقى، الآلهة إن أرادت شيئا فتقول له كن فيكون.
لست بآلهة ولا أملك عصا موسى لأكون بساحرة.
يا ليتني كنت بمشعوذة وألقي عليه تعويذاتي وطلاسمي فتتحرك أساطيل من الجن وجيوش الشياطين بوحي من الله وتحضره على عجل ساعة ما أريد فورا وتوا
لكن ذلك مستحيل أيضا، كيف لي أن أسحر مجهولا.
من أنا؟
أنا ذاك الإنسان المنحط الفاشل الذي تحدثت عنه في البداية، لا أستطيع أن أكون آلهة مقدسة.
ولا مشعوذة.
ولا أستطيع أن أكون إنسانا.
ولا حتى حيوانا.
أنا العدم الذي يسعى أن يصبح أي شيء ذو قيمة في أعين الناس.
أنا الخطيئة المجهولة.

والصراع الداخلي المتآكل.
أبني قيمتي ومجدي على ظهر شخص لا يعرفني ولا أعرف عنه شيئا سوى اسمه ومظهره.
رغم جهودي الوفيرة التي كان الفشل ثمرتها الفاسدة، ومحاولاتي في البحث عنه، فالأقدار لم تقف إلى جانبي والله رفض أن يدر علي برحمته وعطفه الفياض فدانيال يصر أن يبقى مختبئا، بعيدا عن أنظاري، إختار دانيال أن لا يظهر في حياتي وأن لا يكون جزءا منها.
للأسف فالحياة لا تسير كما نريدها، ومخططاتنا يفشل أغلبها، فالسعادة فقط موجودة في الأفلام والكتب الرومانسية التافهة التي تسرد حبا لا يكاد أن يكون واقعيا.
وأنا عشت ذلك الوهم في مخيلتي لأشهر. أما الآن سأعود لأرض الواقع لان حبيبي لن يأتي فقد انتظرته في جميع المقاهي والانهج والأزقة لكنه أخلف الموعد، يجب أن يظهر وإلا سوف أجن.
تداخلت الأفكار في عقلي إلى أن فقدت السيطرة عليها.
يجب أن أنسى دانيال وإلا سأنعت بالمجنونة التي تحب شخصا غريب.
لكن لا يهمني فقد نعت بالجنون منذ فترة و٠٠٠هذا لن يغير شيئا.
لم أفكر أبدا في أخلاقه أو في مزاجه ولا حتى إن كان سيَقبل بي أم لا.
ماذا لو رفضني؟
ماذا لو لم أعجبه؟
والأسوأ من هذا كله ماذا لو كان مرتبطا؟
أو متزوجا؟
ماذا لو لم يعد على قيد الحياة؟
ماذا لو هاجر لبلد آخر؟
لا أريد أن أفكر في هذه الأفكار التي ستشوه بساتين مخيلتي وتدعس أزهاري الصغيرات التي لن تتفتح، فعقلي لن يستوعب أنه مع فتاة أخرى، بين أحضان أنثى أخرى لا تعرف قيمته، لا أريده أن يخونني مع أخرى، لأنه ملكي. ولن يكون لغيري.
كم أتمنى احتضانه وممارسة الحب معه كما تخيلت.

أريد أن أمَّسح على شعره، وأقبله ألاف القبلات.
قبلات تفصح عن أشواقي ومحبتي...
كنت اتعذب وحدي، ودانيال غير مبالي. لذا قررت الانسحاب لأنه مخطط فاشل، يجب أن أقنع نفسي بالانسحاب فلا يوجد أي خيار آخر، بعد سنة كاملة من الجنون والمحاولات إلا أن ملاقات دانيال باتت محالا، لذلك علي أن أتقبل نسيانه على أن أعيش في علاقة وهمية أبنيها في عقلي، ولأني أيضا لن أتمكن من أن أحيا حياة عادية إن كان دانيال يسيطر على كل أفكاري لذلك قررت أن أشغل نفسي بأي شيء يمنعني عن التفكير فيه وانغمست في الشغل محاولة أن أسترجع حياتي اليومية الرتيبة بعيدا عن أفكاري ووساوسي وبعيدا عن دانيال الذي طال بحثي عنه ولم أجده.
توجب علي نسيانه والعودة لحياتي السابقة البائسة قبل أن يغزو أفكاري، لقد خيب كل آمالي.
وعدت لطبيعتي ثانية أحقد على كل البشرية، إنسان يستمتع بتعذيب كل الناس الذين حوله والسيطرة على عقولهم. ربما كانت السادِيّة والإنحراف النرجسي[25] قدري الوحيد.
عدت لنصبِ المكائد لكل الحمقى وعدت لإذلالهم كما عهدت، إذلال فيه شيء من النقمة على الحياة وعلى الأقدار خاصة بعد محاولاتي البائسة في إيجاد دانيال فكلنا نعلم ماذا أريد.... لا أريد شيئا سوى الأكروتوموفيليا لكن كل هذا محال في الوقت الحالي.
فدعوني إذا استمتع بتدمير حياتي، وتدمير كل من يقترب مني، لأنه لا يوجد أي إنسان يستحق مني ذرة شفقة، هذا ما علمتني إياه الحياة.
دعوني أعانق لحظة الجنون هذه وألهو وأفعل بنفسي ما أريد، سأشرب إلى أن أنسى كل شيء لعلي أنساه.
فالبشرية نبذتني وتخلت عني عديد المرات، سخرت مني، رفضتني من البداية لأني كنت عكسهم، كنت افضل منهم كنت أفضل من الجميع، ذلك ما لم يتقبله

[25] الإنحراف النرجسِي : شعور الشخص بأهميته وتتولد لديهِ حاجة ماسة لأن يكون موضع الإعجاب عند الجميع، و تتدنى لديهِ مشاعر التعاطف مع الآخرين،

المجتمع العربي الشرقي بسيط التفكير، هذا إن صح استعمال كلمة "التفكير"عند الإشارة إليهم، فكل شيء فيهم يستفزني لذلك سأواصل تدمير البشر كما دمرتني الحياة.

أمضيت مدة لا بأس بها من الزمن ثائرة على نفسي وعلى قدري اضرب وأعذب وأحرق، وأنهشُ جثث البائسين الذين يقرعون بابي.

لكن ذلك لم يجدي نفعا، فبكل بساطة هؤلاء الناس مجموعة من الحمقى ووجودهم يجعلني أواصل في جنوني الهستيري، لأنني لم أتمكن من الحصول على ما أريد، فكل الناس يحصلون على كل شيء يريدونه، إلا أنا وهذا ما زادني بؤسا وإحباطا وغضبا.

انتهت نوبة الهيستيريا تلك وشعرت بملل قاتل مجددا، فحياتِي لم تكن مليئة بالمغامرات التي تجعلني أنسى كل ما أشبقه. فكل حياتي كانت منحصرة في الرسم واللهو والعربدة المبالغ فيها، حياة تخلو من المسؤوليات والجدية.

إلى أن جاء اليوم الذي سئمت فيه كل شيء فعلا إني اريد أن اتغير.

لماذا أريد أن أتغير يا ترى؟

بالطبع ليس تغييرا للأفضل والتوبة كما تعتقدون.

بل أريد أن أتغير وأفعل أي شيء ينسيني دانيال الذي لم أقابله لكي يهجرني، لا أعلم أن كان علي أن ألومه أو ألوم نفسي لأني تعلقت بالعدم، وهربت من الزمان والمكان الذان كنت سجينتهما لأجد دانيال، الذي لم أمسك أي فتلة تدلني على مكانه.

كانت الأشهر والأيام تجري كسهم سيصيب قلبي مباشرة، تناسيت همومي بصعوبة كبيرة واقتلعت فكرة الأكروتوموفيليا التي أدمنتها من عقلي ومن قلبي أيضا، وبدأت أنسى دانيال بعد أن قبلت فكرة أني لن ألقاه، وبدأت تدريجيا في التحرر من قيود رذائلي، عادت حياتي لنسقهَا العادي الممل الأكثر من بسيط لم تشغلها سوى الدراسة.

وبقى دانيال كالذكرى الجميلة التي تقرع جرس أفكاري من وقت إلى آخر، كالنجم الذي يضيء سواد ليلِي وأدركت أنه من المستحيل أن أعيش مغامرة عاطفية مع شخص رأيته في التلفاز منذ ثلاثة أعوام.

أخذت أتساءل لماذا لا أدخل في علاقة جدية، كأي شخص عادي أحاول الاستقرار وتغيير مسار حياتي وأصبح شخصا عاقلا سوي المدارك العقلية وأحقق توازنا في حياتي العاطفية والإجتماعية.

تناسيت شذوذي الفكري وقررت الاستقامة والتوبة النصوح التي لم تكن على اقتناع، بل كانت لأني مللت من كل شيء وسئمت الحياة التي لم تساعدني في تحقيق مرادي.

كان ذلك الحل الوحيد الذي سينسيني في دانيال.

سأفعل أي شيء ينسيني الأكروتوموفيليا، لقد اتخذت قراري.

لكن لا تتعجبوا لأن شقاوتي لم تصمد لوقت طويل أمام النمطية، فالمسرحية كانت مملة تخلو من الإثارة والتشويق الذان تعودت عليهما.

فقررت أن أعود لنمط حياتي القديم بعد شهرين فقط، لأنني أدركت في النهاية أني لن أتغير ولن أكون شخصا عاديا ولن أقع في الحب المزعوم ولن أرضخ لسلطة رجل يبيت معي ليلة ويخونني في الليلة الموالية مع أخرى.

فأنا التي يجب أن تخون وتسيطر وتحطم كل القلوب.

لن اتأقلم في حياة تقليدية تنتهي بزواج ثم أطفال، كابوس حتِّم ليكون قدر كل أنثى، أما أنا فلا أريد أن أتزوج ولا أريد أن أنجب أطفالا لأني لست كالإناث الأخريات، لا أحد يستطيع ترويضي أو إبعادي عن التمرد لاني ولدت لأكون فريدة مغايرة لأي إمرأة اعترضتك في حياتك. لن تجدني في أي امرأة تراها مهما أطلت البحث، لاني لست كأمك أو أختك أو إبنة جيرانك أو الفتاة التي أحببتها أيام الدراسة، لست المرأة

التي ستخلصك من عقدك النفسية، بل أنا التي ستزيدها سوءا، سأبقى مندفعة وعلى طبيعتي، فذلك ما ميّزني عن الجميع، بقسوتي ورحمتي، بِشَرِّي وبحناني... هذه أنا ولن أتغير مهما حصل. ولن أحاول أن أتغير مرة أخرى لأنه لا يوجد جدوى من ذلك.

وقررت أن أواصل طريقي وحدي وأن انزاح عن القطيع الذي حاولت الاحتكاك به وأصبت بالدوار، فشكلت قطيعة بيني بين كل العالم مجددا .

ثم انقطعت عن الدراسة، لأني لم أحبها، ولن أحبها لما فيها من دوغمائية[26]، ولم أحب الوجوه التي أراها كل صباح في وسائل النقل المقرفة والرجال المكلوبين والمكبوتِين الذين يتهافتون علي وعلى كل أنثى تعترض طريقهم ولم أحب الجامعة ولم أحب المبيت الاشبه بمعتقل صهيوني بطعامه المقرف وقوانينه الزجرية ولم أحب أي شيء في حياتي بسبب الرهاب الإجتماعي والاحتكاك بأشخاص محدودي التفكير.

الشيء الوحيد الذي أحببته هو دانيال، وأملي بلقائه كان الضوء المنير في غرفتي المظلمة، حتى وإن كانت لدي نظرة سوداوية للمجتمع وللمستقبل، كنت آلهة التشاؤم، لا... بل كنت التشاؤم ذاته يمشي على الأرض، لأن كل شيء خذلني، وكل الناس تركتني، وكل من أحببتهم أو تعلقت بهم رحلوا.

مثل ما أفرجت عن عبادي الذين سبَيْتُهم.

والكتب التي لم أعد أهم بمطالعتها.

عدت لمنزلي لأعيش حياتي الانعزالية السابقة بعد فشلي بإصلاحها وترقيع ما أستطيع منها لكن الوقت تأخر، لم يعد بإمكاني إنقاذ أي شيء.

وانغمست في الرسم، الذي كان الملاذ الأخير بالنسبة لي، ذلك المجال الذي أعبر فيه عن ذاتي. فالرسم يذكرني بأحلامي الزاهية الملونة الجميلة، وبالحقب التاريخية التي تمنيت أن أتواجد فيها، ويذكرني بدانيال الذي لم تتناهى لمسمعي أخباره.

دانيال الذي فقدت منه الأمل.

أمضيت أيامي أرسم وأشاهد التلفاز وأسمع المذياع وأصبحت هذه العادات بمثابة طقوس يومية أعتكف لممارستها لأشهر.

---

[26] الدوغمائية : التزمت لفكرة معينة من قبل مجموعة ما دون قبول أي نقاش.

ومرت هذه الأشهر كأنني في غيبوبة لن أستفيق منها، ولا يوجد سبب يجعلني أستفيق منها، لم أجد الأمير الذي سيحييني بترياق قبلته.
إلى أن يأتي ذلك اليوم، سأواصل السباحة في سيل هذياني بعيدا عن كل المحظورات.
في الأيام التي أخذت فيها راحة من الرسم، كنت أقضي كامل يومي أستمع للموسيقى أو أشاهد التلفاز.
كان الطقس باردا، كأي يوم من أواخر أيام ديسمبر القاسية، أما أنا فكنت مستلقيَة على الأريكة في ساعة متأخرة من الزوال قرابة الساعة الخامسة مساءا أو الرابعة مساءا أو حتى الثالثة، من يعلم... فالوقت كان آخر شيء أفكر به، والنظر للساعة لم يكن من مشمولاتي، كنت أحوم بين قنوات التلفاز أشعر بالملل كالعادة، وهنا كانت الفرحة الكبرى التي لم أتوقع أن تحدث في حياتي، حادثة خلت أنها لن تحدث أبدا، تناهت أمام عيناي صورة ذاك الشخص المفقود...
هل أنا أحلم؟
لا أصدق ما أرى...
بعد كل هذا اليأس وطول الإنتظار...
بعد أكثر من سنة من البحث عنه...
لقد جلست أمام التلفاز لأيام وليالي، لأسابيع وأشهر إنتظرتها بكل فصولها إلى أن تحين هذه اللحظة مجددا.
إنه هو... أظن أنكم تعرفون من أقصد.
أجل إنه دانيال إني ألمحه في التلفاز مجددا بعد مرور كل هذا الوقت على جنوني به.
لا أتذكر كم من الوقت قد مضى منذ أن ارتسم في مخيلتي وسكن فيها.... سنوات، أكثر من ثلاث سنوات منذ أن رأيته في التلفاز اول مرة، كأنها البارحة، كل السنوات ذهبت في مهب الريح وها هو الآن، أراه مجددا بعد طول إنتظار... في التلفاز، ومجددا يحول بيننا زجاج تلفاز سخيف.
فرحت، إحساس لا يوصف، كإحساس طفل يعانق أمه بعد طول الغياب. إني أحلق كالفراشة في الفضاء الرحب.

وفي قمة الانشراح والاستبشار رحت أشاهد دانيال وأستمع لحديثه الذي صرت أعتبرهُ شيقا.

نعم إنه دانيال نفسه، بملامحه كما تذكرته ووصفته لكم، كان يرتدي هذه المرة ملابس سوداء زادته وسامة، لأني أعشق اللون الأسود، أكثر لون أنيق وجميل، أفضل لون، تختفي في جماله كل الألوان: قميص أسود، سترة جلدية سوداء تتدلى أكمامها لتغطي ذراعيه المبتورتين، سروال أسود وحذاء أسود لامع.

يجلس في كرسيه المتحرك كالعادة، ويتحدث عن آخر الإبداعات الفنية التي رسمها.

وهذه المرة، لوحاته حقا جذبت انتباهي لأني صرت معجبته الأولى، فقد رسم لوحات لأشخاص معروفين ومشاهير لوحات لناس عاديين كأي رسام تجاري، لوحات لمزارعين ملامحهم كانت معبرة تقاسيم وجوههم تروى قصة يعجز اللسان عن وصفها.

لوحات تكاد أن تنطق من دقتها ومن براعته في محاكاة الواقع. لوحات تمنيت من كل أعماق قلبي أن أملك لوحة منها لأعبدهَا كل يوم.

لقد تغير دانيال ازداد وسامة وثقة بالنفس.

زاد وزنه قليلا على أول مرة رأيته فيها وزادت وسامته أيضا، وهذه المرة عيناه كانتا تشعان كبرياءًا وفخرًا.

تمنيت لو رسمني كما رسم هؤلاء الأشخاص، تمنيت لو علم كم أنا معجبة بلوحاته.

هذه المرة سأعترف بأن لوحاته سلبت عقلي، أحببت أي شيء يرسمه دانيال مهما كان تشكيليًا أو تجريديًا أو حتى تكعيبيًا، أي شيء عصري من تلك المدارس التي لا أقر بوجودها لأنها تفسد الذوق العام. حتى وإن اختلف ذوقنا الفني، غير أن لوحاته تنجح في شد انتباه أي ناظر إليها.

والألوان لن يستطيع أفضل رسامي العالم أن يمزجوا مثلها. تجانس بين ألوان البشرة وألوان الخلفية وأدق التفاصيل في الوجه كل هذا أنتج لوحة نابضة بالحياة.

لوحة يصعب وصفها، فلا الكلمات قادرة على وصف ذلك الإبداع الفني ولا الواقع قادر على إضفاء جمالية كالتي أراها، انها صور مولودة من رحم الإرادة.

صور تنبض بالحياة وتحمل في جوفها حب وشغف الرسم وقوة العزيمة والتمسك بالحياة.

صور في منتهى الروعة والمثالية، لم يسبق أن رأيت شيئا في هذا المستوى الإبداعي كامل حياتي ومسيرتي الفنية الأقل من متواضعة بالمقارنة بلوحاته.
يا ملهمي، يا قدوتي ... بعد أن أكل اليأس روحي ها نحن نلتقي مجددا وها أنا أراك ثانية.
بعد أن احترقت بلهيب فراقك. أنا اليوم وبعد طول إنتظار وتضرع للقائك أنهض كعنقاء مُغرِبٍ لا تعرف للهزيمة سبيلا من تحت أكوام الرماد بكل ما أوتيت من جمال وقوة سأبسط جناحي وأطير نحو الأفق البعيد وأناشد حبيب قلبي دانيال.
أعذرني لأني هجرتك ولم أجاهد في سبيل حبنا كما وجب.
كان كل الحاضرين مبهورين بفطنة هذا الرسام الذي داعبت ريشاته قلبي المرهف، وكيف له ان يرسم ويبدع مثل هذه القطع الفنية وهو لا يملك يدين لا يستعمل سوى قدمه للرسم رغم كونه شبه عاجز عن الحركة، إلا أن لوحاته كانت تتكلم لتعبر عن مدى قدرة دانيال وقوته. فقد برع إمساك القلم والفرشاة وخلط كل الألوان مستعملا قدميه. فعلا لقد رسم دانيال لوحات تجسد المعنى الحرفي للإبداع بقدميه.
بينما كنت شاردة في تلك اللوحات المعجزة، استطرد دانيال بالحديث عن نفسه وعن كواليس حياته وطفولته، فقال أنه تأقلم مع إعاقته منذ صغره حيث لم يعامل معاملة خاصة من قبل عائلته، وأن المحيط الذي يعيش فيه قبله كما هو ووفر له كل المساعدة والأجواء الملائمة للتأقلم مع إحتياجاته الخاصة.
كما أشار لأنه قد إكتشف موهبة الرسم في سن صغيرة جدا لا يتذكر كم كان عمره بالتحديد عندما بدأ إمساك الأقلام بقدميه والرسم كأي طفل في عمره، فرغم أن الأمر لم يكن سهلا إلا أنه صمم على أن يمسك القلم ويكتب ويرسم ويجاري أصدقاءه في الكتابة و الرسم.
وشجعته عائلته على ذلك وساعدوه، إلى أن أتقن إمساك القلم بساقه التي أصبحت تحل محل يده في جميع المهام.
أعلم أنه من الصعب أن تقوم بأمورك اليومية مستعملا قدمك عوضا عن يدك، وأعلم أيضا أن الأمر سيبدو أصعب إذ كنت تعاني من إعاقة أخرى على مستوى

الساقين. ورغم كل ذلك، وقف دانيال أمام كل هذه العوائق، ليصبح الآن وهو في سن الخامسة والثلاثين من أشهر وأهم الفنانين في البلاد.
أمر صعب وطريق محثوث بالمخاطر وشائك بالأشواك.
فرغم كل هذه الصعاب، تمكن دانيال من أن يحصد عديد الجوائز وشهائد الشكر والتقدير التي لم تفسح المجال لاثنين ليختلفوا في عظمة هذا الرسام المعجزة.
فقد تحدى دانيال قدرة، على عكسي أنا التي استلمت بعد محاولات خسيسة لم تدر علي سوى بالخيبة والإكتئاب.
لذلك تأججت في داخلي نار الفيتيشية ونزعتي الغريبة لتعود الأكروتوموفيليا للحياة وتبعث من جديد كمسيح منتظر موعود سيخَلِّص كل المؤمنين، كمسخ فرانكشتاين الوحش العائد من الموت والتائق للتدمير.
فدانيال اليوم أعادني للحياة مجددا وصوته بعث في ذاتي شحنة من الأمل.
فإن كنا قد كُتبنا لبعضنا فلن يفرقنا العالم التعيس الذي يعيش الشذوذ فيه خلسة تحت حَمِيَّة الليل والأماكن المظلمة التي تعبق منها روائح العهر والفسق الرخيص.
لكن شبقي ليس كهذا،... أنا لا أريد أن أجعل من دانيال شيئا أشبع به شذوذي الأكروتوموفيلي ثم ألقيه على قارعة الطريق دون أن ألتفت إلى الوراء مجددا.
دانيال صار هوسي، أريده أن يكون ملكي، لعبتي شيئا خاصتي إلى الأبد، أريد أن أسيطر عليه وأن يعبدني دون رؤية غيري من نساء الأرض الجميلات المغريات.
واصل دانيال حديثه الجِّدَ شيق في التلفاز وقد كنت منبهرة بمشاهدته والاصغاء إلى أدق التفاصيل التي كان يسردها بينما كان عقلي مشغولا بتأليف أروع سيناريوهات درامية رومنسية عن لقاءنا الوهمي الأول.
إلى أن صارت المعجزة وقال دانيال أنه بإمكان الناس الراغبين بالتواصل معه أن يراسلوه في صفحاته في مواقع التواصل الاجتماعي كالفيسبوك والانستقرام.
لا أصدق ما سمعته،....يقصد أنه بامكاني التواصل معه منذ الآن؟
لا أكاد أصدق أن الأبواب لم تعد موصدة في طريقي منذ هذه اللحظة.
حقا ان الأقدار وكل الآلهات ستقف بجانبي هذه المرة أحس أن روحي تزغرد وقلبي يدق ويبعث الأدرينالين لكل جسمي.

الأن سأبدأ بتنفيذ خطتي التي خلت أنها لن تتحقق إن هذا اليوم تاريخي فحياتي قبل دانيال كانت كالعصورِ الوسطى وأعوام ما قبل التاريخ، واليوم دخلت العهد الجديد، عهدا مملوءا بالحب والفن والسيطرة وكل أحلامي المحصورة في زنزانة اللاوعي ستمهّد دربها نحو ملحمة تاريخية جديدة.

أكملت مشاهدة البرنامج وأنا على عجلة من أمري لمراسلة حبيبي.

الذي صرت أدعوه حبيبي بكل فخر لأنه سيصبح ملكي عاجلا أم آجلا.

والذي لن تحرمني منه الحياة مهما حاولت وتمادت في تفريقنا عن بعض.

فكل منا فنان وأرواحنا خلقت لبعضها وأنا مقتنعة أن الرسم سيسهل طريقي لأنال فريستي الآدمية.

ولكن انتظر لحظة...

فأنا لست من مستخدمي الإنترنت إلا إن دعت الضرورة القصوى، أقصد أني أستخدمها في حياتي اليومية ولكن ليس كسائر البشر فأنا لم أكن من رواد مواقع التواصل الاجتماعي، فهي مكتظة كالسوق الأسبوعية.

آه كم أكرهها... فهي أسوأ من الواقع بكثير، وكل ما في الأمر أني أكره مستخدميها الساذجين وأكره تلك السنين التي أضعتها من عمري أنا أحدق بشاشة الحاسوب أو بهاتفي الأذكى مني.

فقد نسيت أن أقول أني عندما قررت الانعزال عن كل المجتمع، فقد تركت الحياة الإجتماعية الواقعية والموازية منها في العالم الرقمي الإفتراضي الذي كنت أعتبر أن وجوده يصعِّب الحياة لا يسهلها.

فعزفت عنه وقررت أن أعيش حياة صوفية مليئة بالفن والطبيعة أنْسِكُ فيها مستمتعة بملذات الحياة المحرمة. حياة بدائية و لكن متطورة هكذا أحببت أن أسميها مخلوطة بالأدب والفن والمتعة لكن مع القليل من التطور اللازم لمواكبة الحياة.

أما اليوم فقد تغيرت فكرتي نحو العالم وصرت أحب الناس وأحب الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي المكتظة بالحابل والنابل، صرت أعشقها فقط لأن دانيال موجود هناك، فلن أكترث لتلك النسخة المشوهة من المجتمع المتكاثرة في أعقاب مواقع التواصل الاجتماعي تلك، لأنني صرت أحمل هدفا.

هدفا سأبحر من أجله في كل مواقع الويب إلى أن أعثر عليه دون تكبد أي مجهود يذكر، فالأمر بسيط، في منتهى السهولة لن يتطلب إلا بعض النقرات.
لذلك سوف أدخل الحضارة من أوسع أبوابها وسأدخل عصر التكنولوجيا الحديث، ذلك العصر الذي كنا نقرأ عنه في كتب السايبربانك[27] ومجلات الخيال العلمي التي لا أعتبر نفسي من هواتها. لأني أبسط بكثير من أن أستعمل الإنترنت للحديث مع أشخاص أتجنبهم في الحياة اليومية لأنهم سيغتصبون حرمة وقداسة أفكاري بسخافاتهم وجمالهم البلاستيكي.
فالعالم بالنسبة لي سواء إن كان واقعيا أو افتراضيا ليس إلا بمثابة ديستوبيا[28] يتجرد فيها الإنسان من كل صفاته الإنسانية الفاضلة ويصبح روبوتا رقميا أو وحشا آدميا يدمر ويعذب ويقتل لينجو من بطش الوحوش التي يعيش معها وتترصدهُ بالمرصاد، فإما أن يتحكم ويعذب من حوله من أخيار وأشرار وإلا سوف يدهس تحت الأقدام.
هذا هو عصر التكنولوجيا الذي صورته لنا بوابات الإنترنت الحديثة بما فيها من شر وتحيّل ومواقع مظلمة.
سأدخل ذلك العالم الرقمي الافتراضي الذي حول العالم لمنصة إلكترونية كل شخصية فيها تلبس قناعا وتتقمص دورا تنسجه بخيوط الوهم والكذب والاحتيال.
لم يكن لدي خيار آخر غير إنشاء حساب في تلك المواقع التافهة.
ودخلت لصفحته اخيرا.
أخذت أطَّلع على كل شيء نشره في صفحته، أشاهد صوره، أتمعن في وجهه الوسيم وأدق تفاصيل جسمه.
ثم إنتقلت لمشاهدة لوحاته التي اختلفت مواضيعها، فكان في الأغلب يرسم أشخاصا بأبهض الأسعار، ومناظر طبيعية، وأيضا لوحات أخرى تقدم لنا نموذجا عن تلك الحياة البسيطة التقليدية المملة.
لوحات اختلفت في ظاهرها ولكن توحدت في بَاطنها ليكون محورها الإبداع.
وأصبحت عشيقة دانيال وعبدة له وللوحاتهِ، عشقتها كما عشقته.

[27] السايبربانك : نوع من أنواع الخيال العلمي مشهور بتركيزه على عالم التقنية المتطورة.
[28] ديستوبيا : أدب المدينة الفاسدة أو عالم الواقع المرير هو مجتمع فاسد و غير مرغوب فيه.

وربما عشقت الجانب الفني في دانيال أكثر من كل شيء في حياتي، دققت في تفاصيلِ كل لوحة وسافرت بين ألوانها وتموجاتها.
أخذت أكتشف المناظر الطبيعية التي كان يرسمها وتهت في غاباتها وشربت من وديانها واستلقيت على شواطئها متأرجحة بين نسماتها.
أحببت كل لوحة.
لا أحد يستطيع أن يرسم مثله، أو يجاريه، إنه قمة في الرسم والفن والابداع.
في ذلك اليوم، عشت أسعد لحظات حياتي وأنا أتجول بين صورهِ ورسوماته، كأنها قطرات ماء نزلت على صحراء قلبي القاحلة لتسقيها تجعلها خضراء يانعة ينبعث من أريجها الحب والحنان.
ولكن لم يكن في صفحة دانيال شيء يدل على زواجه أو ارتباطه، فأنا لا أعلم إذ كان متزوجا أو لديه حبيبة أو أعزب، ففي عمره يصعب أن يكون أعزب لأن الرجال في أواخر عقدهم الثالث يفكر أغلبهم في الإستقرار وإنشاء جو عائلي دافئ مستقر، فهل دانيال كذلك؟ وهل حبيبته امرأة عادية سليمة أو مثله؟
معظم الناس العاديين لا يتجرؤون على الدخول في علاقة مع شخص معوق، هذا هو الواقع وهذه هي الصراحة بدون أي مجاملة ومعظم الأشخاص المعوقين لا يملكون الجرأة الكافية للدخول في علاقة مع شخص سليم البنية. لا أعلم لماذا نشأت هذه القطيعة التي لا مبرر منطقي لها بين هاتين الفئتين من البشر، أظن لأننا نحكم بالصورة على كل شيء ونرفض فكرة الزواج "المختلط" بكل اختلافاته، ونريد الأفضل لأنفسنا، وبالطبع الأفضل لا يتمثل في ماذا نريد وما الذي يسعدنا، بل يتمثل في ما يراه الناس مثاليا وما يسكت سخريتهم ويجعلهم منبهرين حسودين لك، لا شامتين فيك، نعم تلك هي فكرة الارتباط المثالي الذي يُفَصِّله لك المجتمع.
اذا ماذا لو كان مرتبطا بامرأة تعاني من إعاقة مثله ويعيش معها قصة حب تكسر قيود المستحيل...
أو الأسوأ من هذا ماذا لو كان مثليّ الجنس وهذا أمر وارد جدا في حالته، فحسب البحوث التي قمت بها مسبقا هناك العديد من ذوي الاحتياجات الخاصة الذين يلجؤون لعلاقات مثلية بسبب رفض الجنس الآخر لهم.

وماذا لو حدث شيء أسوأ من كل هذا وكان دانيال خاليا من الميولات الجنسية ولا يبدي أي اهتمام بالجنس أو يعاني عجزا أو عقدة نفسية ما، عندئذ إنها لكارثة كبرى.
وتحولت نزوات الفرح التي غمرتني إلى طوفان من مخاوف وهذيان.
وعصفت أعاصير الإختبال بعقلي مجددا وسيطرتْ علي الوساوس ولم أعد أعرف ما أفعل.
تريثت قليلا قبل أن أفعل أي شيء.
هل أضيفه وأتحدث معه؟
نعم هذه الخطوة الوحيدة التي تفصلني على مرادي، فقط كبسة زر وتتحقق أحلامي لكني لا أريد أن أضيفه وأتحدث معه سيبدو الأمر مشبوها.
إنه ليس بمشبوه لأن ذلك ما يفعله الناس في مواقع التواصل الاجتماعي.
ولكن ماذا سأقول عندما أتحدث معه، الأمر ليس بالسهل لأني لست متعودة على هذه الرسميات. فقد جرت العادة على أن يجري الرجال ورائي وأن يلتمسوا لطفي وقربي فكيف أغير ذلك الآن.
كيف اتخلى عن كبريائي؟
ووجدت نفسي بين خيارين إما أن أتبع شهواتي وأصل إلى دانيال، أم أحافظ على الصورة السادية للمرأة التي لا تلاحق أي رجل مهما كان.
فأنا لا أريد أن ألاحقه، أريد أن يكون هو الذي يبادر بالبحث عني والوصول إلي.
هو الذي سيضيفنِي ويراسلني، عليه أن يفعل كل ذلك إن كان هو حقا قدري الذي انتظرته لسنوات.
ماذا عساي أفعل، بعد أن وصلت لهدفي، فإذا بالجانب السادي فِيَّ يُعكر كل الأمور.
ليس بيدي حيلة تجعله يبادر بإضافتي والتحدث معي.
سأفكر مليا في الأمر.
حتى وإن كان صعبا لن يكون أصعب مما مررت به...
بعد أن فكرت مليا... أخيرا وجدت الحل.
لا أعرف إن كان حقا حلا أم لاَ ولكنه يستحق التجربة لأني لا أملك حلا آخر في كل الأحوال.
سأضع إعجابات على لوحاته...

سأواصل وضع الإعجابات على كل اللوحات إلى أن ينتبه لوجودي في العالم الافتراضي ويراسلني. أظن أنه سيفعل حتما سيفعل.
ورحت أتجول في صفحته وأضع الإعجابات على عشرات اللوحات لعله ينتبه لمعجبته الخفية، اتمنى أن أتلقى خبرا مفرحا في الأيام القادمة وأجد طلب صداقة او رسالة من دانيال.
ومر يوم.
ثم يومان
ثم أسبوع، وصولا إلى شهر ...ثم شهران إلى أن أضعت العد وراحت الأيام تجري بكل سرعتها لتحطم كل الذي أحاول أن أبنيه... أظن أنه لم يهتم بكل الإعجابات التي وضعتها.
أو أنه ليس الشخص الذي يدير الصفحة لأن إعاقته وافتقاره لليدين يمنعه من ذلك.
ماذا سأفعل عندها وكيف سأتحدث معه؟
أدمنت الفيسبوك تحديدا بنفس الطريقة التي أدمنت بها التلفاز والمذياع وكل شيء يدلني على دانيال.
وكبريائي مازالت تعترض طريقي وتسد باب فرحتي.
يا أسايَ و يا حزني على نزعتي السادية التي أمست ذليلة تحت قدمي.
فأنا بكل بساطة أريد أن أحادث دانيال لكن تلك الشريرة القوية التي بداخلي تمنعني وتجبرني على أن لا أنحني أمام غرائزي.
فإن كان دانيال قدري، يجب أن يفعل شيئا هو الآخر وخلصني من الورطة التي انا فيها.
لدي ثقة فيه وسأنتظر، فإن كان المخطط صائبا ومحبوكا بكل مكر ودهاء، سيراسلني دانيال من دون أدنى شك.
لكنه لم يفعل وروحي ملت الانتظار وجسدي أعياه الشوق.
لا أعرف إن كان هناك خطب ما، ولكن سأنتظر.
أصبحت أتصفح صفحته يوميا، أنظر لوجه الوسيم ولوحاته التي أسرت خيالي وخدرته وغسلت دماغي بسحرها الأخّاذ كم تمنيت لو أتقن الرسم مثله.

لم أيأس من ذلك أيضا وبقيت أحاول أن ارسم مثله وأحاكي لوحاته وأقلدها ولكني فشلت في أن ارسم لوحات فنية كالتي يرسمها دانيال، لأنه يتفرد بتقنيات لم تشهدها عيني من قبل، فرغم دراساتي الفنية التي كرست حياتي من أجلها وتاريخ الفن الذي تركت الحياة لأتعمق فيه، لم يسبق أن رأيت شيئا بهذا المثيل.

دانيال رسام فريد من نوعه، يسلب أنظارك بأسلوبه اللامعهود.

أصبح دانيال قدوتي في الرسم وهدفي في الحياة.

لقد تمكن من تحطيم إمبراطورية قلبي واحتلال مملكة عقلي من دون سابق عهد أو إنذار. وشعرت بأني رسامة فاشلة وكرهت الرسم، لأني لم أرتقي لمرتبة دانيال ولابداعهِ الخلاّق.

لم يرِدْني منه مرسول واحد، وأصبح الأنتظار عزائي الوحيد.

حتى لاحظ الجميع اكتئابي.

وأخذت عائلتي تتعجب من أمري وما حدث لي لقد تعودت أن ارسم يوميا، طوال الوقت، في الليل وفي النهار، بدون أي إنقطاع ونادرا ما آخذ أيام راحة عند إحساسي بالتعب الشديد.

أرسم وأبدع وأنتج بدون توقف حتى أوقات مرضي كنت أستجمع قوتي وأرسم لأهدم جبال الإكتئاب والقلق الذي بداخلي، لكي أتعلم الصبر، والدقة والتركيز وبرودة الأعصاب... أرسم لأصنع عالمي الخاص، وأهرب من كوابيس الواقع.

أما الآن أصبحت كئيبة أحس بفشلي الفني وفشلي العاطفي وإخفاقي الإجتماعي.

لذا قررت أن أتعذب في صمت بعيدا عن الأنظار.

الجميع يتساءل عن الذي أصابني، هل هو مرض ما؟ أم عساه يكون مللا قاتلا؟

وأنا قلت لا، إنه لا هذا ولا ذاك.

إذا هو اكتئاب ناتج عن حالة حب؟

نعم من دون شك إنها حالة حب... ميئوس منها، إن لم تكن ميؤوسا منها لما اكتأبت لدرجة كرهي لكل شيء.

الجميع يتساءل، ما الذي حدث؟

لم أستطع أن أصمت لوقت طويل وقررت الإفصاح عن الذي انتابني، أنه ليس حالة حب وإكتئاب، إنه شعور بالإحباط لأني لم أتمكن من صقل مواهبي مثل دانيال أريد أن أرسم مثله. هذا ما قلته للجميع...

ثم أطلعت أمي على أحد لوحاته بدون أن أعلمها عن من يكون دانيال وماذا يعني لي في حياتي.

انبهرت أمي بلوحاته مثل ما انبهرت أنا، وألحت أن تعرف من هو وأن أريها صورته لأنه يستحق كل التقدير والتشجيع، لكني لم أفعل، لأن دانيال هو سري المدفون في قلبي، لا أريد أن أحدث أي شخص عنه.

فضحكت أمي بعد أن سألتني عن عمره، ثم باشرتْ القول بأني عندما أصبح في عمره سأكون أمهر، علي فقط أن أتمهل لأن بيننا فارقا كبيرا بالسن، أربعة عشر عاما آخرين وستصبحين بعمره وستكونين أيقونة في الفن ورمزا من رموز البلاد.

ربما قد تكون على حق، لكنها لم تعرف من هو دانيال ولماذا هو سبب حزني وانتكاسِي.

الرسم ليس الدافع المباشر لكل هذه التراجيديا، بل شهواتي هي السبب.

إنتظاري لدانيال أضحى سرمديا، فغدوت أنتظر غفران الآلهة وشفاعتها، فهل من محرك للأقدار يلاقيني بحبيبي؟

أعياني الانتظار مثل كل مرة، ولم يأتي الفرج المزعوم، لم أعرف كم مر من الأسابيع وأنا أنتظر وأتغزل بلوحات دانيال.

أصبحت صفحته كالمعبد الذي أزوره يوميا وأتلو فيه صلواتي، لكن الله لم يتقبل.

بقيتُ أتسكع بين الصورة والأخرى وأضع الإعجابات المتواصلة على أي شيء ينشره، ريما علي أن اراسله. لا.. لا يجب.

لن أَمِلَّ وسأنتظر ردك بفارغ الصبر.

عشيتها، حدث الأمر المنتظر.
لقد رحمني الله بعد عذاب سنين، حدسي لم يخطأ ومخططي لم يفشل.
عَمَّتْ السعادة في مدينة الخراب التي لم يكن فيها سوى الغربان التي تغرد.
ربما قد أعياني الانتظار لكن ما حدث يستحق أن أنتظر الدهر كله.
لقد أرسل لي دانيال طلب صداقة، لقد بادر بالفعل كما أردت.
قبلت طلب الصداقة دون تردد وقلبي تتناثر منه شرارات الفرحة، ثم اكتملت فرحتي عندما وضع لي دانيال إعجابات على صوري، فتح قلبه لي كما فتحت قلبي له وأذنت له بالدخول.
إذا فقد أعجبته، وهذا هو المفيد، صار يعلم بوجودي، ويعرف وجهي وشكلي.
لكنه لا يعرف أني عشيقته السرية، المعجبة التي قادتها شهواتها إليه.
لا يعلم أني أمضيت أكثر من سنة في عشقه وتخيله كقرين يجوب أركان الدنيا معي.
لا يعلم كم يعجبني وكم يثيرني وكم من مرة جعلت أصابعي تلاعب أجزاءا من جسمي وأنا أفكر فيه.
بيد أن فرحتي لم تكتمل لأن دانيال لم يراسلني، فكلنا نلاحظ أنه يستعمل نفس الأسلوب الذي استعمله، إنه يحاول أن يثير انتباهي من خلال إعجابه بصوري.
الكرة بين يدي الآن يجب أن أحسن التفكير لأنها ستكون الخطة الحاسمة.
قررت أن أنتظر إلى أن يُنَّزل صورة جديدة فأجد موضوعا أتجاذب به أطراف الحديث، لم أعد أستطيع الأنتظار فقد وهن قلبي وضعف من شدة البعد عن دانيال.
أصبحت اتصيد الوقت المناسب الذي يجعلني أراسله.
المدة طالت وانقضى شهر آخر بنفس عذاباته وأفكاره.
لا أعرف لماذا أعذب نفسي لهذه الدرجة، مر شهر كامل ولم ينزل دانيال صورة واحدة، لماذا كل هذه العثرات في طريقي، لماذا ألاقي كل هذه التعطيلات، ومر نصف شهر أبريل، ثم دخل شهر رمضان المعظم.
كنت أمر بفترة نفسية عصيبة، فقد كنت أعاني من اضطراب ثنائي القطب وكانت أعصابي متشنجة في تلك الفترة عاد ذلك الإحساس بالفراغ والأفكار الاكتئابية السلبية، صيام أو بالأحرى التظاهر بالصيام وإكتئاب سريري حاد جعلني أتناول حبوبًا مضادة للاكتئاب، ومسؤوليات منزلية يومية كنت أقوم بها رغما عن أنفي.

كما أن دانيال لم يفارق مخيلتي.
كل الهموم أصبحت عبئا ثقيلا علي وعاد الأرق، وعدت اسيطر على حياتي بالأقراص المنومة التي لا أرتاح ولا يغمض لي جفن بدونها.
إلى أن رسم دانيال لوحة جديدة.
كنت في قمة السعادة عندما رأيت صورة لوحته الجديدة، فتسارعت لاغتنام الفرصة وانتهازها، لم أكد أصدق... يجب أن أراسله الآن قبل فوات الأوان لم يعد هناك أي سبب المماطلة.
راسلته ذات ظهيرة بعد أن استسلمت وحسمت قراري، أذكر أنه كان ثاني يوم في رمضان، قلت له أني معجبة بلوحاته، وكل جسدي يرتعش من شدة التوتر، وعضلاتي تنقبض ودقات قلبي تتسارع من شدة خوفي، إنها اللحظة الحاسمة إما أن يصبح دانيال ملكي أو ينتهي كل الوهم الذي عشته لسنوات.
تأخر رده، راقبت الهاتف كل دقيقة وكل ربع ساعة راجية أن يردّ على رسالتي.
جاءني رده في ساعة متأخرة من الليل، كان الوقت يقارب التاسعة ليلا متشكرا على ما قلته.
كنت جالسة مع أفراد عائلتي أشاهد التلفاز، عندما غمرتني نشوة غابطة، فلم أعد أستمع إلى التلفاز، حتى عائلتي ما عدت آبهة بأصوات ضحكاتِهم المتعالية، كنت في حالة إسقاط نجمي وروحي تطفو في الأفق .
لم أجد الكلام الذي يعكس فرحتي في تلك اللحظة، روحي كانت ترقص وجسدي كان يحاول إقناع المتواجدين في الغرفة أنه لا يوجد شيء يدعو للانتباه.
إلى أن بادر بمراسلتي مجددا قائلا إننا لم نتعرف على بعضنا وازدادت غبطتي المدموجة بدقات قلب تضاهي سرعة الضوء.
يريد أن يتعرف علي وأن يعلم من أكون، إذا هذه علامة إعجاب وحب من النظرة الأولى، أعلم أنه لا يختلف رجلان على أني جميلة وجذابة إلى حد ما، حتى وإن لم يرني المجتمع كجميلة، كنت مثيرة للانتِباه بما فيه الكفاية، ودانيال أيضا يرى ذلك، إني أروق له على الأقل شكليا مثل ما يروق لي، فكلانا منجذب لشكل الآخر وهذه خطوة جيدة تسهل علينا زمام الأمور، إذا لن أبخل عليه بالتعريف بنفسي، وانتقيت اجمل الكلمات ورسمت بأرق الأوصاف صورتي، صورة فتاة جميلة مثقفة قليلة

الكلام وتحدثنا في الأساسيات أين أقطن وكم عدد إخوتي ومستوى دراستي وأشيَاء سطحية من هذا القبيل...

مع ذلك بقيت تلك الفتاة المتمنعة التي يصعب الوصول إليها. أي أني تركت العديد من الجوانب المظلمة ولم أفصح عنها، لكي أغريه في كل مرة وأجعله يتشوق لمعرفة المزيد عني. لأصبح الشيء الوحيد الذي يستحوذ على فكره.

لكننا ويا خيبة الأمل لم نتحدث لوقت طويل ليلتها، فقد إختفى فجأة، أما أنا فقضيت كامل الليلة أنتظر رده.

إستلقيت في سريري وعيناي مفتوحتان، أتقلب يمينا وشمالا وأفكر به، لم أعرف لماذا يتأخر في الرد، لكني أعطيته كل الأعذار، أعرف أنه يصعب عليه أن يستعمل الهاتف، ربما كان هناك شخص يساعده في ذلك، مازلت لا أعرف أي شيء، لكني التمست له أعذارا كثيرة وتفهمت حالته.

لم أتمكن من النوم من شدة الفرح، ورحت أتخيله فهل أنا في حلم أم يقظة؟ لعلها أحلام يقظة.

في تلك الليلة، أعياني الأرق والتوتر، تناولتُ القرص الأول، حاولت النوم، ثم الثاني... لكن دون جدوى ثم الثالث إلى أن أحسست بالدوار كأن الغرفة بأسرها تتحرك ولم أعد قادرة على الثبات: السرير يتحرك والجدران تتحرك إلى أن استسلمت لحالة من الهذيان وتراخت كل عضلات جسمي وهدأت أعصابي وانساق جسدي في نوم عميق.

إستيقضت في الصباح الموالي بعد بضع ساعات من النوم، كأنني على موعد مع حدث هام انتظرته كامل حياتي، نعم توقعاتكم صحيحة، كانت الساعة تشير العاشرة صباحا، وجدت رسالتي المرْتقبة التي تركها لي دانيال، أعطاني فيها لمحة بسيطة عن نفسه، أكثر سطحية من التي قدمتها أنا، أسطر وجيزة فيها عمره الذي أصبح ستة وثلاثين سنة، أين يقطن وأشار أنه يمتهن الرسم ليكسب لقمة عيشه. أسطر قليلة لكنه كان يختار كلماته بدقة ليتقن الحديث في أسطر قصيرة، فكانت كلماته قليلة لكنها تشبع الفضول لحد ما.

عندها عرفت أنه هو من يراسلني، وشعرت بنوع من الارتياح لأنه لا يوجد أي وسيط بيننا لأنه كان ينتقي مصطلحاته بكل حذر ويجيب على كل سؤال بأدق وأقصر الإجابات وغالبا ما يجيب بنعم أو لا فقط بدون إطالة.

إذا فالمنطق يقول أن مرسل هذه الرسائل تَعَوَّد على هذا الأسلوب من المراسلة لأنه يجد صعوبة في استخدام الهاتف، فيلجأ إلى أقصر المصطلحات وأدقها، لكي لا يتكبد مشقة الكتابة.

هكذا استنتجت أن دانيال هو الذي يراسلني ولذلك يتأخر في الرد، لأنه يستعمل ذلك الطرف الغير مكتمل من ذراعه للإجابة عن الرسائل.

وهذا الاستنتاج سبب لي راحة كبيرة ومزيدا من الأعذار له.

أحسست أني ثرثارة، على الرغم من أني لم أكن ثرثارة، بل لأنه كان قليل الكلام أكثر مني، فلم أتوقف عن الحديث الذي اعتبرته ثرثرة مقارنة بأجوبته المختصرة، أما هو فكان يجيبني بعد دقائق أو عادة تطول المدة لتتحول لساعات يرمي فيها أجوبة جرداء محدودة تجعل الغموض يدور حوله.

كان يحاكي نفس أسلوبي على ما يبدو، فقد كنت أراوغ وقد كان يستعمل تلك المراوغة ضدي.

هل يقرأ أفكاري؟ أو أنه مجرد تشابه في الانطباعات.

لم يشر الى مستواه الدراسي ربما لأنه كان خجلا لأني كنت أحضى بمرتبة علمية لا بأس بها، أو لأنه لم يجده مثيرا للإهتمام، لكني كنت أعرف مستواه التعليمي على أية حال أعرف أنه لم ينهي تعليمه الثانوي وخرج من المعهد في سنة مبكرة على عكسي فقد كنت أزاول تعليمي الجامعي.

فلم ألح على معرفة الأشياء التي أَصَرَّ على إخفاءها لآنني لم أعمد إحراجه أو مضايقه، لكنني كنت أعرف كل شيء كان يحاول أن يخفيه وأتظاهر بالجهل لكي لا أصبح مصدر إزعاج له.

في المدة التي كنت أنتظره فيها أجريت تحرياتي الخاصة، بحث في كل المواقع وقرأت كل المقالات، وشاهدت كل الحوارات لم أهمل أي تفاصيل، صرت جاسوسة أتجسس عن حياة دانيال ولم أهمل لا الكبيرة والصغيرة، هوسي به دفعني للقيام بكل هذه الأبحاث ودفعني للجنون.

تركته يتحدث بكل عفوية وأريحية، نتناقش في المواضيع التي يريدها ويحددها، كأن أغلب حديثنا عن الفن، ونادرا إن تناولْنا أي موضوع آخر، رغم أن محادثاتنا كانت قصيرة جدا لكننا أصبحنا نتحدث بشكل يومي.

حيث أصبح كل يوم يقص علي بعضا من تفاصيل حياته، فمرة يحدثني عن الرسم ولكن كان يفعل ذلك بتحفظ تام، ذات يوم عندما قال لي انه يعيش وحده، وأثار هذا الأمر استغرابي فشخص في مثل حالته وحركته المحدودة لا يستطيع أن يعيش وحده.

كيف يستطيع أن يقوم بأبسط الأمور؟

كيف يشرب، وكيف يأكل، كيف يغير ملابسه أو حتى يقضي حاجته؟

أسئلة تتالت في ذهني وانتابني الفضول لأعرف كيف يقضي يومه وهو وحيد.

لكني لم أتجرأ على طرح هذه الأسئلة لأنها فظة نوعا ما وليست من مشمولاتِي، أسئلة أخجل حتى من التفكير فيها لأني لا أريد أن أجرحه كما يفعل كل الناس.

لكني قرأت الموجود بين الأسطر، ففي ظاهره شخص عاجز، هذا ما تقوله عندما ترى دانيال، لذلك قرر ان يحطم تلك الصورة النمطية لشخص من ذوي الاحتياجات الخاصة وبنى على ركامها صورة للرجل المستقل كأي رجل في سنه، الذي لا يأبه ولا يبالي بإعاقته.

إنه لشيء جميل لأن كل يوم يمضي يساعدني على أن أكتشف أن دانيال قوي الشخصية يسعى لإثبات ذاته في المجتمع، عكس الذي كنت أظنه.

بعد ذلك أضاف أن لديه صديقان يساعدانه إن احتاج المساعدة، فهما جيرانه ويقضي أغلب وقته معهم، ويتصل بأي منهما إن دعت الحاجة وسَيلبون النداء.

إلى جوار ذلك، أقرباؤه يرتادون على منزله بصفة يومية ويرسلون له زاده اليومي من الطعام، كما أن أمه تزوره مرات متتالية في الأسبوع وغالبا ما تبيت عنده وترتب له المنزل وتحممه وتغسل له ملابسه وتقوم بكل الأعمال المنزلية.

ويزورها هو أيضا ويبيت عندها لأيام عندما يشعر بالملل، أو عندما لا تكون لديه أي طلبية رسم. لا أعرف لماذا كل هذه التفاصيل الشائكة إن كان غير قادر على الإعتناء بنفسه، لماذا لا يستقر في منزل أمه ويريحها من مشقة الطريق، لماذا يصر على تعذيب كل من أصدقاءه وأقاربه وأمه وجيرانه وكل الحي وكل المدينة وكل

الكرة الأرضية ويجبرهم على أن يتحملوه ويعتنوا بهِ وأن يتركوا حياتهم ومشاغلهم من أجله.
كم تمنيت لو أكون أنا المشرفة على كل هذه الأمور، فنفسِيا دانيال يعترف أنه لا يستطيع القيام بأي أمر من دون مساعدة، ولكنه يتحدى ذلك ويصارع من أجل أن يعيش حياة مستقرة مستقلة كغيره من الرجال .
يعيش في تمزّق أزلي بين ما هو عليه وما الذي يريد أن يكون عليه.
كان هذا كل ما أفصح به في الأيام التي كنا نتواصل فيها.
أظن أن أربعة أو خمسة أيام قد مرت، ربما أكثر... ومن يدري لعلها أقل فالأيام في حياتي مازالت متشابهة، حيث أصبحت أيام روتينية يعدلها إنتظاري لرسائل دانيال الإلكترونية.
بالإضافة لهذه المعلومات قال أنه أعزب، وأنه قد مضى أكثر من سنة على انفصاله عن حبيبته. فرحت عندما تلقيت ذلك الخبر الذي زفه لي، صدمت لأني عرفت أن دانيال كان لديه حبيبة في السنة الفارطة، و فهمت لماذا تأخرت الأقدار في جمع شملنا.
عندها علمت أن دانيال خلق من أجلي وفرحتي كبرت، وأخبرته أني لا أملك حبيبا في الوقت الحالي. واستغرب من كوني عزباء، ولم أشأ أن أخبره بإضطراباتي الجنسية والنفسية التي تجعلني أنفر كل شخص يقترب مني وتجعل كل من يعرفني يخاف ويلوذ بالفرار.
لم أرغب في أن يهرب دانيال مني، أو يحكم علي كشخص معتوه مكبوت يجري وراء ملذات الحياة. فاكتفيت بالإجابة بقولي إني انفصلت على حبيبي السابق لأن قصة حبنا كانت فاشلة وشعلة الحب انطفأت ولم تعد تتوهج كالسابق..
فتعجب وقال أن السبب نفسه جعله ينفصل عن حبيبته السابقة، قال أن الأمور طالت وتعكرت ولم تعد العلاقة مشوقة وكانت هذه نقطة تشابه أخرى بيننا.

توطدت العلاقة بيننا في غضون الأسبوع الأول من تعارفنا وأصبحت محادثتي مع دانيال طقوسا يومية لا بد من ممارستها.
كنت أحس بقربه رغم أنه كان بعيدا، كانت رسائله القصيرة تجعلني أسعد إنسانة في الكون كله، سعادتي لا توصف ولا تقدر بثمن فقد صرنا أصدقاء.
إلى أن جاءت اللحظة التي حاربت من أجلها وتحديت كل الأقدار.
سألني دانيال إن كانت هناك إمكانية في ندخل في علاقة، قال إنه وقع في حبي بهذه السرعة يريد أن نبدأ حياة جديدة مع بعضنا، ونكون لبعضنا مدى الحياة.
تململت من وقع الرسالة التي نزلت على قلبي كالصاعقة ولم أعرف بماذا أجيبه.
شعرت بأن قلبي سينفجر من كثرة التوتر، تداخلت الأحاسيس في بعضها وانتابني قلق كبير قلَب فرحتي إلى خوف.
ردة فعله هذه سبقت مخططاتي كلها، لم أتوقعها.
حدث الأمر الذي حلمت به وسهرت الليل بين شموع أحزاني أخطط له.
لعب القدر دوره وجمعت القوى الروحانية بيننا وألفت بين قلوبنا وبعد طول إنتظاري، دانيال يريد أن يصبح حبيبي.
كل شيء حدث بسرعة، ولم نتقابل إلى حد الآن فكيف له أن يحب شخص بهذه السهولة من دون أن يقابله وجها لوجه، هل هو جاد في ما يقوله؟
على ما أظن، يبدو شخصا متريثا وكبيرا عمرا وعقلا، لا أظن أنه يكذب، ليس لديه سبب ليكذب. لم أستطع أن أجيبه عن تلك الرسالة لأني حائرة.
هل هو جاد في قوله يتكرر؟ هذا السؤال في ذهني مرارا وتكرارا، لقد تطلب الأمر أسبوعا واحدا للاطاحة بدانيال وهل أنا على بعد أمتار من تحقيق مقاصدي الأكروتوموفيلية.
أتمنى أن أغوص بأعماق قلبه وأرى إن كان شاغرا أو لا للتحقق من نواياه وكيف يفكر، وراودتني ريبة كبيرة وشكوك و وساوس.
للقارء الآن أن يتعجب كيف سارت الأمور كما تمنيت وبسرعة البرق؟
للأسف لم أتمكن من أن أحصل على جواب يسكت فضولك هذه المرة، هناك فرضيتان وحيدتان تدعمان الموقف الذي وضعت فيه الآن.

الفرضية الأولى هي أن أكون حقا محظوظة ودانيال هو قدري المُنَّزل على الأرض من أجلي، أما الفرضية الثانية التي تدعم دانيال يريد أن يملأ بي وقت فراغه ليس إلا.
إلى حد الآن لا أحد يعلم الحقيقة ربما الأيام القليلة القادمة ستحمل معها الإجابة المنتظرة.
بماذا أجيبه يا ترى؟
شهواتي في كفة وعقلي في كفة أخرى والساعات تمضي وأنا أفكر.
لا أريد أن أضعف لأن الأمور تسير علي منحى أسرع من الذي كنت أتصوره.
فأنا بالكاد أعرفه، أقصد أننا أصبحنا أصدقاء منذ أيام.
لكني أعرف كل شيء عنه وبحثت عن كل الحوارات التي أجراها.
كنت قد قرأت عنه عديد المقالات التي تمجد مسيرته، لكن الآن أنا لست في أحلامي بل على أرض الواقع القرار الذي سأتخذه سيكون حتميا، وأنا أمام قرار صعب وقلبي يخفق من شدة القلق والحماس والفرحة والخوف.
فكل الحوارات التي أجراها لا تكفي لأعرفه، أنا أعرف دانيال الرسام لا الإنسان، الذي لا يزال غامضا.
أعرف الشخص الذي تحدث لدقائق أمام كاميرات مختلف القنوات، والشخص الذي كُتبت فيه عشرات المقالات قصد رفع معنويات العامة ليس إلا... لكن هذا حقا لا يكفي.
ركضت وراء شهواتي بدون إعمال للعقل واليوم إنطبق علي المنداف ويجب أن أقرر، أما أن أمتع جسدي الراكض وراء شهوات تقرف الإنسان العاقل، وإما أن أنسحب.
أشعر بالخوف.
ليس خوفا من دانيال، بل من تسرعه وثقته العالية في نفسه التي لم أتصورها، لقد طلب مواعدتي بكل هذه السرعة والسهولة والجرأة وقد تقدم لي بدون تفكير مسبق، خطوة لم أتوقعها من شخص مثله، ظننت أنه سيكون شخصا انطوائيا خجولا، يخاف من الإفصاح عن ما بداخله ويخاف من مواعدة أي إمرأة، لكنه كان عكس تطلعاتي، وهذا ما أثار حيرتي.

طبعا هناك شيء غير مألوف في الأمر، فحسب الدراسات التي أجريتها بخصوص هذا الموضوع، فالشخص الذي يعاني من إحتياجاته خاصة، يكون تقديره لذاته ضعيفا وشبه منعدم، ولا يتجرأ على القيام بخطوة كهذه لأنه يخاف من صوره عند الآخر الذي يراه مختلفا، يخاف من الرفض والنفور.

فبسهولة تامة أستطيع أن أقول لا، وسيحس بالنقمة على نفسه والصورة التي يراها في المرآة ولا يستطيع أن يقبلها فيظل في صراع دائم معها، يتقدم مرة ويتقهقر مرات، كما سينقم على النساء لأن الواقع الأليم فرض ذلك.

أغلبية النساء لن تقبل برجل مقعد شبه عاجز غير قادر على الحركة، ليس لديه وظيفة قارة، وستكون كل أعبائه عليها لأنه لا يقدر على القيام بأبسط الواجبات المنزلية ولا الزوجية.

من هذه النقطة يتحول إلى ميزوجيني[29] ماقت لأكثر من نصف المجتمع وسيكره العالم بأسره لأنه يراه مختلفا، ليس آدميا كبقية البشر، بل إنسان ضعيف الحال يسخر منه الأغلبية الساحقة في المجتمع ويشفق عليه الباقون.

ردة فعل تستدرجه للكفرِ بخالقٍ لم ينشأه في أحسن صورة.

"لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" هذا ما يؤمن به المجتمع ولذلك هو منبوذ مثلي... لا لسبب غير أن الله لم ترق له فكرة تشكيلنا سويين، فنقضي سنوات حياتنا من المهد إلى اللحد نلام على الأخطاء الإلهية الفادحة التي لا ذنب ولا دخل لنا فيها.

أما هو، فقد تغاضى عن كل هذه الأمور وتجاوز كل تلك المعتقدات المتوارثة التي لا لزوم لها في مجتمع أساسه الاختلاف سوى إن كان فكريا أو فيزيولوجيا وطلب قربي، وأنا بكل قوتي ولا مبالاتي بهذه الترهات قضيت سنة كاملة وأنا أتردد لكي أراسله.

هذا الأمر غير منطقي.

لم أكن مستعدة لهذه المقامرة، وانتهيت بقرار وسط يرضى الجميع، قلت له أني لست مستعدة للدخول في علاقة مع شخص اتواصل معه إلكترونيا ومن الأفضل أن نعرف بعضنا أكثر ثم أحسم القرار.

[29] ميزوجيني :الكره للنساء.

لا أريد أن أتهور رغم أني أرغب في التقرب منه، لكن يجب أن لا أتسرع باتخاذ القرار.

وافق دانيال على ما طلبته، واعتبرها بمثابة فرصة ليثبت جدارته فيها.

كانت أيام رمضان تمر بسرعة وكنت في قمة السرور، اقتربنا من بعضنا أكثر وأصبحت مصدر إهتمامه الدائم، رغم أن رسائله لا تزال قصيرة، إلا أننا تحدثنا في مختلف المواضيع، وأدخلني في حياته أدخلته في حياتي.

وأصبحنا نتواعد دون أن أحس بذلك، فكل منا انغمس في روح الآخر، وجدت رسائله تنتظرني كل يوم، وبها أبدأ نهاري فقد أصبحت تعطيني شحنة من السعادة والحيوية، لنواصل فيما بعد الحديث عن تفاصيل يومنا وما أُعدّه من الطعام وماذا سأفعل كامل اليوم، وأصبحنا نتحدث عبر هاتف يوميا.

تعودت سماع صوته، وزاد حبي له، وأصبحت أنتظر بفارغ الصبر أن أراه وأحتضنه لأول مرة في حياتي.

بت أحس أن هناك من يهتم لأمري أخيرا، صرت انسانا آخر... شخصا مبتهجا يشع سعادة واقبالا على الحياة إلى أن لاحظت عائلتي أني أعيش قصة حب كبيرة.

تغيرت حياتي وملأت الفرحة قلبي وإبتعدت عن الانطوائية والتشاؤم والاكتئاب، وأحببت الحياة، بمحاسنها ومساوئها، ما أجمل أن تعيش هذه الحالة من النشوة والحب في آن واحد.

صرت أبتسم كل ما أتلقى رسالة من عند دانيال، واطير فرحا عندما يتصل بي، وعائلتي في حيرة من أمرهم يتوسلون ليعرفوا ماذا حصل وما حل بي فجأة، من هو الوسيم الذي زرع الإبتسامة على شفتيّ؟

وتعددت الأسئلة، من هو؟ ما إسمه؟ هل نعرفه؟ هل هو ثري؟ أين تعرفت عليه... نعم هذا همهم الوحيد أن يكون ثريا ووسيما.

رغم كون ابنتهم سمينة ساقطة تعبد الشياطين منحلة قلبا وقالبا في نظر مجتمع مكبوت همه الوحيد أن لا تدخل الفتاة اصبعها في فتحة فرجها... أن تقتل كل أحاسيسها الأنثوية الغرائزية فقط لحفظ شرفها وشرف عائلتها المتمثل في منعها من الاستنماء أو ممارسة الجنس.

لكني لم أجب على أي سؤال واحتفظت بدانيال لنفسي، وخبأته في أعماق قلبي أحكمت الإغلاق عليه لكي لا يراه أحد، إنه ملكي، لي وحدي، لعبتي الخاصة التي لا يجب لأحد أن يراها أو يعرفها حتى اسمها أو شكلها، أريده أن يبقى سرا بيني وبين نفسي. لأني كنت أرى دانيال بمنظور الشبق الذي يحب أن أخبئه من المجتمع، لأنه من العيب أن أظهر شذوذي الأكروتوموفيلي للعامة، لأنه شذوذ جنسي، لن يقبل ولن يسكت عنه.

فأحببته في صمت...

انتهى شهر رمضان أخيرا، ذاك الشهر الذي كانت أسابيعه الأخيرة أشبه بالحلم.
أخطو فوق السحاب، أسبح مع الحوريات، وأسطع على الكون كالشمس المتورمة المشتعلة، الملتهبة بجمر الحب.
حلم كالطيف البريء، كالنسمات الصيفية العبارة، كخرير المياه وهديل العصافير كحقل نرجس عابق التقيت فيه بدانيال الذي أصبحت حبيبته، وأصبح ملكي.
أصبحنا نعيش قصة حب لا مثيل إليها.
الإبتسامة لا تفارقني، وجدت معنى للحياة، أحببت الجانب الإنساني الذي أظهره لي، أحببت الرجل الذي فيه، لم أعد أحبه من أجل شهواتي فقط بل تناسيت تلك الشهوات الشاذة، وأحببت ذاته كإنسان، كل شيء فيه جميل، صوته، طبيعته، فنه...
عاد كل شيء إلى طبيعته، وعادت الحركة الحياتية إلى سابق عهدها، نهار طويل وضوضاء متواصلة في الطريق،حرارة واكتظاظ وازدحام لا يطاق، أيام معدودات ويدخل فصل الصيف.
كل الأماكن تعج بالناس، والمقاهي الشعبية تنشر كراسيها وطاولاتها كسابق عهدها لتحتكر كل أرصفة المدينة وتمنع النساء من المشي على الأرصفة، من يهتم لأمرهن فهن مخلوقات ثانوية في الحياة لذلك لا يحق لهن المشي على الرصيف وتعكير مزاج السادة الرجال القوامين علينا.
تخاطف ولهفة على المأكولات، كأن الناس كانوا يتضورون جوعا لمدة شهر كامل، طوابير من الناس تقف أمام المطاعم تنتظر دورها لشراء ما يشبع جوعهم الغريزي لأشياء كانوا محرومين منها طيلة شهر أجبروا على أن يجوعوا فيه بلا فائدة تذكر.
أما أنا فكنت ومازلت كعادتي حبيسة المنزل لم أخرج لكي أتفادى هؤلاء الحمقى التعساء الذين ينظرون لي كأني مخلوق فضائي قادم من كوكب آخر، وتفاديا للحرارة ايضا، صراحة أنا لا أطيقها، ولا أطيق البشر ولا الأماكن المكتظة، تعودت على حياة ليلية، حتى وإن خرجت، غالبا ما يكون في ساعة متأخرة من المساء وليس في وقت الذروة. أَلِفْت الحياة كمصاص دماء، كائن ليلي غريب يعزل نفسه في منزله، لا يخرج إلا ليقتات من فريسة بريئة اعترضت طريقه، يهاب الشمس والزحام.

كالكونت دراكولا الذي أعجب بشخصيته، مخلوق رومنسي وقوي في آن واحد مثلي سئم الناس والمجتمع فعزل نفسه بعيدا عن الحضارة وسكن في برجه العاجي في أعالي ترانسلفانيا[30]. أما أنا فسكنت أعلى قمة في برجي العاجي، لا يصلها أمهر المتسلقين، وانقطعت عن الحياة الاجتماعية منذ سنوات لأن البشر يصيبونني بالغثيان.

كم شعرت بالأغتراب في هذه البيئة التي أتواجد فيها، زحمة وضِعتُ في منتصفها وحاولت التأقلم، لكن هذا النوع من الكائنات البشرية الذي أحْتَكُّ به لن يقبل شخصا دخيلا بأتم معنى الكلمة، ينزاح من القطيع ويضيع في البراري، يعارضهم في أفكارهم ويخرج عن معتقداتهم، لا يكترث بعاداتهم التي لا يوجد لها أي معنى ولا تفسير. شخص يفكر ويقول لا، يناقش ويبحث عن الأدلة.

يريدون خروفا وديعا يقودونه للمسلخ الذي لا مهرب منه.

فما هو الهدف من التواجد في مجتمع كهذا، إن لم تتسنى لك الفرصة في أن تعبر وتبدع وتتفرد، أن تكون "أنت"، "نفسك" ولا تحاكي مجموعة من الأشخاص، ما فائدة التعايش الاجتماعي إن لم تكن هناك أي إضافة؟

كل ما أستطيع فعله هو أن أقبل الوضع كما عليه لأني لن أتمكن من تغييره بمفردي قبلت كل شيء لكني لم أرضخ، حاولت التمرد لكني لم أفلح، أخذت بالصراخ، غير أن كل الصرخات والأنّات باتت صامتة، لا صوت يعلو أمام صوت ناس أعمتهم التبعية.

لا أحد، يراني، لا أحد يستمع إلي، كم أنا نكرة في نظرهم.

وحثالة هم في نظري.

عندها أدركت أنه من المستحسن أن لا أدخل في جدال بيزنطي[31] لاهوتي[32] لا فائدة منه تذكر ولا من طرف مستفيد فيه، لذا بقيت في المنزل لعدة أيام وأنا أفكر في علاقة الحب الافتراضية التي أعيشها مع دانيال.

علاقة بنيت على أساس وهمي لأجد نفسي في وهم معدوم أكثر، سأسميه بالوهم الواقعي. علاقة لكنها في عالم إفتراضي موازي للعالم الحقيقي التعيس.

---

[30] ترانسلفانيا : محافظة من محافظات رومانيا و تعتبر القلب التاريخي للبلاد لما شهدته من أحداث في القرون الوسطى.

[31] الجدال البيزنطي : نقاش لا طائل تحته، يتناقش فيه طرفان دون أن يقنع أحدهما الآخر.

[32] اللاهوت : دراسة ممنهجة عن الطبيعة الإلهية والدين بمختلف عقائدهم.

علاقة ربما تكون عادية في أيامنا هذه، فهناك أغلبية ساحقة من البشر تعيش تجارب متعددة ومتنوعة ومن أنحاء العالم في هذا الركن للتعارف الإفتراضي الذي صرت أقضي فيه أغلب ساعات يومي، أتواصل مع دانيال وأبحث عن المزيد من المعلومات عن شبقي الذي لم أجد سبيلا لإخماده، تمكنت من التعرف عن فتاة تكبرني بسنتين على إحدى مواقع التواصل الإجتماعي، تدعى ياسمين، فتاة جميلة وذكية ومتزوجة، في الواقع الشيء الذي جعلني أتحدث معها هو زواجها الذي أعتبره القاسم المشترك الوحيد بيننا فهي متزوجة من رجل يعاني من شلل نصفي في النصف السفلي من جسمه، قالت أنه مدير الشركة التي كانت تعمل بها، وقد عملت كسكرتيرته الخاصة قبل أن تقع في حبه ويتزوجا.

في البداية كانت متحفظة جدا عن علاقتها بزوجها، ولكن لعبت الأيام دورها وغيرت ذلك حيث بعد فترة وجيزة من الدردشة اليومية صرنا صديقتين مقربتين، وأخذتُ بدوري أطلعها عن تفاصيل من حياتي وعن علاقتي بدانيال، مثلما أخذت هي الأخرى تطلعني على علاقتها بزوجها المشلول.

بدأ هوس ياسمين بمواعدة الأشخاص المشلولين العاجزين عن الحركة أو حتى المبتورين في سن التاسعة عشر، لم تذكر أي سبب يجعلها تحبذ الإرتباط بهذه الفئة من الرجال، ولكن قالت أن هذه الفكرة قد صارت هوسها الوحيد بالتحديد عندما قرأت كتاب أنا قبلك[33] ومنذ تلك اللحظة صار هوسها الوحيد أن تجد رجل أحلامها الذي قرأت عنه في تلك الرواية، وبالفعل حققت حلمها وتزوجته، قالت لي إنها سعيدة جدا معه فهو الرجل المناسب، رجل لا يتحكم بأي تفاصيل من حياتها، ولا يستطيع العيش من دونها في آن واحد، فهي بالنسبة له كل شيء في حياته، ينفذ لها كل رغباتها وأوامرها التي لا يجب أن يفكر في عصيانها ويدللها ويوفر لها حياة مرفهة، حتى وإن أرادت السفر مع صديقاتها لا يتدخل في ذلك، بل كل ما عليه أن يقوم به هو توفير المال لتحقيق رغبات زوجته الحبيبة، قالت أن الجميع يحسدها على زواجها هذا والترف الذي تعيشه وكل مشاعر الحب والإخلاص الذين يكنهم لها زوجها.

[33] أنا قبلك : رواية رومانسية كتبتها جوجو مويس. تتحدث عن فتاة عادية أحبت رجلا ثريا لكنه مشلول.

أعجبت بعزيمة هذه المرأة وكيف فعلت المستحيل من أجل أن تجد فارس أحلامها، وأيضا أعجبت بقصة الحب التي تجمع بينهما واحقاقا للحق، عديد العلاقات المتكونة من شخص سوي وشخص من ذوي الاحتياجات الخاصة قد كللت بالنجاح، فهنا تصبح علاقتهُما متحدة كأنهما جسد واحد أو روح واحدة لذلك لا يستطيعان الإنفصال عن بعض أو التخلي عن بعض مهما كانت الأسباب.

لكني لا أبالي إن نجحت علاقتي مع دانيال أو فشلت كأغلب علاقاتي، كل ما يهمني هو أن أرضي نَهَم شهواتي التي لا تعرف معنى الشبع.

كم تمنيت أن تنتهي علاقتي مع دانيال بالزواج كعلاقة ياسمين وزوجها، فقد أخبرتني أيضا أنها لا ترغب في إنجاب الأطفال الآن فالوقت مازال مبكرا عن ذلك، فهي تحبذ أن تخصص كامل وقتها لزوجها الذي يستحق عناية خاصة كالأطفال، لذلك هي لا تحس بأن حياتها الأسرية تخلو من الأطفال أو تشكو نقصا في التوازن، فقد أخبرتني أيضا أن زوجها بمثابة كل شيء لها، فهو صديقها وابنها وأبوها وكل شيء بحثت عنه طيلة حياتها وجدته في انسان واحد.

كم حسدتها في كل شيء قالته، كيف لي أن لا أحسدها بما أن علاقتي مع دانيال لم يطرأ عليها أي مستجدات لذلك لم يكن لدي أمل. فأنا لم أكن أنظر للنصف الفارغ من الكأس ولا النصف الممتلئ منه، كل ما كنت أراه هو كأس فارغ فهذا ما أوحت به علاقتي مع دانيال.

رسائل قصيرة كالعادة، ومكالمات هاتفية من حين إلى آخر، لكنها كانت تجعلني الأسعد، وأواصل بناء أحلام رومنطيقية لا أريد الإستفاقة منها.

رغم كل هذا الحب والعاطفة التي أكنها له، لم ألتقي به إلى حد الآن.

أحببته قبل أن أعرفه، وعشقته قبل أن أراه.

لقد أصر على أن لا نلتقي في شهر رمضان، لا أعلم لماذا، لكنه قال إننا سنلتقي فور إنتهاء رمضان وأيام العيد.

كانت عطلة عيد الفطر بمثابة عطلة لن تنتهي، رغم أنها لم تتجاوز الثلاثة أيام، إلا أن كل يوم يمر أحس أنه شهر.
وافقت على أن يكون أول لقاء بيني وبين حبيبي بعد عطلة العيد، رغم أني لم أقتنع بالسبب الذي يجعله رفض مقابلتي في رمضان.
لم أعد أستطيع التحكم في شهواتي التي سيّجت عقلي ومنعتني التفكير في أي شيء آخر. دانيال يستحوذ على كل أفكاري، لم أعد قادرة على ممارسة حياتي بشكل طبيعي منذ أن عرفته، أتخيله في كل مكان، أصبح كالمسَكِّن الذي آخذه لأرتاح وأنسى همومي، وكم أردت أن أرتاح وتصبح أحلامي حقيقة.
في هذه الفترة الوجيزة، تسلقتُ السموات السبع ووصلت إلى الجنة، لكن أبوابها كانت موصدة أمامي حاولت أن أفتحها، لكني فشلت.
فقط دانيال هو الذي يمتلك مفاتيح أبواب الجنة التي سنمضي فيها حياة خالدة مفعمة بالحب.

انتهى عيد الفطر، وأيام العطلة.
بدأ العد التنازلي للقاء الحاسم، فقد عاد الجميع للعمل ولنشاطهم الاعتيادي.
وأنا مازلت على حالتي المعهودة، أحصي الأيام التي تفصلني على دانيال.
كلما زاد الانتظار، زاد معدل نوبات التوتر.
هل سأقابله اليوم؟ أم غد أم بعد غد؟ عزيزي "داني" متى ستحن وتلاقيني، الوحدة تقتلني.
سأقابل دانيال وسأكون كل شيء في حياته، سأسيطر عليه وسأجعله يحبني ويعبدني أخلص العبادة.
سيكون ملكي، سيركع وسيتوسل لكي أمتعه.
عاد الأرق يغزو أحلامي ويطاردها مجددا.
بعد أن أتممت كل ماهو صعب خطوات قليلة تفصلني عن حلمي بلقائه.
لم أعد أستطيع تحمل كل هذه الأحاسيس المقلقة، أريد دانيال، أريد أن أراه أكثر من أي وقت مضى لكن لا بد من الصبر، خوفي كان فطريا، خوف عادي لأني كنت

أسافر في طيات المجهول، لا توجد بوصلة لتقودني وتثبتني في المسار الصحيح ولا منارة تنير طريقي المعتم، سفينتي فاقدة للسيطرة والموج والعواصف تتلاعب بها وتقذف بها في كل الجهات، ليتني أجد مرفأ أرسي فيه، وأرمي فيه بثقل مرساة مخاوفي في أعماق البحار.

حالة من التخبّل تفقدني صوابي فعدت بإستخدام الأدوية المهدئة للأعصاب.

لعلها تهدأ من روعي، إلى أن أجد دوائي "دانيال" ترياقي.

فكل الأدوية العصبية لم تعد تجدي نفعا، وأمسى الأرق ونيسي الوحيد ونديمي الذي يسقيني أقداح الخمر والسلوان في محنتي التي لن تنتهي إلا عندما يريد دانيال فخلاصي بين يديه.

حرب بيني وبين شهواتي وبين حبيبي الذي لا يريد أن يظهر في حياتي.

إما أن اتغلب على شهواتي أو أتغلب عليه.

إما أن أكسبه، أو تقتلني أرواح قادمة من مستقبل لن أراه.

قال إنه يحبني، وبالمقابل يتردد في مقابلتي، أي نوع من الحب هذا الذي يصبر فيه المحب على لقاء حبيبه ويتهرب من ملاقاته. لا توجد هذه الأفعال في قاموس الحب، لم أسمع حبيب ترك توأم روحه يحترق في نار الهوى.

أصبح الحب الذي أكنه لدانيال موضع خوف وتوتر وحيرة.

كأني أنتظر يوما لن يأتي وشخصا غير موجود.

أتعذب مثل أي عبد ذليل يوم القيامة يتضرع للخلاص من عذابه الأبدي، لا أعلم ماذا سيكون نصيبي، جهنم التي سأتعذب في نارها إلى أبد الآبدين، أو سأنال رضاء دانيال وأفوز بجنات النعيم.

للأسف حظوظي بدأت في الاندثار، بدأت أفقد الأمل، دانيال لا يريد أن يراني ولا أعلم ما السبب، لقد انقضى الأسبوع الأول، ودانيال يختلق الأعذار والأكاذيب لكي لا يراني.

يوما يقول أنه مشغول بالرسم، لأنه سيقيم معرضا في القريب العاجل.

أنا أيضا ارسم، لكن لدي وقت له ولأشياء أخرى.

اليوم الموالي يقول إنه سيزور أمه.

دائما يزور أمه وكان يتحدث معي طوال الوقت، والآن صار يتهرب.

اليوم الذي يليه يقول أن أمه ستزوره، وتعودت أمه أن تزوره لكنه لم يغب عن نظري. أضحى دانيال مشغولا كل يوم, وله الوقت للقيام بأي شيء يريد إلا الحديث معي، فبالطبع لن يجد دقيقة يراسلني فيها لأنه غير مهتم بأمري.
أما الأيام المتبقية فقد تعمد أن لا يحدثني فيها، لا رسالة ولا مكالمة.
لم أسمع صوته لأيام.
واعصابي انهارت وأصبحت آخذ جرعات زائدة من المهدئات التي لم تعد تجدي نفعا هي أيضا.
أعيش أياما عصيبة.
روحي تحتضر بين يديه.
وأخذت أبحث عن أعشاب طبيعية تهدئني، فالاقراص بمفردها لم تعد تجدي نفعا، ذهبت إلى السوق لعلي أجد ضالة تخفف آلامي وما ألَّمَ بي من مصائب، إلى أن وجدت بعض أزهار البابونج التي كنت قد قرأت عنها في بعض الكتب الطبية ورحت أستعملها لتهدئة أعصابي وأخذ مضادات الإكتئاب وأشرب الخمر في آن واحد، شرب كل تلك الأشياء في آن واحد كان بمثابة الأمر الجنوني ولكنه هدأ من روعي تدريجيا، إلى أن أشرد وينخفض تشنجي لساعات، عقلي في مكان آخر وجسدي كالجثة الهامدة التي لم يسعها القبر، وروحي لم تقبلها السماء، أشغل موسيقى حزينة كالعادة وأفكر بدانيال.
ثم تعود نوبة الإكتئاب وتتسارع دقات قلبي الضعيف أمامه...
ثم أعيد الكَّرة وألتهم المزيد من الأقراص.
إلى أن نفذت الأقراص التي بحوزتي قبل آجالها، وتماديت في شرائها الى أن رفض الطبيب مناولتي الوصفة الطبية لأني استهلك كمية حبوب أكثر من اللازم، سأصير مدمنة إن واصلت على هذا المنوال... هذا ما قاله الطبيب.
لكن الطبيب لم يفهم أن الأقراص ليست ما أدمنه، كانت تساعدني لأنسى ما أدمنته حتى الصيدلي رفض أن يناولني الدواء، وأعصابي لم تعد تحتمل.
فعلت المستحيل لأخرج من حالة اللاوعي التي كنت فيها. فواقعي كان كئيبا وأحلامي كانت أكثر كئابة لأنها لن تتحقق.

لم أعد أطيق التفكير في سبب علتي، لكن الأتعس من هذا كله إذ بعقلي الباطني أيضا لا يفكر إلا في دانيال عقلي وجسدي لن يتحمل إدمانا آخر.
فالفن هو إدماني.
فالخمر والسجائر إدماني.
والتسلط إدماني وكل شيء سيء هو ايضا ادماني.
ثم جاء دانيال ليزيح كل ما أدمنته من قبل.
"دانيال" صار إدماني الوحيد في هذه الحياة، لكنه يتهرب ويغيب لأيام تجعلني أجن وأفقد صوابي.
إلى أن راسلني ذات يوم بعد ما فقدت منه الأمل وقال أنه مشغول لذلك لم يتمكن من مراسلتي، واعتذر.
لم أتمالك أعصابي وعاتبته، قلت أن علاقتنا أصبحت متعكرة، وغير مفهومة، تؤثر علي بالسلب، لم أتوقع أن يحدث لي كل هذا أصبحت ضحية لسلوكي الشاذ لم أتوقع أن يعاملني دانيال بهذا البرود.
لن نستطيع أن نواصل مع بعضنا بهذه الطريقة.
قال أنه لم يقصد شيئا من هذا القبيل واعتذر...
وأضاف أنه يتحرق شوقا لرؤيتي، وأنا قبلت الإعتذاركالعادة لأني أريد أن أناله وأُرضي تصرفاتي الاكروتوموفيلية الشاذة ليس إلا.
يجب أن نتقابل بأي طريقة لم أعد أبالي... هذا ما قلته له.
حددنا يوم الخميس، على أمل أن نتقابل وكنا متحمسين.
كنت متحمسة وخائفة، أريد فقط أن أنعم براحة البال.
جاء يوم الإربعاء، من المفترض أن أحادث دانيال بشأن مقابلتنا التي من المفترض أن تكون يوم غد، لكن دانيال لم يحدثني يومها ولم أفهم لماذا، وأحسست بتشوش في أفكاري.
استيقظت في صباح يوم الخميس، ولم أجد أي رسالة منه، عندها أيقنت أننا لن نتقابل في ذلك اليوم.
واعتذر في اليوم الموالي قال إنه كان مشغولا وعائلته زارته لذلك لم نتمكن من نرى بعضنا.

دائما نفس العذر ونفس الكذبة التي كان علي أن أتظاهر بتصديقها.
شعرت بالأسى، كان هناك شيء غير واضح، شيء لم أجد له تفسيرا أو ربما أوهمت نفسي أنه لا وجد أي تفسير لهذه التعطيلات.
كأنه يكذب ويتلاعب ويعد ويخلف، وأنا أجاريه وأسمع كلامه وأنساق مع تيار اكاذيبه، أصبحت كالدمية التي يحركها، أصبح يسيطر علي وأنا أرضخ لتصرفاته جهادا في سبيل شهواتي.
لذلك سأتحمل، إلى أن أجسد ما يدور في ذهني من شهوات وأحلام.
إن كان دانيال لا يريدني لماذا يجبر نفسه على مواعدتي، هناك خيط ناقص لم أتمكن من إمساكه.
قررت أن أفعل شيئا حيال الأمر، في مدينتي توجد إمرأة عجوز تقرأ الطالع وأوراق التاروت[34]، مشعوذة أو ساحرة... كانوا يطلقون عليها إسم الحكيمة الروحانية، لكني أظن أن هذا الإسم مبالغ فيه.
لا أعلم لماذا فكرت بذلك في ذلك الوقت بالذات ولكن أردت أن أعرف ماذا يحصل من ورائي، ما السر الذي يخفيه دانيال.
قررت أن أذهب لرؤية هذه المرأة لعلها تطلعني على ما يحمله لي المستقبل من أحداث، زرتها في المساء، دخلت لمنزلها لأول مرة في حياتي رغم أني لم أذهب لها على اقتناع، لكن لم يكن لدي أي حل آخر.
بيتها لم يكن كبيت الساحرات التي نراه في الأفلام، أما هي فلم تكن تلك المشعوذة القبيحة ذو الرائحة الكريهة والأنف الكبير، وكذلك لم تكن غجرية فاتنة الجمال، كانت إمرأة عادية ككل النساء اللواتي يحاولن أن يظهرن أصغر بكثير من سنهن، صبغة شعر صفراء كالقش، آلاف الطبقات من مساحيق التجميل على وجهها من أجل تغطية كل تلك التجاعيد، وأحمر شفاه فاقع لدرجة الابتذال، شال صوفي أسود على كتيفيها وفستان مزركش تداخلت ألوانه المشعة لدرجة أعجزتني عن وصفه، كل شيء غير متناسق شكلها، ملابسها وحتى منزلها الذي كان عاديا وعصريا لكن اختلط فيه الأثاث بطريقة جعلتني أتساءل إن كان ذلك بسبب سوء ذوقها أم بسبب تواضع مقتنياتها.

[34] التاروت : مجموعة من الأوراق المشابهة لأوراق اللعب يستعملها السحرة في التنبؤ بالمستقبل.

بعد تدقيقي في أتفه التفاصيل التي ما كان من اللازم أن أدقق فيها أدخلتني للغرفة المخصصة للزبائن، غرفة لم يدخلها أي شعاع من أشعة الشمس، النوافذ كانت مغلقة، مصدر الضوء الوحيد كان الشموع، إنارة خافتة عهدتها في غرفتي، لم تجهد نفسها بتهوية المكان حتى، بل أصرت على أن تفوح منه روائح البخور الذي لوث دخانه كل الهواء المتاح في الغرفة، أجلستني إلى الطاولة قبالتها، وأخذت من إحدى الرفوف حزمة ملفوفة من أوراق الميرمية ورمتها في المبخرة لطرد العكس والأرواح الشريرة، أخذ الدخان يتصاعد ويملئ الغرفة ويزيد الأمر سوءا، ثم تناولت علبة تاروت التي كانت تضعها بجانبها، أخرجت منها الأوراق وقالت:" أترين هذه الأوراق، إنها أربعون ورقة..."

وضعت الأوراق في يدي ثم واصلت شرح الإجراءات:" أريدك أن تنوي وتفكري في الشيء الذي جئت من أجله، لا تقولي لي أي كلمة عن الشيء الذي تفكرين فيه، ثم اخلطي كل هذه الأوراق واسحبي منها واحدا وعشرين ورقة عشوائية."

فعلت كل ما أمرتني به، وسحبت الاوراق المطلوبة وناولتها إياها.

في البداية، وَضعت في الصف الأول تسعة أوراق كل ثلاثة أوراق فوق بعضهم، وتحتهم أي في الصف الثاني وَضعت ستة أوراق كالعادة كل ثلاثة أوراق فوق بعضهم، وأعادت نفس العملية بستة أوراق آخرى تحتهم أي في الصف الأخير.

وقالت فور انتهائها من وضع الأوراق:" أول ثلاثة أوراق على اليسار لتحديد شخصيتك."

أخذت تحلل الأوراق الثلاث، فعلا كل كلامها كان صائبا ودقيقا، وقالت بعد انتهائها من تحليل شخصيتي :" أما هذه الأوراق فهي المنزل، وجو المنزل الذي فيه ضغوطات وطاقة سلبية."

وأنا كنت أستمع لكلماتها الحكيمة دون مقاطعها أو تشتيت أفكارها وهي تقول:" أما الأوراق الثلاثة المتبقية في الصف الأول هي الأشياء التي تحبينها والأشياء التي تخافينها، هنا عليك الحذر، فأنت تخافين أكثر شيء تحبينه، شيء ستضحين من أجله لكنه لا يستحق... وهذا ما يعكرك، وهو الشيء الذي جئتِ من أجله، لتتخذي حذرك عندما تحركين قطع الشطرنج وإلا ستخسرين اللعبة بأكملها... أما الآن الصف الثاني الأوراق الثلاثة الأولى للأشياء المتوقعة، أنت تحبين شخصا ومن المفروض

أن يبادلك هو أيضا نفس الشعور، هذا الظاهر يا عزيزتي، وأما رزمة الأوراق الثلاثة الأخرى الأحداث غير المتوقعة... "

سكتت قليلا وقالت:" عادةً ما يأتي الناس لسماع الأخبار السارة، يظنون أنهم سيسمعون ما يريدون ولكن... ليس هذه المرة."

فقلت في استغراب:" ماذا تعنين؟"

واصلت تمعنها في الأوراق وقالت:" إنه يتلاعب بمشاعرك... لا يهتم لأمرك... أما الأوراق الأخيرة فالرزمةُ الأولى ستطلعنَا عن المستقبل القريب..."

فقاطعتها:"هل سيقابلني؟"

قالت بدم بارد:" لا... لن يفعل ستُضيعين وقتك بانتظاره، فهو لن يأتي... أو أقترح أن توفري على نفسك عناء الذهاب لمقابلته لأنه لن يظهر... أما الرزمة الأخيرة من الأوراق فهي للمستقبل البعيد. "

دققت في الأوراق الثلاثة المتبقية وقالت :" في النهاية سيحطم قلبك."

ولم تضف أي كلمة أخرى.

استفزتني كل كلمة قالتها، وشعرت بنوع من الإحباط، فاندفعت قائلة:" ترهات، هو يحبني، لن يفعل بي كل هذا، لن يحطم قلبي، فهو غير قادر عن ذلك، أنا كل شيء بالنسبة له وليس لديه أي خيار آخر. "

قالت بينما كانت ترتب الأوراق وتعيدها لمكانها:" هذا ما قاله المئات من الزبائن الذين جلسوا في الكرسي نفسه، لكن أوراق التاروت لا تكذب، هذا قدرك، وهذا ما سيحدث مهما تحديتِ كل الأقدار، فالتاروت لا يكذب."

فقلت بنفس النبرة المندفعة:" أنت لا تعرفينه، هو عاجز عن القيام بكل هذا،لا يستطيع إيذاء حشرة."

فضحكت قائلة:" ربما بعض الرجال يعجزون عن إيذاء أي حشرة، لكنهم قادرون على سحق قلبك تحت راية الحب، ذلك الحب الذي يعميك عن رؤية الواقع و تقبل الحقيقة. "

ثم أضافت ضاحكة:" عزيزتي...هم يمقتوننا بالفطرة."

شعرت بضيق واختناق لا يطاق، تركت لها النقود على الطاولة فأخذت تعدها قائلة:" عودي مرة أخرى من أجل الأخبار السعيدة..."

ثم غادرت منزلها في صمت وحقد عليها وعلى أوراقها السخيفة.
من تظن نفسها كي تقول أني لا أستطيع تغيير الأقدار، أنا أصنع قدري وأتحكم فيه.
أنا من اخترت دانيال وأنا من جعلته مصيري المحتوم.
مضى شهر وأسبوع منذ أن بدأت أحادث دانيال، وفي هذه الفترة كانت علاقتنا الافتراضية تعيش تقلبات عديدة، مرة في الأعلى، وأخرى في الأسفل ككل العلاقات.
لم أحزن لذلك لأني كنت أراعي ظروفه، كنت قد التمست له كل الأعذار قائلة لنفسي لربما يعاني من اضطرابات نفسية تجعله لا يرغب برؤيتي، لعل هذه الاضطرابات كانت السبب الرئيسي لترده.
كأنه خجل مفرط.
ماذا لو كان يخفى سرا، ربما كان مرتبطا ويخشى البوح بذلك، ماذا لو كان يتسلى بمشاعري.
وأصبحت هذه الفكرة هوسي وهاجسي الوحيد، فتصرفاته هذه لا تدل على شيء غير ارتباطه .
لا أريد أن أفكر بكل هذه الترهات سأغامر رغم أن حدسي لا يبشرني بالخير على الإطلاق وكلام تلك المرأة التي تحسب نفسها مشعوذة حكيمة زاد الأمر تعقيدات وزاد من توتري، عديد الخيوط المتشابكة التي تجعلني أتردد وأتساءل هل أتراجع الآن مثلما حذرتني تلك المشعوذة أو أواصل المغامرة التي قضيت سنين أحلم بها.
فكرت مليا في الأمر لكني قررت المتابعة والمضي قدما، وقررنا الإلتقاء يوم السبت، ووعدني بأن نمضي وقتا ممتعا.
ليلتها تحدثنا طوال الليل وأكد لي أننا سنتقابل فهو لم يعد يطيق الصبر مثلي أو أكثر.
ليلتها برمجنا لكل شيء، كيف سنمضي النهار، وما هي الأماكن التي سنزورها، واقترحت أن نقضي امسية رومانسية في منزله ونطبخ عشاءا نتناوله على ضوء شموع خافتة تضفي هدوءا وسكونا على موعدنا الأول.
قررت أن أجعله أسعد رجل في العالم، سأفعل كل شيء لإسعاده...
فقد صار ملكي الآن.

في تلك الليلة شعرت أن الحظ إبتسم لي وكل الدنيا ضحكت من أجلي والعراقيل التي كانت في طريقي أزيحت بمعجزة، دانيال حقا يحبني ويعشقني أستطيع أن أحس بذلك، فالصدق يملأ كلماته القليلة، ووجهه البريء الطفولي غير قادر عن الكذب، كيف لشخص بكل هذه البراءة والعفة أن يكذب ويخدع، بالطبع فذاك محال.
ليلة واحدة تفصلني عنه وعن أحلامي.
ليلة واحدة فقط وتفتح أبواب الجنة الموصدة .
انتهيت من لوحتي التي كنت أرسمها لباروخ سبينوزا[35]، وأرسلت صورتها لدانيال وحقا أعجب بها، فقد كان دانيال معجبا بلوحاتي الكلاسيكية، مثل ما أعجبت أنا بلوحاته التجارية.
دعمه لي وشهادته هذه لم تزدني إلا فخرا.
لقد عشق فني كما عشقت فنه، كان دائما يشجعني ويحثني على الرسم والإبداع.
كان يرى في روحي الفنان الذي مزق صورة الفنان العصري التجاري، لأني لم أحب الفن العصري ولا الفن التجاري الذي يعيش منه دانيال.
أحَب ذوقي وقوَّتي لأني لم أكترث بنظرة الناس لفني الذي هجره كل متبعي التجديد والحركة التجريدية التي تعتبر بمثابة تراجيديا في الفن.
لم أكترث إن أَعجبَ الناس أم لا، إن أقمتُ معارض أم لا، إن بعتُ لوحاتي أم لا، إن ربحت أموالا أم لا.
كنت عكس دانيال الذي كان يرسم ليقتات فتات الخبز من الأذواق المعدومة، لكني لا أستطيع لومه لأنه لا يستطيع أن يقوم بعمل غير هذا فمن حسن حظه أنه قد تمكن من الرسم بقدميه.
أما أنا فكنت مختلفة، كانت نظرتي كلاسيكية جدا في الفن والأدب وكل شيء، كنت أؤمن بأن تاريخ الفن بدأ مع عصر النهضة الإيطالية لينتهي في الحقبة الإنطباعية[36] .
لا يوجد فن بعد ذلك انتهى العصر القوطي والعصر الإدواردي[37] ليشهد الفن انتكاسة كبرى غرار الحرب العالمية.

---

[35] باروخ سبينوزا : فيلسوف هولندي من أهم فلاسفة القرن السابع عشر.
[36] الحركة الانطباعية : هي حركة فنية أوجدت في القرن التاسع عشر أسسها كلود مونيه.
[37] العصر الإدواردي : الفترة التي حكم فيها الملك إدوارد السابع وريث الملكة فيكتوريا وابنها الوحيد. وامتدت فترة حكمه من 1901 إلى 1910.

مارست الفن للفن، لا للناس ولا للمال، بدون مقابل، في الظلام بين جدران غرفتي وخلف قضبان نافذتي، من دون أي مَعارض ظل فني مختبأ في غرفتي منسيا كالتاريخ المغبر الذي تتالت فيه الحقب لتتلاشى وتنتسى.

لذلك أَحبه دانيال الذي لم يرى أعمالي بعين الفنان الناقد، ولأنه لم يكن قادرا على رسم ما يريد، كان يرسم ما يطلبه جمهوره الغفير بأبهض الأثمان.

كان مقيدا، لا تقوده قريحته الفنية ولا الإلهام.

كان كل همه المال، يرسم ليكسب لقمة عيشه، يتاجر بالفن ليعيش كغيره من الهوات.

عكسي تماما، لذلك شجعني وأحس أني أرسم أفضل منه، متحررة أكثر منه.

عشقني بفوضتي وأفكاري وملابسي السوداء الضيقة وشعري الملون.

وأنا عشقته لأنه بريء كالطفل الصغير، كالحمل الوديع، ولأنه أيضا لن يتخلى عني كالآخرين، وأحسست أيضا بأنه يرسم أفضل مني ومشهور في كل البلاد على عكسي تماما.

انتهيت من الحديث مع دانيال، والوقت قارب الواحدة صباحا، طلب مني دانيال أن أقضي ليلة غد عنده، وأنا قبلت.

قبلت رغم أني لا أعرف ماذا سأقول لعائلتي، أنا لم أتعود أن أبيت خارج البيت فجأة، فالجميع يعلم أني شخص انطوائي بائس لا يستطيع الناس تحمل كآبته الفطرية، غير أني لم أكترث لأي شيء يعوق طريقي، سأذهب لرؤية دانيال مهما حدث من كوارث حتى وإن غمر الطوفان كل الدنيا فإنه لن يعوقني، سأذهب لدانيال حتى زحفا على الأقدام.

إنه اليوم الموعود الذي انتظرته لسنوات، ساعات قليلة ستفصلني عن أفضل موعد غرامي في حياتي.

بعد كل هذا الصبر والعناء سأستمتع بجسده، سأدخل حياته، سيبيت الليل في حضني.

فرحتي... فرحتي لا توجد كلمات تصفها، ولا مصطلحات تعبر عنها، ولا أغنية لتعكسها.

أعرف أنكم متشوقون مثلي، فبعد أسطر من السرد الممل سأراه ويراني وأُشبع غرائزه المكبوتة وحرمانه الذي طال.
كم أنا بارعة في التخطيط، كل شيء مثالي، بقي ما يعادل الثماني ساعات وأكون في منزل دانيال.
أحسست كأني عروس يوم زفافها ستزف لعريسها، حبيبها الذي ضحت من أجله وتحدت القدر والعالم لتفوز به.
كذبت على عائلتي وقلت لهم أن لدي مقابلة مع إحدى الجمعيات للرسم من أجل الحديث عن تمويل معرض الفني الذي أرغب في إعداده.
أبدعت في حبك الكذبة التي أعدتها آلاف المرات أمام المرآة حتى إقتنعتُ بأنها حقيقية، وذهبت لأمي وحدثتها عن المعرض الذي أريد إقامته، تعجبت لأني لم أطلعها على مخططاتي مسبقا لكنها استحسنت الفكرة وألحت القدوم معي لتساندنِي في أول خطوة أخطوها بفردي وقالت:" أخيرا نضجت وأحسست بالمسؤولية، أتمنى أن تجعلني فخورة يوما ما."
لكني رفضت أن تأتي معي أمي للمقابلة الوهمية، أردت أن أتحمل المسؤولية الوهمية وحدي وأن أقطع كل تلك المسافة وحدي وأقابل الناس كشخص راشد مسؤول. هذا ما قلته وتمثليتي كان مقنعا لحد جعلها تصدق ما قلته وتفرح بالقرار الذي اتخذته. لكن في باطني أعلم أني سأتواصل في تخييل أملها وتحطيم أحلامها، لأني لن أكون تلك الفتاة المثالية التي تراها في بنات أقاربنا وجيراننا.
شيء مؤسف ولكنه غير مهم.
المهم أن كذبتي الخبيثة قد انطلت عليها دون أي مشاكل وهذا ما زاد ارتياحي، فسأذهب لمنزل دانيال وأبيت عنده، عندها سأكذب مجددا واتصل لعائلتي وأقول لهم أني سأبيت عند صديقتي كم أنا داهية.
هكذا خططت رفقة دانيال الذي مل الانتظار ونفذ صبره.
سنتحدث لوقت طويل ونذهب لشرب القهوة وسنتفسح ونجوب كل الشوارع مع بعضنا.
أريد أن يرى كل العالم أن دانيال أفضل وأشهر رسام في كامل البلاد صار ملكي، لعبتي، وعبدي الجديد بشهرته وسمعته أصبح راكعا أمام جمالي وقوتي.

فصل جديد ومغامرة جديدة على وشك الوقوع وأسطر أخرى ستضاف في دفتر مغامرات حياتي.
فصل سيُعَبَّأُ بالشهوة والحب وخاصة الأكروتوموفيليا.
ياله من أمر مشوق...
توتر لم أشهد له مثيلا، كأنني أشهد لحظة تاريخية مهمة سأتوج فيها كملكة لقلب دانيال.
إستلقيت في حوض الإستحمام، كل ما أحتاجه الآن، هو بعض الهدوء والسكينة.
ماء دافئ ينهمر على جسدي وأنا أفكر في الحدث المهم الذي سيغير مسار حياتي.
تحممت لكي يبدو جسمي على أحسن وجه، يشع نقاهة وطهارة وإثارة. أريد أن أكون في أبهى حلة، أريد أن أسحر عقله وقلبه وجسمه.
خلدت لفراشي آملة أن أحظى بقسط من الراحة، رغم أن الساعة كانت متأخرة وكنت أتمنى أن أحظى بثلاث أو أربع ساعات من النوم.
لكن، ولسوء حظي، رفض الأرق أن يغادر غرفتي. حاولت طرده لكنه ظل مسيطرا علي رغم أنفي.
لن أنام في هذه الليلة المباركة مهما حاولت.
تقلبت وتقلبت، سمعت بعض الموسيقى لكن دون أي نفع، توتري يمنعني من النوم، وصورة حبيبي لا تفارق مخيلتي شغل كل تفكيري إلى أن نمت.
إستيقظت تحديدا بعد ساعتان، لم أحظى بنوم كاف لكن على الأقل لم تكن ليلتي بيضاء. بقيت في السرير إلى غاية السابعة صباحا، الغريب في الأمر أني لم أكن متوترة على الطلاق ونسيت كل ما قالته تلك العجوز الشمطاء عن الموعد.
إختفى ذلك التوتر الذي دمر اعصابي لأيام وأيام. لم يتملكني أي إحساس، لا بالقلق ولا بالحماس، كأنه أي يوم عادي في حياتي، حتى الرهاب الإجتماعي إختفى.
نهضت من السرير، تحممت لأستعيد نشاطي، غير أن روحي لم تكن مبالية لم أتحمس ولم أتوتر. أظن أنه هدوء ما قبل العاصفة، عاصفة من المشاعر المتكونة من الشهوة والحب.
الهدوء المتأتي من الخلاص.

ألقيت نظرة على هاتفي، لم أجد أي رسالة من دانيال. أظن أنه مازال نائما فغالبا ما يفيق على الساعة التاسعة وهذا أمر عادي إن لم أجد أي رسالة منه فالساعة ما زالت مبكرة.

لبست ملابسي، قررت أن لا ألبس الأسود لأنه لا يحبذه فدانيال يحب الألوان ويحب الألوان وكل الأشياء التي أمقتها. ومع ذلك سألبي رغباته في لقائنا الأول.

لبست سروالا أخضر غامقا يميل للسواد، داكن بما فيه الكفاية ليشعرني بالارتياح لكنه ليس أسودا، وقميصا أبيض، ثم غيرته، فالأبيض قبيح وغير مريح، يتوهج في الشمس ويجلب الإنتباه لشكلي الغريب أكثر من اللزوم، نزعت هذه الملابس ولبست الجينز مع قميص رمادي، لكنه لم يعجبني أيضا.

لبست ثوبا أسود من الجلد مثير ومريح، ولكن مهلا... قلت أني لن ألبس الأسود لم أعرف ماذا أختار.

يجب أن أكون أنيقة وعادية، عدت للسروال الأخضر الغامق ونسقت معه قميصا أسود قصير جعل بطني بارزا وهذا حقا مثير. إخترت الحذاء الأول، لمَّعت حذاءا رياضيا أسود أظنه أنسب إختيار. لكن الطقس حار لن أحتمل حذاءا رياضيا. ماذا عساي أختار؟ ماذا عن كعب عالي، إنه أنثوي وأنيق ويتلائم مع كل المناسبات والأزياء.

لكنه عالٍ ولن أتمكن من السير بأريحية خصيصا إن كنا سنجوب المدينة بأكملها سويا، لا أريد أن يفسد هذا الحذاء موعدي الذي رتبته أفضل ترتيب.

اذا الحل الوحيد هو أن ألبس صندلا أسود، لن يقلقني في المشي ولا في الحرارة. إنه الاختيار الملائم لهذه المقابلة.

وضعت مكياجا خفيفا، لم أرد الإكثار، اكتفيت بمكياج كلاسيكي يعكس الجزء المسالم والبريء من شخصيتي ووضعت كحلا فوق عيناي وأحمر شفاه قاتم.

تعطرت بأزكى العطور.

حزمت أمتعتي وكل ما أحتاجه، أوراقي، نقودي، كحلي وأحمر شفاهي عطوري، زيت للتدليك الذي سيكون مفاجأة السهرة ،والشموع الحمراء المعطرة، وشاحن الهاتف، نسيت أن أخبركم أني قد اشتريت هدية بسيطة لدانيال، هدية رمزية جدا، وهي عبارة عن دب يحمل قلبا أحمر، كنت قد غلفتها مسبقا ووضبتها مع بقية

أغراضي. وجدتها ظريفة جدا ومناسبة لموعدنا الأول وأنا مقتنعة بأن دانيال سيعجب بتلك الهدية.

أظن أني لم أنسى أي شيء. أنا على أتم الإستعداد، خرجت من المنزل وأنا أتلهف للقاء حبيبي.

أعلم كم أنتم متشوقون مثلي لهذا اللقاء وتريدون أن تعلموا ماذا سيحدث مع حبيبي. هل سيكون الجو حميميا وايروتيكيا مثلما خططت له؟

سنذهب للمقهى، وللمطعم و سآخذه لأماكنه المفضلة، أي مكان يشتهيه، سنتسوق، ونمرح ونطبخ مع بعضنا أكلته المفضلة وأسمع معه موسيقاه المفضلة ونتحدث عن مشاريعنا المستقبلية، ومخططاتنا الفنية، ونقضي ليلة غرامية لا مثيل لها على ضوء الشموع وعبير الورود والموسيقى الفرنسية الراقية والسيمفونيات الكلاسيكية، نسمع أعذب مقطوعات باخ وبيتهوفن.

سنتناول العشاء على ألحان إيديت بياف وشارل أزنافور.

جهزت كل شيء وحملت ما يروق لي من موسيقى، من دون شك سيحبها دانيال كثيرا، لا يوجد أحد بالدنيا يكره الموسيقى الكلاسيكية.

أخيرا وصلت لمحطة الحافلات، امتطيت حافلة وجلست في المقعد الأخير مجاورة للنافذة، بقيت ساعة فقط تفصلني عن حبيبي.

تحركت الحافلة أخيرا، وضعت سماعاتي وشغَّلت الموسيقى لعلها تخفف علي طول المسافة، كنت استمع للموسيقى الغربية الصاخبة وأفكر في المحادثات التي سأجريها مع دانيال فور وصولي، سنتحدث عن الفن، وحبنا المشترك للرسم، عن عائلاتنا، هواياتنا، ما يسعدنا وما يحزننا، عن حياتنا الجديدة التي سنبنيها معا حجرا بحجر، بقيت أتخيل إلى أن غفوت بالحافلة.

نعمت بقسط من الراحة على الأقل لم أحس بطول المسافة ومشقتها. فقد قطعت ما يعادل السبعين كيلومترا لأراه.

دقائق تفصلني عن شذوذي وشبقي وأحلامي التي ستتحقق بعد بضع دقائق وسأراه، وأقبله، وأشعله بنار الجنس والحب فقد ارتديت أجمل ملابسي الداخلية وأكثرها إثارة.

متى سأصل؟ فقد نفذ كل صبري.

يسعدني أن أقول أن مخططي سار كما أردت وأكثر، لا تتعبوا أنفسكم بالتسائل كيف، لاني بارعة في اصطياد الرجال.

نزلت من الحافلة أخيرا بعد أن أمضيت فيها ما يقارب الساعة والربع.
دخلت الكافتيريا الموجودة داخل المحطة وجلست هناك، اقتنيت قارورة مياه باردة وقهوة لأنه لم يكن بوسعي شرب قهوتي بالبيت.
الطقس في ذلك اليوم بالذات كان حارا ولا يوصف من شدة الحر، جو صيفي بإمتياز، الحرارة كانت أربعين درجة مئوية.
فأنا عادة لا أجرأ على الخروج في حر قاتل كهذا، لكن كل شيء يهون في سبيل دانيال.
أخرجت هاتفي من حقيبتي، ولكن عجبا... لم أتلقى أية رسالة من دانيال، أرسلت له إرسالية قصيرة أعلمه فيها بوصولي واصلت احتساء قهوتي.
بدأ التوتر يثقب معدتي ويُخرج كل أحشائي، فمن المفترض أن يكون دانيال قد إستيقظ وتعود على ترك رسالة فور استيقاظه.
لكن كل هذه الطقوس لم تحدث اليوم، فزاد بي التوتر أكثر وأكثر، فشربت قهوتي جرعة واحدة دون التمتع بمذاقها اللذيذ، ولا أثر لدانيال إلى الآن.
فمن المفترض أن يتصل بي لنحدد مكان لقاءنا، لكن لم أتلقى منه أي إتصال إلى حد الآن. أرسلت له رسالة أخرى أتساءل فيها أين هو لكن دون جدوى.
إتصلت به...
كان رقمه مشغولا، اذا هو مستيقظ ولا داعي للقلق، ربما كان مشغولا بمكالمة ما، لأنه يتلقى عديد المكالمات من زبائنه ومن أهله الذين يشغلهم بالاطمئنان عليه، بعدها سيتصل بي.
انتظرت لمدة عشر دقائق مرت الدقيقة منهم كأنها ساعة، بدأت أحس بقلق شديد، ولا يوجد أي أثر لدانيال إلى الآن.
اتصلتُ به ثانية خطه لم يكن مشغولا، هاتفه يرن لكنه لا يرد.
ما الذي يحصل معي أكاد أجن، أكاد أفقد أعصابي.

حاولت الإتصال مرة ثالثة ورابعة وعاشرة إلى أن أغلق هاتفه في وجهي.
ذهبت لأرى إن كان متوفرا على أي من مواقع التواصل الإجتماعي، لكنه كان قد سبقني وحضرني من كل المَواقع التي كنا نتراسل فيها، لم يترك لي أي وسيلة احادثه بها .
لم يعد بإمكاني مراسله على مواقع التواصل الإجتماعي، ورقمه صار مغلقا أيضا، عندها أفقت على وضعي وفهمت... نعم لقد كانت الصدمة الكبرى.
صدمة حياتي. لم أتعرض لموقف كهذا في كل السنوات التي عشتها. حدث لي إنهيار عصبي كردة فعل ولم أفهم ما حدث للتو ربما أحلم، ربما هو حلم يقظة.
لا إنه كابوس يقظة. كابوس حقيقي لن استفيق منه، لن أهرب منه. كل شيء حصل ولا مفر من الذي أنا عليه الآن. كيف تمكن من هذا؟
كيف تمكن من أن يتلاعب بأحاسيسي من دون أن ألاحظ ذلك؟.
مهلا...
لقد لاحظت كل شيء منذ البداية.
لقد لاحظت ذلك لكني لم أبالي بل اختلقت له أعذارا لم يطلبها.
كل تصرفاته المشكوك فيها وجدت لها أعذارا، لأني ظننت أنه شخص معوق يعاني من عقد نفسية واضطرابات عقلية تمنعه من حسن التصرف مع الإناث.
لم أكن من أولوياته، منذ البداية كل شيء كان غريبا واعتقدت أنه على ما يرام كانت هناك حلقة مفرغة وأشياء غير منطقية.
خرجت من الكافتيريا وعدت للمحطة، توجهت إلى المنطقة المخصصة بانتظار الحافلات، كان ذلك الجزء في المحطة مكتظا بالمسافرين، بالكاد وجدت كرسيا فارغا بين المسافرين المنتظرين للحافلات المتجهة للشمال وللشمال الغربي من البلاد.
جلست بين هؤلاء الناس الذين كانوا يحدقون بشعري الأسود والأحمر، لم أستغرب لأنهم كانوا أناسا عاديين وفهمهم بسيط، فمن العادي أن لا يتقبلون بينهم، ولكن هذه ليست مشكلتي الآن لدي ما هو أهم، فليس لدي أدنى فكرة عن ماذا سأفعل، كان التوتر باديا على محياي وعدت أحاول الإتصال بدانيال، حاولت مرات عديدة أخرى لكن النتيجة كانت نفسها.

لن يرد ولن يظهر... مثلما قالت المشعوذة التي لم أصدق كلامها.
لقد هزأ بي ذلك المختل عقليا، لانه شخص يسخر منه الناس، وبناءا على ما نشأ عليه من كره ومقت للناس تحول لشخص مهوس يسخر من الناس ويجعل منهم ضحاياه، وينتقم من كل إنسان يعترض طريقه، لعله يستعيد بعضا من كرامته التي سلبه إياها المجتمع.
لقد فعل كل هذا لأنه يحس بالإحتقار، لأن كل الناس يستهزؤون من عجزه وإعاقته.
لاحظت المرأة التي كانت تجلس بجانبي أني أتصل بشخص لا يريد الإجابة على مكالماتي، ولاحظت أني على درجة كبيرة من التوتر ولم تبعد أنظارها عني، وأخذ الجميع يحدق بي .
هل أعود للبيت، بعد أن قطعت كل هذه المسافة في الحَّرِ؟
لا أستطيع أن أعود للبيت بهذه السرعة وأنا منهارة إلى هذا الحد أنا في مأزق كبير.
ذهبت لدورة المياه الموجودة في المحطة.
هي أيضا كانت تعج بالمسافرين، لم أجد مكانا خاليا أواجه فيه ما حدث لي وأفرغ مشاعري المكبوتة التي أثقلت كاهلي.
كل ما أردت فعله هو إيجاد مكان خال والبكاء.
شاهدت وجهي في المرآة.
أخذت أتأمل بدون أن أقوم بأي حركة، والمرأة التي تشرف على دورة المياه تراقب تصرفاتي، هي أيضا أحست بأني لست على ما يرام وظلت تتعقب تصرفاتي كأنها جاسوسة.
كل الناس المحيطين بي يزيدونني توترا، لأنهم ينظرون إلي، كأنهم يضحكون علي.
كأنهم يقولون لي أني أستحق كل الذي حدث.
كلهم جواسيس أرسلهم دانيال للتأكد من نجاح خطته، أسمع ضحكاتهم التي تكاد أن تثقب طبلة أذني.
لا... هم لا يضحكون علي... ولا ينظرون لي.. أنا أتوَهم، لا أحد يعلم ما حل بي، كل شيء يدور في عقلي.
سأفقد صوابي من كثرة الهذيان، هل هم حقا يضحكون؟
أخبروني، سأفقد عقلي...

الناس عاديون، وكل شيء يسير على طبيعته لكن عقلي لا يتوقف عن الهذيان وأنا فقط أتوهم كل شيء، أنا أتوهم... أنا أتوهم.
هذا ما يجب أن أفهمه أنا أتوهم.
أتوهم الضحكات الساخرة، والنظرات الشامتة.
يجب أن أستجمع قوتي...أنه ليس الوقت المناسب للإنهيار.
لن أدع ذلك المعتوه الذي حذرتني منه المشعوذة مسبقا يفوز.
حبست نفسي في المرحاض لدقائق إلى أن أستجمع قوتي من جديد، أخذت نفسا عميقا، وإستوعبت ذلك الهدوء الذي سبق العاصفة الذي لم أجد له أي تفسير مسبق، كنت أقاد لمصيري المحتوم قدري الذي لم أتمكن من تغييره أو الهروب منه، تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، الآن فهمت هذه المقولة ومدى عمقها وصحتها، كنت أقاد للمشنقة التي ستسرق أنفاسي وحياتي التي قد بدأت للتو.
أحترق باللهيب الذي أوقد نار شروري.
بعدها إستوعبت أن دانيال يعاني من اضطرابات نفسية أخطر مما تصورت.
ياله من مسكين.
أثار شفقتي أكثر.
كم أتمنى له الشفاء العاجل من هذه الأمراض العقلية.
رأيت في دانيال الجانب الآخر الذي كان يخفيه ويحاول السيطرة عليه.
ليس ساديا، إنه المثال المناسب لشخص نرجسيّ، مختل المدار يحاول أن ينتقم من النساء لأنهم يرفضونه، لا يقبلونه بسبب إعاقته. فلا السارق، ولا أخطر رجال العصابات، ولا المنحرف، ولا المختل عقليا، ولا مدمن الجنس، ولا المجرم ولا أسوأ شخص في الدنيا كلها يقدم على فعلة كهذه التي فعلها بي دانيال.
حلَّلت ما وقع تحليلها نفسيا سريعا، دانيال يعرف أنه لا توجد امرأة ستقبل به زوجا لها، لا تقولوا أني أبالغ، لم أبني هذه النظريات من لا شيء، ليس تشاؤما، بل للأسف إنه الواقع الذي نعاينه كل يوم ونغمض أعيننا عليه لأننا نعلم أننا نقوم بالشيء الخطأ ونرفض أن نواجه ذلك الخطأ الذي ينعكس في الآخر الذي يمثل مرآة أخطائنا وأحكامنا المسابقة وجهلنا وعدم اقرارنا بالاختلاف.

الناس يرونه على أنه مسخ مثير للشفقة، هذا ما تعلمناه منذ صغرنا كلنا، وأنا أيضا نشأت على هذه التفاهات، فهي من أول القواعد التي نُربى عليها لنكون أبناء صالحين، عندما نرى شخصا مختلفا بالمعنى السلبي للكلمة أيا كان، سوى من ذوي الإحتياجات الخاصة، أو مشوها أو حتى أسمر البشرة أو سمينا أو نحيلا أو قصيرا، أو طويلا، أو يعاني من مرض ما ومهما كانت تشوهاته وعيوبه الجينية التي لا ذنب له فيها، أول شيء نقوله الحمد لله لأننا لسنا هكذا المخلوق، لأننا أفضل منه ولأنه مثير للشفقة ومسكين، لنحمد الله لأنه ميزنا عن هؤلاء الناس وخلقنا في أفضل تقويم عكس هذه المسوخ مختلة البنية.

كلام جارح مؤثر لكنه واقعي أتحدى أي شخص إن لم ينشأ على هذه التفاهات هو الآخر. تفاهات تقولها الوحوش "الناس العادية" لجعل الأشخاص المتخلفين يحسون بأنهم وحوش لا يمكنهم التعايش في بيئة اجتماعية ومكانهم الوحيد هو الظلام، أو السيرك حيث يشير لهم الجميع ويضحك ففي إحدى الحقب الزمنية كان يزج بالمختلفين جسديا في السيرك ليشاهدهم الجميع. ذلك هو قدرهم الوحيد .

فمن منا الوحش الآن؟

هذا ما جعلوه يؤمن به، فكرة رسخت في ذهن عزيزي دانيال وأمثالنا الذي كان عيبهم الوحيد أنهم ليسوا سويّين، دمروا نقاهة حبيبي دانيال وقتلوا فيه تلك البراءة التي رأيتها على وجهه أول مرة وجعلوه يصدق أنه لا يتمتع بالمعايير المتعارف عليها للزوج المثالي، تعرض لحكم قاس من قضاة المجتمع الغير عادلين لأن ذنبه الوحيد أنه مبتور، ومقعد، وعاجز عن القيام بأي شيء.

فمن يأبه إن كان أفضل رسام في هذه البلدة أو حتى في العالم كله، ومن يأبه بإسمه الذي يجده البعض غريبا وموهبته التي تخطت كل الحدود، من يأبه إن رسم مئات أو آلاف اللوحات فقط بقدميه، كل ما سيهتمونَ به ويجذب أنظارهم هي إعاقته.

أنا كنت مثالا شاذا، ربما لأن المجتمع عاملني بنفس القسوة التي عامل بها دانيال، كنت منبوذة من قِبل الجميع، كنت مكروهة ومثيرة للشفقة، الجميع يراني كشخص معتوه أبله لن يحقق أي نجاحات في حياته.

لكنه لم يروا حقيقتي وما كنت قادرة على القيام به، فقد أغراني دانيال لأننا كنا مع بعض عالقين في نفس المركب، بعيوبه وجدتها مثيرة للاهتمام، كل شيء فيه مثير،

مواهبه المتعددة، كلامه القليل... اشتهيت أطرافه المبتورة وجسمه الذي قالوا عنه أنه مشوه، أحببت كل ما كرهه دانيال في جسمه، وكل ما سخر منه المجتمع، أحببت أطرافه غير المكتملة التي ينقم عليها، لأنني بطبعي أحب البنايات المهدمة التي لها جماليات لا توصف، أحب أي شيء يكرهه الناس ويعكر مزاجهم، ويثير الخوف في أنفسهم.

لذلك أحببته من بين كل الفئات من الرجال ولكن لم يسبق لي أن تعرضت لمسخرة كهذه.

عملية تحيل ومسخرة قبلت أن ألعب فيها دورا بطوع أمري، رغم كل التحذيرات، وافقت على أن أتركه يحطم لي قلبي ويحرق أحلامي ويجعلها رمادا يذهب في مهب رياحه.

اليوم تحطم تمثال الآلهة الزجاجي الذي أمضيت سنين في نحته وتبعثرت قطعه في أرجاء المكان، عندها إكتشفت أن تمثال الآلهة الذي صنعته لنفسي لم يكن من الفولاذ بل كان من البورسلان.

انهرت ودمرْتُ كليا كانت مباغتة غير متوقعة غدرني ذلك الأبله المعتوه.

طعنني بعد أن منحته كل ثقتي.

غادرت دورة المياه، وقررت أن أكون أقوى من الموقف الذي وضعت فيه بإرادتي.

غامرت بكل شيء، ووضعت فرضيات لكل شيء إلا لهذا، حان وقت المواجهة.

قررت جمع قطع الزجاج المتناثرة من تمثالي الأسطوري الذي عبده كل الرجال.

وأعدت الصاقه بعد أن هشمه دانيال، صورتي ستبقى كما هي، التمثال صار مشوها وهشا، لكنه صار أجمل، كالقلعة الشاهقة الشامخة التي لا تزال صامدة أمام الحروب والعواصف و الكوارث الطبيعية.

شامخة كالأهرامات.

شامخة كسور الصين العظيم.

كمعابد وثنية بنيت وقاومت الحروب الصليبية والفتوحات الإسلامية بكل قوة وعزيمة وظلت شامخة أمام الدهر وحروبه.

للأسف كتب على جبيني أن لا أرى فرحة ذاك اللقاء.

ففي الظاهر أني لم أخسر شيئا، لكني مازلت أنحب شهوتي التي قادتني إلى حتفي، لست غاضبة من تصرفات صغيري داني الصبيانية .
لذلك علي أن لا أضعف، سأستمتع وأجعل هذا اليوم يومي.
سأحتفل لأني لا أقهر.
خرجت من المحطة وقررت أن أتجول في كل الأماكن التي أحبها رغم أن الطقس كان حارا والوقت يقارب الحادية عشر صباحا والشمس منصهرة في زرقة السماء تتناثر حممها على الأرض.
قررت أن أقطع الطريق سيرا على الأقدام لعل مزاجي يتحسن، وأخرج من وقع الصدمة وأكون جزءا من ذلك الاكتظاظ الذي يملأ كل المدينة.
حرارة لا تطاق، فُتحت أبواب جهنم على مصرعيها، رغم كل ذلك سرت فوق الجمرات المتناثرة من أبواب جهنم إلى أن وصلت للمكان المقصود بعد ساعة من المشي تحت شمس ساديَّة أكثر مني لم تغفر لي ذنوبي التي اقترفتها في حق نفسي.
تلك الشمس التي كنت في وقت من الأوقات لا أملك الجرأة للخروج ومقاومتها.
لكني فعلت وخرجت وواجهت الشمس وانتصرت عليها، وواجهت دانيال وواجهت قدري الملعون.
وصلت إلى إحدى المكتبات التي تعودت ارتيادها، بحثت عن كتاب لأوسكار وايلد[38]، كاتبي المفضل.
اقتنيت كتاب جريمة اللورد آرثر سافيل[39] كتاب آخر سأضيفه لمكتبتي.
أخذت الكتاب وتوجهت لأحد المقاهي، ذلك المقهى المفضل الذي اعتدت الجلوس فيه أيام دراستي بالجامعة.
دخلت المقهى، حياني صاحب المقهى بابتسامه التي يرحب بها بكل الزبائن، سألني كيف حالي، أجبت بأنني بخير مع إبتسامة كتمويه.
المكان كان مكتظا وصاخبا بموسيقى مختلفة الأنماط، ككل الأماكن التي زرتها اليوم، يوم السبت المكتظ الذي سيليه يوم الأحد الكئيب، كم أكره نهايات الأسبوع، وبداياته والأيام التي تتوسطه لأن كل الأيام حزينة ورتيبة كحياتي.

[38] أوسكار وايلد : كاتب مسرحي وروائي وشاعر أيرلندي اشتهر بمسرحياته الشعبية في ثمانينات القرن التاسع عشر.
[39] جريمة اللورد آرثر سافيل : قصة إثارة و غموض قصيرة للكاتب أوسكار وايلد.

لحسن حظي وجدت طاولة وحيدة يتيمة فارغة تتوسط المقهى، ربما لم يجلس فيها أحد لأنها كانت في المنتصف، محط أنظار الجميع، محط أنظار جالسين والمارة، والناس غالبا يرفضون الجلوس في موقع إستراتيجي خاصة إن كانوا بمفردهم لأنهم لا يريدون أن يصيروا موضع انتباه.

لكني لم أبالي، طالما كنت كذلك، طالما كنت الخروف الأسود في العائلة وفي أي مكان أذهب إليه.

طلبت قهوة، أخرجت الكتاب الذي اشتريته قبل بضع دقائق وعلبتي سجائر.

بدأت بقراءة الكتاب واحتساء القهوة والتدخين، حدقت بالأشخاص المتواجدين بالمقهى، فردا تلو الآخر لا يوجد شخص أعرفه ليجلس برفقتي.

اتصلت بأحد أصدقائي الذي يسكن في منطقة قريبة من هذا المقهى لعله يتواضع ويقابلني ويشاركني حمل أعبائي التي كانت حملا ثقيلا على كتيفيَّ، لكن هو ايضا كان مشغولا، أو ادعى بأنه مشغول، فكل الناس مشغولون، ولا أحد فيهم يملك دقيقة يحدثني فيها، لا أحد ليواسي أحزاني.

كنت أرتعش، الصدمة لا تزال قوية والجرح لم يتوقف عن النزيف. شعرت بوحدة لم يسبق لها مثيل... ما أسوأ الوحدة.

العالم كله خانني

عقلي خانني.

حدسي خانني.

شهواتي خانتني لأول مرة في حياتي.

كل شرور الكون تحالفات ضدي.

كل شياطين الموجودة في جهنم وفي السماء، فوق الأرض وتحتها تحالفت مع دانيال للاطاحة بي وتحطيم قلبي وثقتي النفسية التي لا تقهر.

لحظة ضعف وستزول... وسأنتقم.

إنغمست في قراءة الكتاب لكنه لم يفلح في التهدئة من روعي، لم أرد أن أرفع رأسي من الكتاب لكي لا يلاحظ الناس أني متوترة فاقدة لأعصابي.

أقرأ وأشرب القهوة وأدخن السجائر الواحدة تلو الأخرى، وفقدت الاتصال بالعالم الذي من حولي، لم أعد أسمع الموسيقى المملة ولا ضحكات الجالسين في المقهى ولا حديثهم الصاخب أصبحت وحدي في المقهى .... كل شيء اندثر.

فقدت القدرة على القراءة.

ذهني تشوش أكثر، كل ما أراه هو كلمات إنڤليزية مبعثرة تكون جملا لا أفهمها، تمعنت في الكلمات لكن عقلي لم يتمكن من التركيز.

كأنني شخص أميٌّ لم يقرأ حرفا واحدا في حياته باللغة الإنڤليزية، محيت تماما من ذهني، كنت أحاول ربط الحروف مع بعضها لتكوين كلمة وقراءتها، لكن لم أفلح، فقدت السيطرة على عقلي، كنت أدخن وأدخن وأدخن... أحاول قراءة كلمات أراها لكن أصابتني نوبة دايسليكسيا[40].

وفجأة قطع علي النادل لحظة الذهان تلك وقام بتغيير مطفأة السجائر.

لقد امتلأت بالسجائر وأنا لم ألحظ، ناولني واحدة أخرى فارغة دون أن يقول أي كلمة، أذا هو يراقب تصرفاتي ولاحظ توتري، لماذا كل العالم منشغل بمراقبتي هل أنا مثيرة للشفقة لهذا الحد.

أشعلت سيجارة أخرى وعدت للكتاب، أحاول القراءة، أقلب الصفحات واحدة تلو الأخرى وأتمعن بها وأوهم من حولي بأني حقا منغمسة في القراءة.

إلى أن انتهيت من قراءة الكتاب الذي لا أعرف عن ماذا يتحدث إلى يومنا هذا.

تصفحت كل صفحاته وكل الكلمات وكل الجمل التي قرأتها أو على الأرجح حاولت قراءتها رفضت أن ترسخ بمخيلتي.

فجأة إتصلت بي أمي، سألتني إن سارت الأمور على ما يرام، أجبتها انه لم يتم قبولي بالمعرض أشعر كأني منكسرة.

لم يكن لدي حل، لقد واصلت الكذبة المختلفة.

أمي مسكينة لأنها تصدقني، وأنا مسكينة لأني ظننت أني خبيثة.

طلبت مني أمي أن لا أتأخر وأعود للمنزل لتناول الغداء هناك لأنها قلقة بشأني، فوافقت. خبأت كتابي، وعلبتي سجائري وقارورة المياه في حقيبتي وغادرت المقهى.

[40] الدايسليكسيا : المعروف أيضًا باسم اضطراب القراءة، تتميز بصعوبة في القراءة على الرغم من الذكاء الطبيعي.

توجهت لمكتبة أخرى واشتريت بعض الكتب التي ستواسيني في محنتي في الأيام القادمة. كتاب يتحدث عن العلاقات الجنسية من المنظور السيكولوجي، كتاب تحليلي لرواية الأيام لطه حسين،[41] كتاب آخر يروي السيرة الذاتية للمناضل الحبيب ثامر[42]، وأخيرا وليس آخرا كتاب بعنوان مذكرات شارلوك هولمز[43] .
بعدها ذهبت للتسوق، واشتريت بعض الملابس، كما تعرفون فالتسوق يريح البال.
عاملتُ نفسي كالملكة .
ثم أعدت قطع تلك المسافة الطويلة في اتجاه المحطة سيرا على الأقدام.
الطقس مازال جهنمياً، والحرارة في ارتفاع متواصل. كأنني جثة في فرن كبير يتم حرقها أو ساحرة في مدينة سايلم[44] تحرق على وتد خشبي بسبب شعوذتها وذنوبها.
الحرارة تذكرني بيوم الحشر. وها أنا أدفع ثمن خطيئتي.
تعبت من السير... لم أعد قادرة على المتابعة، كيسوع يحمل صليبه الذي سيصلب عليه لأميال وأميال في حرارة قاتلة. سأقع على الأرض، لم أعد أقدر على الوقوف ومباشرة السير.
كل الناس تنظر إلي وكل الرجال يتغامزون علي بينما أتعذب.
هذه النظرات منعتني من الجلوس والإستراحة.
أموت عطشا تحت شمس طاغية مثل دانيال.
أريد التوقف وشرب بعض الماء لكني لا أقدر.
أمتار قليلة تفصلني على المحطة والساعة تشير إلى الثالثة والربع والطقس يتوهج وروحي تحترق.
وصلت للمحطة بعد طول عذاب، أخيرا، لا أكاد أصدق أني ركبت الحافلة وجلست في المقعد الخلفي، أخرجت قارورة المياه من حقيبتي وشربت إلى أن رُويَت روحي.
اتصلت بأمي وأعلمتها أني قادمة.
وضعت السماعات في أذني وشغلت الموسيقى الغربية الصاخبة أغمضت عيناي ودخلت في نوم عميق.

---

[41] طه حسين : كاتب مصري اشتهر بكتابه الذي يمثل سيرته الذاتية بعنوان الأيام الذي شكل منعرجا في أدب السيرة الذاتية.
[42] الحبيب ثامر : وطنيٌ و سياسي و طبيب تونسي توفي في حادث طائرة.
[43] شارلوك هولمز : شخصية خيالية لمحقق من أواخر القرن التاسع عشر ابتكرها الكاتب والطبيب الإسكتلندي سير آرثر كونان دويل.
[44] سايلم : مدينة أمريكية قامت فيها أكبر المحاكمات الساحرات عبر التاريخ سنة 1692 و أحرق عدد كبير من النساء بتهمة السحر.

قلة نوم مصحوبة بخيانة وحرارة وسير لساعات كل هذا يحدث في آن واحد، لكني لم أستسلم، لم أبكي ولم أنهار كما خطط دانيال.
إستيقظت بعد ساعة وقد عدت لمدينتي، ساقاي تؤلمانني، لكن علي أن أواصل السير لما يقارب العشر الدقائق لأكون في البيت، وهذا ليس بالأمر الصعب.
أنا الآن في المنزل، بعد يوم عسير.
يوم تعيس.
أسوأ يوم في حياتي... يوم تمنيت أن تنشق فيه الأرض وتلتهمني، خيرت الموت على أن يضحك علي دانيال بهذه الطريقة.
أما الآن فعليَّ أن أترك كل ما حدث من تراجيديا ومآسي وأعود الكذبة التي اختلقتها لأفراد عائلتي.
حالتي النفسية كانت منهارة لدرجة لا توصف، أبذل قصار جهدي لكي لا أذرف دموعي، سيناريو الوهم الذي عشته لسنوات مع دانيال لم يفارق خيالي.
قضيت سنين من عمري أبحث عنه من دون كل الرجال، إلى أن وجدته، ويا ليتني لم ألقاه.
أعوام و أشهر من البحث مضت كأنها قرون.
علاقة بدأت بالوهم، لتنتهي كما بدأت.
حتى الصورة الوهمية الجميلة التي عاشت في مخيلتي لسنوات، تمزقت.
عشت في الوهم، حلقت فيه، وأرسيت على ضفاف بحيرته، سبحت فيه إلى أن غرقت في عينَيْ دانيال وموجه الذي كان مثواي الأخير.
طلبت أمي أن أطلعها عن كل تفاصيل المقابلة، كيف رُفِضتُ إنه أمر لا يصدق؟
وأسئلة أخرى، عن إجتماع كاذب اخترعته لا أساس له من الصحة.
واضطررت للإجابة على عشرات الأسئلة وواصلت التمثيلية رغم أني لم أكن في مزاج جيد للكذب وللحديث عن أي شيء.
كنت أتضور جوعا، تناولت الغداء واستلقيت في فراشي حتى نمت.
لم أكن أقدر على الحراك، جسمي منهار وحالتي النفسية منهارة أكثر.
لكني تمكنت من النوم، لم يعد هناك شيء يوترني ويطرد النوم من عيني، دانيال قد رحل وأنا افقت من الكابوس الذي كنت أعيشه، لا داعي للقلق بعد الآن.

أخيرا سأنعم بنوم عميق.

***

الجزء ثاني :

حب سريالي

بعد ساعات... استيقظت قرابة الرابعة صباحا.
شربت قهوتي وملأت حوض الإستحمام بالماء الساخن واستلقيت فيه..
كل ما خطر ببالي في تلك اللحظة هو كلام المشعوذة، ليتني صدقتها، فقد كانت تنوي مساعدتي.
مازلت تحت تأثير الواقعة الاليمة، لا أريد أن أتذكر المصيبة التي حلت بي، تمنيت لو أعرف سبب فعلته تلك، مالذي غيره، ما الذي جعله يقدم على القيام بأمر تافه كهذا.
كان يسخر مني منذ البداية. كان أدهى مني وأخبث مني.
تمنيت لو أبكي، سأشعر بتحسن كبير عندما أبكي. سأرتاح، لكني لم أتمكن من البكاء رغم محاولاتي فقوة الصدمة منعتني من البكاء.
لم أتجرأ أن أخرج كلمة واحدة على ما حل بي، لكني كنت في حاجة للحديث عنه.
غير أني لم أجرأ، لا أحد سيستمع لي.
عائلتي ستسخر مني ومن إختياري الفاشل شكلا ومضمونا. لذلك من الأفضل أن ألزم الصمت، فمن الذي سيستمع لترهاتي وتفاهاتي، فالجواب سيكون كالآتي :
تستحقين هذا بسبب مكرك ودهائك، تستحقين هذا بسبب خبثك، لقد ضحك عليك ذلك المعتوه.
كذب علي مثلما كذبت على الجميع، كم أستحق كل اللوم والذم والتوبيخ الذي لم أرغب بسماعه رغم أني أعلم أني أستحقه.
لقد نلت جزائي الذي أستحقه.
تمنيت أن أجد شخصا يستمع إلي دون طرادات التوبيخ التي لا تطاق.
أدخلت رأسي تحت الماء وحبست أنفاسي.

في تلك اللحظة تذكرت ما قاله لي ذلك الرجل السيد محمد الذي زرته في المستشفى عندما بدأت أتعمق في مفهوم الأكروتوموفيليا، تذكرت فعلته عندما هرب عن خطيبته الألمانية، وها قد أحسست بنفس اللوعة التي ذاقتها تلك المسكينة التي كان ذنبها الوحيد أنها أحبت شخصا أقنعه المجتمع أنه ليس مؤهلا للحب.

أخرجت رأسي من تحت الماء والتقطت أنفاسي، ثم قلت لنفسي:" السيد محمد... حتما ذلك العجوز سوف يسمعني ولن يبخل علي بالنصيحة خصيصا أنه مر بنفس التجربة .

خرجت من حوض الاستحمام، جففت شعري وفتحت درج المكتب أين وجدت الورقة التي كتبت فيها عنوان السيد محمد ولحسن حظي أني لم أرمي بتلك الورقة في سلة المهملات .

استلقيت على السرير عارية تماما وانتظرت طلوع النهار لأقابله فالأمر لم يعد يحتمل، أشعر برغبة شديدة في التحدث والتنفيس عن غضبي.

غفوت لساعات اضافية ثم استيقظت ثانية لبست ملابسي السوداء كالعادة وخرجت من المنزل متوجهة إلى محل بيع المرطبات اشتريت بعض قطع البراونيز وشطائر اللحم المدخن، ثم أوقفت سيارة أجرة وتوجهت للعنوان المقصود عمارة "الأنس"، هذا هو اسم العمارة.

الطريق مزدحمة فهذا هو الحال دائما في وسط المدينة حيث تعالت العمارات لتصل للسحاب وتلوث الهواء بدخان السيارات التي لا تنقطع حركتها أبدا.

وصلت إلى المكان المقصود دون أي عناء يذكر، دخلت عمارة الأنس هذه التي كانت فخمة وجميلة، حقا لم أتوقع أن يقيم السيد محمد في مكان كهذا، صعدت في المصعد وصولا إلى الطابق الرابع مشيت في الرواق إلى أن وقفت أمام الشقة الثامنة والعشرين.

قرعت الجرس ففتحت لي امرأة تبدو كأنها المعينة المنزلية قدمت لها نفسي فأدخلتني.

فرح السيد محمد لرؤيتي مجددا وأشار إلى أنه كان ينتظر هذا اليوم بفارغ الصبر، رغم أن المدة قد طالت، وفرح بقطع البراونيز والشطائر مشيرا إلى أنها نوعه المفضل.

جلسنا في غرفة الجلوس التي كان أثاثها عصريا وفخما أبيض اللون كجدران الغرفة التي توسطها تلفاز عصري كبير من آخر صيحة، ولكن لم يكن هناك الكثير من الأثاث فقط أريكتان باللون الأبيض وطاولة، وُضعوا أمام النافذة الزجاجي الكبيرة التي أطلت على المدينة بأكملها.

كان مشهدا جميلا وكنت قد انسجمت معه ومع ضجيج المدينة وازدحامها في وقت الذروة أو في الأوقات العادية، وفوق النافذة علقت نباتات زينة داخلية تدلت أوراقها كالستائر على النافذة وانسجم لونها الأخضر مع البياض المسيطر على الغرفة بأكملها.

شقة مترفة تدل على البذخ وتوحي أيضا بأن صاحبها من محبي الحركة التقليلية[45] التي كانت تقتصر على مساحة فارغة لا تعكر نظر الجالس بكثرة الأثاث.

رحب بي السيد محمد الذي كان يجلس على الأريكة الأخرى قبالتي وكان كرسيه المتحرك موضوعا إلى جانبه محاذيا للأريكة التي كان يجلس عليها.

وقال مبتسما:" كنت أعلم أننا سنلتقي مجددا، حتى وإن مرّ أكثر من سنة على لقائنا الأول، كنت على يقين من ذلك، فحدسي لا يخطأ أبدا."

فقلت بنبرة ماكرة:" تكهن في محله، لا تقل لي أنك مشعوذ أيضا. "

فقال ضاحكا:"ليس تكهنا، وأنا لست بمشعوذ، إنه حدس رجل خمسيني، تجارب الحياة جعلت حدسي لا يخطئ أبدا، ذلك ما جعلني أُحسن التكهن أكثر من أي مشعوذ."

فأضفت:" صراحة خلت أنك لن تتذكرني. "

فأجاب بطريقة لم أستطع أن أميّز إن كانت إطراءًا أم استهزاءًا:" أمثالك لا يُنسون."

أحضرت لي المعينة المنزلية كوبا من القهوة بينما قرر السيد محمد احتساء بعض الشاي الأخضر مع قطعة واحدة من السكر، ترددت قليلا في مفاتحته بالموضوع، لكنه لاحظ ذلك وقال:" ما الخطب؟ هل هناك أمر ما ؟"

فقلت بتردد بينما كنت أَشبك يديَّ في بعضها:" نعم ... أقصد لا ... في الواقع أقصد نعم، لا أعرف كيف أبدأ..."

[45] الحركة التقليلية : هي حركة فنية ازدهرت في الستينات خرجت من تحت المدرسة التجريدية وتتميز بتقديم الأعمال الفنية بأقل عدد من العناصر والألوان.

ملامحه كانت هادئة تبعث على الطمأنينة، وضع يده الضخمة على يدي قصد أن أتوقف عن القيام بتلك الحركة التي تصيب أي شخص جالس بجانبي بعدوى التوتر وقال:" لا بأس أطلعيني عن الأمر، فأنا متفهم."

رغم أن توتري قد زاد إلا أنه لم يكن بيدي حيلة غير الإفصاح عن ما بداخلي والتوبة من ألاعيبي وأكاذيبي فقلت متلعثمة:" أرجو أن تتفهمني حقا، وأن لا تكرهني بسبب ما سأقوله الآن، في البداية... لم أكن أعلم أن الكذب سيء لهذا الحد فقد كنت طائشة غير مبالية بمشاعر من حولي، لذلك أود أن أخبرك بالحقيقة فقد كذبت عليك في أول مرة تقابلنا فيها أنا لست صحفية، أنا إنسان فاشل، شخص مريض مختل عقليا، سبب قدومي للمستشفى في ذلك اليوم ومحادثتك أنت بالذات هو أني كنت بصدد إجراء بعض الدراسات عن موضوع الإعاقة لكي أفهم..."

ربت على يدي بلطف وقال مقاطعا للكلمات لي تكبدت جهدا كبيرا لأفصح بها:" لا تقلقي كنت أعرف ذلك منذ البداية ."

اندهشت مما سمعته للتو وقلت:" حقا ؟ كيف ذلك؟"

ضحك وقال:" سبق أن قلت لك أن حلمي كان أن أعمل كمعلق رياضي، لكن لم أوفق في ذلك، فاكتفيت بالعمل في إحدى الجرائد كمحرر للصفحات الرياضية قبل أن تزداد حالتي سوءا، بالإضافة إلى أني واكبت عديد الأعمال الصحفية المختلفة ولدي خبرة لا بأس بها في هذا المجال، لذلك كان من السهل علي أن أكشف الأمر لكن أتعلمين، لقد استمتعت بالحديث معك في ذلك اليوم رغم أن عديد الأسئلة راودتني آنذاك، وهذا ما جعلني على يقين من أني سأراك مجددا، عرفت أنك لست صحفية من خلال طريقة حديثك التي لم تكن أكاديمية، ومن أسئلتك التي لم تكن متناسقة أو مدروسة وعديد الحركات الأخرى، كلغة جسدك التي أوحت لي بالكثير."

فقلت:" واو هذا عظيم ... أنا حقا آسفة أتمنى أن تقبل اعتذاري، كم أبدو شخصا سخيفا بتصرفاتي البلهاء هذه."

نظر إلي بعينيه اللتين لم تعودا شاحبتين أو محوقتين، على الأرجح أن حالته الصحية قد تحسنت على المرة الأولى التي رأيته فيها، حتى شعره كان مسرحا إلى الخلف، ملابسه أيضا تدل على أنه شخص يتمتع بمكانة مرموقة في المجتمع والعمارة التي

يقطن فيها والأثاث الموجود في الشقة، أيقنت أنه رجل ذكي لا تنطلي عليه حيلي السخيفة التي تجعلني أبدو كالمهرج، يمكنني القول أنه لم يعد مكتئبا كالسابق.
احتسى شايه في صمت وتناول بعض البراونيز وقال:" أرجوك لا تعتذري، أولا أقدر صراحتك، خطوة جريئة في رصيدك، وأقدر اعتذارك هذا وها قد قبلته وأيضا كما أقدر قطع البراونيز التي أحضرتها إنها لذيذة، ذوق رفيع في المأكولات أيضا، وتعرفين أن أسرع طريق للرجل هي معدته."
ثم ضحك وواصل كلامه:" تصرفاتك هذه تذكرني بنفسي عندما كنت في سنك، كنت أخرقا بعض الشيء، كلنا نرتكب حماقات كهذه يا عزيزتي لكن المهم أنك قررت القدوم والاعتذار حتى وإن طالت المدة... شيء لم أتجرأ على القيام به في شبابي... على أية حال، لماذا ادعيت أنك صحفية اذا وما سبب تلك الدراسات التي تقومين بها، لا أظن أنك طبيبة نفسية أيضا."
ثم أضاف ساخرا:" لا تقولي لي أنك جاسوسة ... مهلا مهلا، ربما تعانين من اضطراب تعدد الشخصيات."
وغرق في ضحكاته الهستيرية، ثم فتح علبة خشبية ضخمة تبدو باهظة الثمن، كانت موضوعة على الأريكة بجانبه، أخرج منها سيجارا كوبيا غليظا وأخذ يدخنه بينما واصل الضحك إلى أن ضحكتُ أيضا إلى درجة أن معدتي آلمتني فقال:" واخيرا ضحكتي."
بعدها عاد إلى احتساء شايه في هدوء.
بعد انتهائي من قطعة البراونيز أخذت قضمة من الشطيرة وقلت:" في الواقع يبدو الأمر غريبا وشائكا لكن حبيبي هو السبب الذي جعلني أتصرف هكذا...هو رسام، لكن من ذوي الاحتياجات الخاصة يعاني من إعاقة على مستوى اليدين ويتصرف بغرابة لا تطاق وليس لها تفسير، سأروي لك القصة من البداية، أقصد أنه حدث معي شيء غريب عندها أدركت أني أعاني من متلازمة أو من اضطراب يجعلني أحبذ الأشخاص ذوي الإحتياجات الخاصة، لم أتجرأ على أن أتحدث عن هذا الموضوع مع أي شخص، أعلم أنه أمر عادي عندما يعجب شخص سويٍّ بشخص غير سوي لكن يصبح الأمر غير عادي عندما يصير هوسا أو جنونا يسيطر على أفكارك كل الوقت، فأمور كهذه غير مقبولة في مجتمعنا ولا نعترف بوجودها البتة

لذلك قررت أن أعرف كل شيء عن هذا الاضطراب بمفردي ولم أجد شخصا لأسأله وبالصدفة عثرت عليك يومها في المستشفى."
قاطعني ضاحكا :" صدفة خير من ألف ميعاد، ها قد صرنا أصدقاء."
تجاهلته وواصلت حديثي :" بعدها تعرفت على دانيال ."
فقاطعني مجددا :" آه، إذا كنت تعانين من اضطراب ... هذا مثير، أتمنى أنك سعيدة الآن مع هذا ... ماذا قلت اسمه؟"
فأجبته :" دانيال ."
فأضاف :" دانيال ... اسم غريب ."
فواصلت حديثي :" لا، أنا لست سعيدة معه وهذا ما يحزنني، فقد ظننت أنه الشخص المناسب لكني كنت مخطئة، أتعلم لماذا ؟... لأنه فعل بي ما فعلته بحبيبتك السابقة."
ثم فتحت حقيبتي وأخرجت علبة السجائر خاصتي وأخرجت سيجارة نحيلة طويلة سوداء لأشعلها فاستوقفني السيد محمد قائلا :" آنستي الجميلة ... هل تسمحين ."
وأشعل لي سيجَارتي ثم واصلنا الحديث حيث قال السيد محمد في استغراب :" ماذا تقصدين ؟ هل وعدك بالزواج ثم اختفى ؟"
في تلك اللحظة شعرت بألم يقبض من قلبي ويعصره لينزف كل ما فيه من دماء وأحسست بالقهر الذي عجزت الكلمات عن التعبير عنه وعدت بالذكريات إلى حادثة لم يمضي عليها سوى يوم واحد و قلت في ألم :" ظننت أنه يحبني لأنه قال أنه يحبني , يومها اتفقنا على أن نتقابل للمرة الأولى وبعد أن تكبدت عناء السفر من أجل رؤيته وادخار المال من أجل ذلك الموعد الذي لم يأتي إليه، تركني أنتظر لساعات، حاولت الاتصال به مئات المرات لكنه اختفى من حياتي فجأة مثلما ظهر فيها فجأة، هجرني دون أي مبرر، دون أن يواجهني بأي كلمة، دون أن يلومني أو يودعني."
شعرت برغبة في البكاء لكن لم يكن من اللائق أن أبكي أمام شخص بالكاد أعرفه لا أريد أن أكون ضعيفة مثيرة للشفقة وتابعت حديثي بعد أخذي لنفس عميق :" أحببته وأحببت كل لوحاته، كنت فخورة به، فخرا أعجز عن وصفه، كان بمثابة كل الدنيا بالنسبة لي، أكثر شيء أردت امتلاكه في حياتي."

طأطأ محمد رأسه وقال في خجل :" نعم فعلتي التي لا زلت نادما عليها... يال عزيزتي المسكينة، أستطيع أن أرى مدى حبك له و فخرك به، حتى وإن لم تَجدي الكلمات المناسبة، فبريق عينيك يعكس الأمر ويختزل كل الكلمات، أنت لا تستحقين مثل هذه المعاملة، انه لا يعرف قيمتك، إنه مجرد معتوه لا تبكي من أجله... اسمعي أعلم أني اقترفت مثل هذا الخطأ منذ سنوات وأنا نادم على ذلك... نادم ولا أستطيع أن أفعل أي شيء لأخفف من شناعة ما اقترفت في حق حبيبتي السابقة أو لأصلح خطئي، في الحقيقة أنا أحسد هذا الرجل على حبك له ليت الزمن يعود بي للوراء ويحذف فارق السن الذي بيننا وأطلب يدك للزواج، لن أعاملك مثل هذا المغفل ."
تجاهلت جملته الأخيرة التي تعود كل رجال الكون قولها لأي امرأة تعترضهم وحسبت أني لم أسمعها لأن هذا ماكان ينقصني في النهاية رجل خمسيني لأرعاه، ثم أردفت قائلة :" المغفل الوحيد في الرواية كلها هو أنا، شعرت باكتئاب حاد بعد تلك الحادثة التي لم أتجرأ على أن أتحدث عنها لأي شخص كان، لكني كنت أعلم أنك ستسمعني وستتفهمني."
فسألني السيد محمد في حيرة من أمره :" لكن لا أعرف كيف يمكنني أن أساعدك ؟"
فأجبته :" في الواقع أردت شخصا يصغي لمشاكلي ليس إلا، لا أبحث عن المساعدة، فبعض المشاكل لا تحل بل تنسى مع الوقت."
وأضفت بنبرة محبطة :" لماذا فعل بي ذلك، هل تتوقع أن يعود، هل تظنه سيعتذر؟"
فقال :" لا أعرف لماذا فعل ذلك ولكن من تجربتي يمكنني القول أنه ربما لم يكن مستعدا للقائك، ربما الأمر كان صعبا عليه، لكني متأكد من أنه نادم، ومتأكد من أنه سيعتذر منك ويلتمس مئات الأعذار... إن حدث ذلك فأرجوك امنحيه فرصة ثانية امنحيه الفرصة التي حرمتني منها اليزابيث، لن تخسري شيئا فكل البشر يستحقون فرصة ثانية وإن لم يكن في مستوى توقعاتك، انسيه، اطوي الصفحة ومري لما هو أهم، ولا تبكي من أجله فالأمر لا يستحق."
شعرت براحة نفسية كبيرة عندما نفَّست عن تلك الخواطر التي كانت تدور في ذهني وحاول السيد محمد في ذلك اليوم بذل قصار جهده في مواساتي واضحاكي بروح دعابته الخفيفة تلك مما جعلني لا أندم على زيارته على الأقل وجدت من يشاركني أفكاري ويخرجني من حالة الإحباط التي كنت فيها.

وعند مغادرتي ألقى على بكلمات السحرية قبل أن يودعني قائلا :" أنا متأكد من أننا سنلتقي مجددا آنستي الجميلة."
ثم ودعته.
بعدها عدت إلى المنزل عازمة العودة لحياتي العادية رغم أني لم أكن على ما يرام ، لكني تظاهرت بأني في حالة نفسية جيدة لأبدو قوية كالعادة أمام عائلتي.
فأنا بارعة في تزييف مشاعري وحياكة الأكاذيب.
ً لن يلحظ أي فرد من العائلة أني أخفي شيئا وراء قناع البهجة الذي أرتديه .
وعَادت حياتي لروتينها و سابق عهدها، روتين انسحب منه دانيال
في اليوم الموالي، قررت أن أشتري أدوات ارسم جديدة والألوان التي نفذت مني، بعدها توجهت لإحدى المقاهي المطلة على الشاطئ أين اعتدت الجلوس في أوقات فراغي وبدأت بالرسم مستمتعة بهدوء وجمال المكان لا توجد أي ألحان تعكر هذه اللحظة سوى صوت الأمواج وضحكات الناس، استنشقت نسمات البحر الصيفية التي خففت من حر الطقس السادي المستبد، انغمست في الرسم ومداعبة الألوان المائية التي قدمت أفضل ما عندها في محاكاة المشهد الذي أمامي، زرقة لا متناهية يقطعها الأفق الفاصل بين البحر والسماء، منارة مهجورة كستها الطحالب...
متداعية للسقوط لكنها رافضة للاستسلام وظلت واقفة فوق كل الكثبان الصخرية تحرس المدخل البحري دون أي كلل أو ملل، صامدة أمام كل تلك الأمواج الغاضبة التي تضرب وتزأر في وجهها بكل قوة.
الأمواج تتسابق لتقبيل الرمل والناس مستمتعون بالسباحة وصناعة أحلى الذكريات، جو مسالم يبعث الراحة في أي شخص اختار البحر كوجهة لنسيان همومه وضغوطات الحياة. فالبعض يذهب للبحر ليقضي وقتا ممتعا والبعض الآخر، أي القِلّة الأقلاء مثلي يذهبون للبحر ليَذوبوا كالزبد بين أمواجه، كالأصداف تحت رماله، لينسوا وجودهم في هذا العالم البائس ليستمتعوا لا بشيء غير الهدوء والزرقة التي تدل على الحزن، على الكئابة، فالأزرق لون كئيب أكثر من اللون الأسود، لأن الأزرق له روح شفافة، لكنها ملموسة يلمسها الشعراء بقصائدهم

والرسامون بريشاتهم والموسيقيونَ بمقطوعاتهم، لذلك نحب التأمل في السماء وفي البحر ويريحنا كل شيء أزرق لأنه يخرج كل الأسى والكئابة التي فينا ويفجر كل طاقتنا الإبداعية.

رغم أني لم أكن من محبي اللوحات الطبيعية مثلما ذكرت في البداية، لكن البحر لديه العديد من الدلالات ويحيل على الكثير من الأشياء والذكريات أولها دانيال، (ليته كان معي في هذه اللحظة لَأحب هذا المكان)، دانيال الهادئ البريء كالبحر، زرقة عينيه تحاكي زرقة المياه التي أتأملها وأرسمها الآن... تقلباتُه كالبحر أيضا، حتى وإن كان هادئا، لا تعلم ماذا يهيأ خلف كل ذلك الهدوء، غدار كهذه الأمواج التي التهمت ملايين الجثث وأغرقت كما لا يحصى من السفن، وللأسف لقد كنت واحدة من هؤلاء الضحايا المنسيين بين طيات أمواج بحر هائج جبّار، هادئ مخادع.

كل ما في هذا المشهد ذكرني بدانيال...

قضيت يوما ممتعا نسيت فيه همومي، فقد عزمت على أن أتجاوز ما حدث وأعود لحياتي الطبيعية قبل أن أعرف دانيال، وقبل أن أعرف الأكروتوموفيليا التي سلبت عقلي.

ثم قضيت الأيام الموالية في المرح واللهو : أزور المقاهي وأجلس وحدي مظاهرة بقراءة الكتب أو التحديق بهاتفي الذي لن يراسلني عليه أي أحد، وآكل كل الأطعمة التي أشتهيها وأخرج كل مساء لأتأمل جمال الطبيعة بمفردي لأنه ليس لدي أصدقاء.

يوم تلو الآخر على هذا المنوال وأخيرا نسيت ما مررت به. فالجرح لم يعد عميقا.

إلى أن نفذت مدخراتي المالية وعدت لوحدتي التي ألفتها وعزلتي بين جدران غرفتي.

حاولت أن أشغل نفسي بالرسم، حاولت أن أرسم يوميا، وأخصص ثلاثة ساعات على الأقل للرسم، لكني كنت كلما رسمت تذكرت دانيال وإبداعاته الفنية، كم أشتاق إليه ولمحادثاته التي أفرحتني في يوم ما.

رغم كل ما حدث.

مازلت أحبه كسابق عهدي وأكن له التقدير والمودة، لا أعلم لماذا لم أحقد عليه بعد ما حصل بيننا.

مازلت معجبته رقم واحد، مازلت أتحرى عن أخباره وأبحث عنه في كل مكان، مازلت أحلم بلقائه، كل الرجال لا يعنون لي شيئا منذ هذه اللحظة، والسادية والتعذيب قد مللت منهم، بعد جربت كل أنواع العنف التي يقبلها العقل والتي لا يقبلها، من المؤلم أن أتذكر دانيال كل ليلة وأنا أعرف حق المعرفة أنه لن يكون من نصيبي مهما حاولت.

شرفي كان في المحاولة، على الأقل استمتعت بوهم علاقتنا التي كانت حبا فاشلا من طرف واحد لا سبيل له في معانقة الحقيقة.

مر الأسبوع الأول من عزلتي التي لا مفر منها، حالتي كانت شبه كارثية، أشرب يوميا، في المساء، في الليل، في الظهيرة، حتى فور استيقاظي من النوم مباشرة حتى قبل فطور الصباح، في أي وقت أحس فيه أني على عتبة الإكتئاب أباشر بالشرب، هروبا من واقعي الأليم وشهواتي التي سأتواصل كبتها وحبسها في زنزانة لن يفتحها سوى دانيال.

كرهت الموسيقى التي كنت أسمعها طوال الوقت، وكل الناس، كرهت نفسي وعائلتي، والمجتمع والعالم بأسره وقررت أن لا أخرج من المنزل مهما كانت الظروف.

بقيت لمدة أسبوعين كاملين على تلك الحالة.

أسبوعين وأنا أعاني من كوابيس بطلها السيد دانيال، يطاردني حتى في نومي، أحلم أني أراه ولا أستطيع الوصول إليه، وأحلم بالحروب والكوارث التي يتسبب فيها دانيال، وبنهاية العالم وأراه يضحك علي لأفيق على وقع ضحكاته الفاجرة وأنا في حالة ذعر أتصبب عرقا قلبي يضرب بأقصى قوته، كابوس مبهم يتكرر كل ليلة ويجعلني أتعذب .

أرسم وآكل وأقرأ الكتب وأشرب الخمر ليلا نهارا، لا أغادر البيت، نسيت رائحة الهواء المنعشة في أول ساعات الصباح، نسيت السماء الزرقاء وسُحبها ونجومها وقمرها، نسيت وجوه الجيران والأقارب، نسيت الشمس التي تحقد علي دون أي سبب مقنع، نسيت كيف أمشي وكيف أتحدث مع الناس. ودعت الحرية الملموسة ورحبت بحُرية الفكر والتصوف، الحرية المنبعثة من الذات ومن العقل المنير.

أعيش في إغتراب بين أفراد أسرتي، لم يسألني أي منهم على حالتي. لم يهتموا ولم يبالوا، وأنا لم أعد أهتم لا لحالي ولا لحالهم.
كأس الخمر ذاك هو الوحيد الذي أساررره وأفتح له قلبي، فالخمر هو خير جليس ونعم الصديق، هو الوحيد الذي لن يخونني مهما قبّلت من شفاه، ومهما غبت فسينتظرني مدى الحياة ويسمع همومي، لن يخون عكس كل الرجال.
أعيش اغترابا مع ذاتي أيضا. ذاتي التي خانتني هي الأخرى وجَنت علي بِشر شهواتها التي يستحيل تحقيقها في بعض الأحيان.
لا أحد ألجأ إليه، ولا أحد يعانقني ويقول لي إنها أزمة وستفرج عن قريب.
لا أعلم متى ستنتهي حالة الإحباط هذه، ومتى ستنتهي العزلة وأرى النور.
كرهت الحياة وما فيها، لأني كنت ضحية للعالم والمجتمع الذي أردت أن أهرب منه لأحضان دانيال.
إنها ليست غلطتي ولا غلطة دانيال، كل اللوم يقع على المجتمع، لأنه نفرني منذ صغري، عرقلني، وجعلني بدون أهمية، فلم أجد مهربا غير السادية التي لم تعد تهمني أو تشبعني.
أما الأكروتوموفيليا...غدت كالحلم المستحيل الذي لامسته ولم أعانقه، كالزئبق الذي يصعب إمساكه، يهرب كل ما أقترب منه.
مر سبعة عشر يوما على فراقنا الوهمي أيضا.
في ذلك اليوم أفقت على الساعة الخامسة مساءا بعد أن قضيت اليوم كله بالنوم.
تقريبا مثل كل يوم حياة مصاص دماء ينام قبل طلوع الشمس ويستيقظ بعد غروبها، أنهض في ساعة متأخرة لأتجنب الإكتئاب والاحتضار الذي أعيشه. لما ألقيت نظرة على هاتفي، وجدت شيئا غير مألوف... شيء من المفترض أن أكون قد نسيته في هذه الأسابيع.
لم أصدق كأن الزمن يعود بي للوراء، لتلك الأيام الخوالي التي عشتها معه.
وجدت رسالة من دانيال بعد كل هذه المدة.
بعد أكثر من أسبوعين، ها قد راسلني، إذا لم يتمكن من أن يمحوني من ذاكرته، كنت أعرف أن لديه أحاسيس تجاهي، لأني أحسست الصدق في رسائله القصيرة تلك، وفي نبرة صوته التي لم تفارق أذني إلى الآن.

لقد تذكر أني مازلت على قيد الحياة.
أرسل لي تلك الرسالة في الصباح كالعادة مباشرة بعد استيقاظه وكتب فيها:
"صباح الخير، كيف حالك، آسف عما حصل، سامحيني، سامحيني، سامحيني".
أظن أنه حقا نادم على فعلته التي صدمتني.
رسالته تلك لم تجعلني أحس بمقدار ندمه لأني لم أعد أثق بدانيال، فقدت الثقة فيه وفي كل العالم، بإقدامه على فعلته تلك لا أعلم إن كنت حقا سأسامحه وسأنسى عذاب ذاك اليوم المشؤوم. أقول أني سامحته ومازلت أشعر بالحزن لما فعله بي، أقول أني مازلت أحبه لكني سحبت كل ثقتي منه، كل هذه الأفكار تشوش ذهني، عقلي يقول شيئا وقلبي يتخذ قرارا آخر وأنا لا أعرف لمن أنساق.
حتى الشمس وقفت في صفه في ذلك اليوم الملعون، وأنا كنت وحدي من منزوية مع ظلماتي.
صَفْعته تلك أعادتني للواقع الذي لن أرى فيه دانيال حبيب قلبي مهما حاولت و مهما خططت... والآن و بعد سبعة عشر يوما عددتها بالدقيقة والساعة وتحملت كل آلامها، عاد ليعتذر بكل برودة أعصاب.
إنه عجيب ودمه بارد.
يثير أعصابي ويدفعني نحو الهاوية.
تعجبت من تلك الرسالة، لم أعرف ماذا أفعل، هل أرد عليه، أم أتجاهله؟
لكن الفضول غلبني وأردت أن أعرف ماذا حدث، لماذا غير رأيه في آخر لحظة، لماذا حرمني أكبر نشوة في حياتي؟
لماذا تجاهل حبي ومعاناتي وكل الخطط التي درستها بإحكام من أجل أن أجعله يقع في حبي وضحك علي؟
تمنيت لو صرخ في وجهي، لو قال إنه حقا لا يريدني ولم يحبني بتاتا، رحل لمدة سبعة عشر يوما تاركا وراءه كل هذه التساؤلات المبهمة، رحل وقد لمت نفسي لمدة سبعة عشر يوما على رحيله، أنبني ضميري في كل هذه الأيام.
لذلك سأراسله، سأسأله عن ما حدث وما الذي منعه من مقابلتي؟
انتظرت رده بفارغ الصبر.

وانتهى المساء، وسهرت الليل كله على أمل العثور على إجابة تشفي غليلي.
لعل عذره هذا يشفع له جرمه المشهود الذي ارتكبه في حقي.
ورُفِع ستار الليل لتضيء الشمس نهار يوم جديد في حياتي. لكني كنت منهكة فذهبت للنوم على أمل أن أستيقظ وأجد تفسير للعنة التي حطمت شبقي وأحلامي.
يوم غد، استيقظت على الساعة الخامسة مساءا كالعادة، وأول شيء فعلته هو إلقاء نظرة على الهاتف، وجدت رسالة من دانيال كتب فيها أنه كان مشغولا لذلك لم يتمكن من القدوم للموعد ولم يجد مخرجا من ذلك المأزق.
بالطبع هذه كذبة أخرى من صنع خيال دانيال ملك الخيال والفانتازيا[46] .
طلبت منه أن يخبرني بالحقيقة رغم مماطلته ومراوغته أجبرته على قول الحقيقة بشق الأنفس.
قال أن لديه مشاكل، لم يتمكن من حلها أو تفسيرها لذلك لم يتمكن من القدوم للموعد، حاولت أن أفهم السبب، لكن كل شيء ظل مبهما، أقواله كانت متناقضة، وأعذاره كانت كثيرة لكن غير مفهومة، فلا بأس ببعض الاجتهاد مني وتأويل كل ما قاله بطريقة تتماشى مع فكري المحدود وهوسي الممتد، إذا، ربما كان خائفا مني، ومن ردة فعلي، ومن نظرات المجتمع التي لن ترحمنا.
لا شك من أنه خاف من أن أسخر منه، خاف أن أشفق عليه، وأن أحطم قلبه، أن أقول تعاليق غير لائقة لأنه يحمل إعاقات مختلفة. لم تكن لديه الشجاعة الكافية ليتحمل كل هذه الأفكار لذلك خيَّر أن يختبأ في منزله وأن لا يواجه الحقيقة حتى وإن كانت عكس توقعاته.
حقا لقد صُدمت إن كان ذلك السبب الذي منعه من القدوم إذا فهنيئا لي فقد فشلت في أن أكسب قلب وخاصة ثقة دانيال.
لأني فعلت المستحيل كي لا أبدو في هذه الصورة، تجنبت طرح الأسئلة والمعاملات الخاصة لكي لا أجعله يظن أني أشفق عليه لأنه مختلف.
لم أكن أتصور أن يكون دانيال ذلك الشخص المندفع المحب للحياة والباعث للأمل في كل حواراته التلفزية والإذاعية يعاني من كل هذه العقد لأنه لم يتحدث عنها، لم

[46] الفانتازيا : أدب مقوماته الأساسية الخيال، و يتناول الواقع من وجهة نظر غير مألوفة.

يحدثني عن الأشياء التي يكرهها أو العقد التي يعاني منها، حاول قدر الإمكان إخفاء ذلك الجانب من حياته.
شعرت بالأسى والشفقة عليه.
حكمي كان قاسيا جدا من ناحيته، لم أفكر في مشاعره والعقد التي يعاني منها ولكن اختلفت الزاوية التي أنظر منها للأمور، ليس كل الناس يتمتعون بشخصية قوية مثلي، يحب علي أن أراعي موقفه. لأن الدخول في علاقة وأنت في حالة كهذه لن يكون خطوة سهلة. لذلك استجمعت قوتي وتركت كل الذي حدث ورائي وتغاضيت عن أفعاله التي لا تغتفر و قلت له أني لست غاضبة عليه و أنا أتفهم موقفه ذاك.
كتبت هذه الكلمات ودموعي تنهمر، أخيرا نزلت دموعي التي لا أعرف إن كانت دموع فرح او الم.
ربما الإثنين لأن كل شيء بات واضحا.
لا بأس سأدعها تتهاطل لأنها ستريح ضميري في النهاية، لم أكن أعرف ما يخبئه دانيال من أحزان وآلام، المسكين لقد تعذب في حياته، دمرته نظرة المجتمع، جعلته ضعيف الشخصية، يرى نفسه غير متساوٍ مع الناس.
يرى نفسه شخصا غريبا في مجتمع لا يقر بالاختلاف.
أعرف معنى الإختلاف وما أسوأ ذلك الإحساس عندما تمشي في الشارع وأنت محط الأنظار وحديث الساعة، أن يلقبك الناس بأفظع الألقاب والنعوت المسخ الفظيع الذي يجوب الشوارع متظاهرا بأنه غير مبالٍ بنظرات الآخرين، أن تكون المزحة الإلهية السخيفة التي خلقها الله في لحظة انْتِشاء أو لحظة لامبالاة أو حتى لحظة ملل، أن تنبذ من القطيع لأنك الخروف الأسود، طالما كنت الخروف الأسود في العائلة و بين كل أفراد القطيع، ليس لأن ملابسي دائما و ستظل إلى الأبد سوداء، بل لأني لم أكن مثلهم، لم أخلق لأكون مثلهم، تأقلمت مع هذا الوضع منذ الصغر ، فقد وعيت باختلافي منذ سن الرابعة أي عندما بدأ زملائي من الأطفال البرئين الملائكة يسخرون مني في المحضنة ثم في المدرسة ثم في الاعدادية وحتى الثانوية، ضحيت بالمجتمع وكل الحياة الإجتماعية من أجل أن أبقى ذلك المخلوق المنبوذ الذي يمقته القطيع، هجين التجارب الطبية الفاشلة، خطأ شكلتهُ الطبيعة والجينات المختلَّة.
أجمل خطأ و أفضل خطيئة.

لأننا لسنا كالآخرين.
الآخرون الذين وضعهم المجتمع في خانة " العاديين"، المحبوبون والمفضلون لدى الإله والمجتمع، الذين خلقوا في أبهى صورة لينالوا ما يريدون، لا لشيء غير أنهم مثاليون، الذين تحبذهم الطبيعة وتطوع من أجلهم الأقدار والسبل.
لكن ما ذنبي أنا؟
أنا لست مثلهم، أولئك الحمقى، أجل العاديون حمقى، دمى متشابهة لا شيء ليميزهم غير الجهل والغباء.
حبي لدانيال تغير منذ هذه اللحظة، لا أعلم كيف حدث ذلك، لكنه حدث لا أستطيع أن أخفي مشاعري نحوه، في الواقع صرت أرى شيئا من نفسي في روح دانيال، ذلك الحزن العميق بداخلنا لن يزول، صرت أحبه ولن أهتم لأي شيء آخر، فكيف لي إذا أن أسخر منه ومن اختلافه الذي لا أراه عيبا على الإطلاق.
كيف لي أن أسخر من أكثر إنسان مبدع فنان عرفته في حياتي؟
ليت قدري يتغير، حتى بعد ما هجرني لم أتوقف عن التفكير به، واشتهائه وتخيله.
ذاك الوسيم الأبله، أصبحت أسيرته.
في تلك اللحظة حقا تمنيت أن أعانقه وأخفف أوجاعه، أن أقول له أني لن أتركه، لن اهجره ولن أتخلى عنه بعد الآن و لن أدع أي شخص يؤذيه ولو بكلمة سأكون أنا الملاك الحارس لدانيال وحمايته صارت مهمتي الأولى قبل كل شيء، لأنه لا يوجد شخص في الكون كله يستحق أن يتحمل كل هذه الأحكام القاسيةِ فقط بتهمة الإختلاف.
لماذا لا نلوم الله لأنه أنشأنا بتلك الطريقة المشوهة، لما لا نمقته؟ لماذا لا نتحرر ونلحد؟ لماذا لا نتمرد على تلك القولة "الله جميل ويحب الجمال".
أي جمال ترونه في خلق مشوه،عاجز، مختلف؟
هل الجمال في جعله أضحوكة ومحطا للسخرية والتنمر.
إن كان كذلك، فيا له من إله رحيم ليعذب شخصا مدى الحياة دون أي سبب مقنع أن يحكم عليه بالعجز كامل حياته، أن لا يعمل وأن لا يدرس، أن لا يعمل وأن لا يحظى بعلاقات عاطفية أو اجتماعية خالية من الشفقة.

فهمت الحزن الذي يخفيه، وفهمت تصرفاته وتردده وعادت بي ذاكرتي للوراء لأعوام وأعوام تحديدا قبل أربع سنوات عندما رأيت دانيال في التلفاز لأول مرة، أتذكرون ذلك الحزن الذي كان يسكن عينيه؟ الآن فهمت ذلك الحزن، وفهمت أيضا أن ذلك الحزن لن يزول مهما حقق من نجاحات وتقدُمات في حياته... ستبقى عيناه حزينتان.

كل شيء بات مكشوفا وأنا سامحته، المزيد من الأعذار أعطيها لدانيال، لن أتعجب من سلوكه بعد الآن فالخوف من الآخر يجعلك تُقدم على فعلات أكثر من هذه، كم تمنيته أن يعلم أني سأكون ملاذه الأخير في هذا العالم.

يا ليته يصبح ملكي، ونعيش مع بعضنا وننعزل عن المجتمع سويا.

لكن أحلامي لن تتحقق لأن دانيال لن يقابلني، بتصرفه هذا، لم يفكر إلا في نفسه، خاف على مشاعره مني، ولم يهتم بمشاعري.

إنها قمة الأنانية و سوء معاملة للمرأة، المرأة التي يجب أن تتحمل كل شيء في سبيل إسعاد الرجل، تخطو آلاف الكيلومترات وتنفق كل أموالها لتقابله وتغرقه في حبها وشهواتها

هل تتحقق المعجزات ثانية وتعانق الشمس القمر وتعطيه القليل من دفئها وتنير سماءه؟ لا أحد يعرف ما الذي سيحدث في الأيام القادمة.

أما أنا فقررت أن أتبع قلبي وقراراتي الخاطئة مرة أخرى.

عادت تلك الرسائل القصيرة التي يرسلها دانيال بين الحين والآخر وعادت لي الفرحة من جديد.

لكنها فرحة تخفي قلقا كبيرا.

أعاني أزمة ثقة كبرى خاصة بعد أن صارحني دانيال بحبه وبأنني لم أفارق خياله في الأسابيع التي أمضيناها دون أن نتحدث مع بعضنا.

قال إنه قد تأكد من مدى محبته لي، وقال أيضا إنه قد إشتاق لي كثيرا، وأنا أيضا إشتقت له ولحديثنا ولرسوماته ولسماع صوته وكل تفاصيله، لكني خائفة الآن، عقلي يحثني على نسيان دانيال والمضي قدما بحياتي.

عقلي يريدني أن أطوي تلك الصفحة الفاشلة وأمّر لما هو أهم.

أما قلبي... ذاك العطوف الحنون، قلبي البورسلان المحطَّم، يقودني لدانيال

وأنا قررت أن أتبع قطعة الزجاج الهشة تلك، وإعترفت له في النهاية بحبي وكل مشاعري، قلت له كم أحبه وكم لا أستطيع العيش من دونه.
حبي الذي لم يعد شهوانيًا بالأساس، تحول فجأة لحب خاص عميق يستحق طلقة أخرى وآلاف التضحيات.
لنعد أصدقاء، ونتعرف مجددا ونحب بعضنا مجددا ونتقابل مجددا ونألف قصة أخرى تكون نهايتها سعيدة مثل خرافات الأميرات.
ووافق على كل ذلك.
وعادت لي البهجة من جديد وعدت أطارد حلمي الأكروتوموفيلي وحبي الجديد.
لكن ضميري مازال حيا يرزق ولم يكف على تأنيبي، لكن لم أعد أهتم.
لقد ذقت حر الصفعة الأولى ولن يصدمني شيء آخر.
لأني حيوان، والحيوان يركض وراء شهواته طول الوقت، همه الوحيد المعاشرة.
أنا دب أطارد أرنبي دانيال الذي يختبئ مني في جحره، سأنال منه مهما كلفني الأمر.
لكن هذه المرة لم أعد أطارد شهواتي فقط، بل أصبحت عاشقة لدانيال، أصبحت حيوانا عاشقا يطارد حبه ورذائله في نفس الوقت.
تركت عقلي وتركت التصوف والخمر والموسيقى الكلاسيكية البائسة التي كنت أسمعها، وعدت لمحنتي الأولى والأخيرة "دانيال".
محادثاتنا عادت كالسابق، والمياه عادت لمجاريها، وبركان شهواتي يفيض ويتأجج وستلتهم حممه البركانية على كل العالم وتجعله رمادا، حطاما، ركاما...
خراب.
أما دانيال، حتى وإن لم نتقابل لن أتخلى عنه ولن أستسلم لأنه صُنع من أجلي دميتي دانيال التي أتسلى بها. عادت المحبة بيننا، وعدت التحليق في رحاب الفضاء. لقد عفت عني الآلهة. شكرا يا فينوس المُمَجدة، دعي قمري يكتمل، والذئاب تعوي تمجيدا لقمري الدموي الذي لن يختفي مهما غيم الطقس ومهما اشتد الظلام وتهاوت كل النجوم. قمري سيظل بازغا مسيطرا باسطا ضوءه في كل السماء.
وذئابي... مخلوقاتي الليلية تطرب أذني بعوائها الذي يخلّد مجد أسطوري العائدة من جحيم أعالي ترانسلفانيا .

مر الأسبوع الأول منذ أن عاد حبيبي دانيال لمحادثة آلهته التي وقعت في شراك العشق، كل شيء يسير على ما يرام.
عاد دانيال الذي أعرفه، برسائله المختصرة ووقته المشغول، وعدت أنا برسائلي الطويلة المتعددة و وقتي الفارغ الذي لا يملأه سواه.
إلى أن جاء اليوم الذي جمع دانيال فيه كل جرأته، و أعاد الطلب الذي لم أرفضه له مسبقا. قال إنه يريد مقابلتي، وأضاف أنه يعلم أني لن أقبل مقابلته بعد كل ما حدث.
لكنه نادم ويتمنى أن يراني ويشتهيني ومستعد للتضحية في سبيل حبنا وشهواتنا.
لكني حققت له هذه الأمنية مسبقا وقد خلف وعده، هل سأقع في نفس الفخ مجددا، أم هناك خطة أسوأ، ماذا لو كان يخطط لانتقام أكثر شرا و دموية.
كيف سأقابله، و كيف سيكون مصيري.
لا أثق به، و بما يخطط اليه، على الأرجح إنه أكثر مني حيلة ودهاء لكني هذه المرة أعرف أن الأمور لن تسير على ما يرام، وأعرف كيف يخطط دانيال
وأعرف أن همه الوحيد هو تدمير أسطورتي وجعلي مخلوقة منسحقة مثله.
الأشخاص المجنونون مثله، دائما ما يسعون لجعل كل الناس مدمرين نفسيا مثلهم، فالثقة بالنفس عندهم جريمة، حرام، وقبول الذات بأخطائها وعيوبها وإعاقتها خطيئة كبرى جزاءها النار، هذا ما يريد أن يفعله بي دانيال، يريدني أن أكون مثله، ناقمة على جسدي وذاتي وعلى كل شخص سليم يكرهني أو يحبني.
لأنه يراني أفضل منه، أقوى منه لم أكن الصورة المعهودة للفتاة المثالية الخائفة من المجهول والمغامرات الفاشلة، المهووسة بصورة جسدها الذي ستنقمُ عليه وتعذبه أبشع تعذيب إن زاد وزنها كيلوغراما واحدا،أو إن امتلأ وجهها بالبثور والتصبغات إن كان أنفها كبيرا أو مائلا، أو شفاهها صغيرة لا تمتع الرجل أثناء التقبيل، إن لم تمتلك ثديان ومؤخرة سيليكونية كبيرة لذلك يجب عليه تقزيمي، اهانتي وجعلي أسفل السافلين.

تمهلت كثيرا في الرد على طلبه، وتمعنت في الأمر مليا، درست الأشياء السلبية التي يمكن أن تحدث وقررت بعد طول إنتظار أن أموت في سبيل شذوذي، سأعود للمجهول وأبحر إلى أن أعثر على جزيرة الكنز، حتى وإن كلفني الأمر حياتي.
في الواقع، أحس أن دانيال يستدرجني لشيء أسوء، لا أعرف ماهو، لكن مخاوفي لن تهدأ هذه المرة.
وقلبي أيضا لا يهدأ ويريدني أن أغامر، شبقي الأكروتوموفيلي الحيواني يجعلني أقبل المغامرة، ولن أندم مهما حصل ومهما كانت خطورة المأزق الذي سأقع فيه.
وبهذا القرار قمت بنبش قبر الماضي وأخرجت هدفي الشاذ المخبول من جوف الأرض، لن أيأس حتى أحقق مبتغياتي كلها.
سأخاطر مثلما خاطرت من قبل، ولن أتراجع إلى الوراء.
قبلت طلب دانيال هذه المرة أيضا دون أن أبدي أي قلق أو تخوف، بالمقابل اجتاحني اليأس والإحباط، لأني أشعر باليأس من حالتي حتى دانيال وبكل عيوبه لم أتمكن من إغراءه، ولم أتمكن من جعله يحبني.
تناقشنا تحديدا كالمرة الفارطة وأعدنا بناء أحلامنا الكاذبة، وحددنا يوم اللقاء ثانية، سيكون بعد غد.
أتمنى أن يكون صادقا في كلامه.
ولكن هل علي هذه المرة أن أزور تلك المشعوذة ثانية، وأوفر على نفسي مشقة السفر إن كان سيفعل كما في السابق، لكن لم تكن لدي الجرأة الكافية هذه المرة لسماع كل تلك الأخبار المحزنة، قررت أن أتبع الوهم حتى ألامس الحقيقة.
كل شيء حدث مثل المرة السابقة، كأن التاريخ يعيد نفسه، مازلنا لم نحدد مكان المقابلة، وقال إنه سيتصل بي فور وصولي.
كل شيء كان رتيبا، والأحداث تتكرر، كأن الزمن يعود بي إلى الوراء لأيام قبل الكارثة، وأنا على دراية هذه المرة بالكارثة التي ستقع، وسأقدم عليها.
جاء اليوم الموعود مجددا.
ليلتها لم أشعر بأي توتر ولا بلهفة، ولم أجد أي صعوبة في النوم لم أرى اي كوابيس كأني مخدرة، لا أقدر على الإحساس أو التفكير في المصيبة المنتظرة صباح غد.

وإستيقظت في الصباح كالعادة، لم تكن لدي أي رغبة في لقائه. لأن عقلي الباطني كان فاقدا للأمل في كل الحالات. ماذا لو أبقى بالبيت وأعيد الصاع صاعين.
إنها فكرة سديدة. انه الحل الأمثل، سأدعه يحس لوعة ما ذقته. اتخذت قراري النهائي.
لن أعطيه فرصة ثانية، لن أدعه يسخر مني ثانية، لا أحد يسخر مني في النهاية.
لكن ماذا لو كان صادقا هذه المرة؟
أخذت أتقلب في سريري وأفكر، البارحة كنت مصرة على مقابلة دانيال، أما اليوم فلم أعد متحمسة.
هل أقابله أم لا؟
هل يقابلني أم لا؟
لا أستطيع التركيز، هل سأستمع لصوت الحكمة في داخلي أو لذلك الدب الجائع.
إحترت من أمري، سأعطيه فرصة أخرى ليسخر مني مجددا، بعدها تذكرت ما قاله السيد محمد عندما قال إن دانيال سيعود و سيترجاني لأمنحه فرصة ثانية، لذلك قررت أن أعطيه هذه الفرصة لعله يتغير. لا بأس فمحاولة أخرى لن تفسد شيئا.
نهضت من السرير وتناولت ورقة من إحدى دفاتري ودونت فيها أني ذاهبة لمقابلة شخص يدعى دانيال وكتبت رقم هاتفه وكل بياناتي الخاصة وقلت أنه في حالة أصابني أي مكروه سيكون دانيال المذنب الوحيد، وخبأت الرسالة في إحدى رفوف مكتبي.
لا أحد يستطيع لومي على ذلك فقد كنت خائفة جدا من دانيال، لكني كنت مستعدة للمغامرة.
غيرت ملابسي ولبست الأسود، أي شيء اسود اعترض طريقي، لم أهتم إن لم يكن أنيقا أو مغريا ، وضعت كحلا فوق عيني أخذت هاتفي وأوراقي ونقودي التي لم تكن كثيرة، لكنها كانت كافية على ما أظن. وغادرت المنزل بعد أن كذبت كالعادة قلت لهم أني ذاهبة لمقابلة أحد أصدقائي.
إلى حد الآن لم أتلقى أي رسالة من دانيال، لكني لم أهتم.
لم أبالي إن كان نائما، إن كان سيتصل بي أو يراسلني .

وصلت إلى المحطة وصعدت في الحافلة، جلست في المقعد الخلفي، وضعت السماعات في أذني وشغلت موسيقى الغربية الصاخبة كالمعتاد وإنطلقت الرحلة نحو الوهم والسراب وخيبات الأمل.

هل سأرى دانيال اليوم؟ ساعة تفصلني على معرفة الحقيقة.

أخيرا وصلت بعد أكثر من ساعة، نزلت من الحافلة، دخلت المحطة، وجلست في الكافتيريا الموجودة في المحطة كما جرت العادة وطلبت قهوة وقارورة مياه باردة.

الحرارة كانت مقبولة خمسة وثلاثون درجة تقريبا، على الأقل لم تكن هناك شمس حارقة تتآمر ضدي مع دانيال.

أما الآن إنها اللحظة الحاسمة، ألقيت نظرة على هاتفي، لكني لم أجد أي رسالة من عند دانيال، شعرت بالذعر الذي شعرت به في المرة الفارطة، خيبة الأمل التي سمحت لها أن تحدث مجددا، عرفت أنه لا يهتم بقدومي، للمرة الثانية أقع في نفس الفخ...هل أتصل به؟

نعم سأتصل به، ظل الهاتف يرن وأنا أنتظر دقات قلبي تتسارع.

وتتسارع.

إنه كالعادة لا يجيب...

أخيرا لقد أجاب على المكالمة، لقد أخبرته بوصولي، وأخبرته أني أنتظره في كافتيريا المحطة.

قال إنه لا يستطيع القدوم، لقد قالها بكل قسوة، دون أن يبالي بكل الكيلومترات التي قطعتها، في الظاهر أنه لم يكن سعيدا بهذا الخبر. صدمت ثانية، لكنه طلب مني أن آتي لمنزله إن كنت أرغب في لقائه، يريد تعجيزي لأن اتفاقنا كان مبنيا على أن نتقابل ثم نذهب لمنزله إن أراد ذلك.

لم يبالي بمشاعري مرة أخرى وأجابني بكل برودة دم، إن كنت حقا أريد مقابلته فعلي القدوم للعنوان الذي سيرسله لي في رسالة، وانقطع الإتصال.

هو يعلم جيدا أني لن آتي، لن أتجرأ على القدوم لمكان لا أعرفه ولا أعرف إن كان العنوان صحيحا أو خاطئا.

شعرت بالخوف وباهانة أخرى، كانت نبرة صوته ساخرة لا مبالية، وأنا الآن أشعر بخوف أكثر.

شربت بعض الماء لعلني أستوعب الموقف، وما الذي سأفعله الآن، من الأفضل أن أعود للبيت وأنسى دانيال، لا أعرف ما السر الذي يخفيه، لماذا يعاملني بهذه الطريقة القاسية، كل تصرفاته غامضة، كأنه يعاني من انفصام في الشخصية، كم هو انتهازي محتال.
بينما كنت غارقة في أفكاري وصلتني رسالة من دانيال كتب فيها عنوان منزله المزعوم.
هل هذا العنوان صحيح؟
كيف أتأكد؟ هل أواصل المغامرة؟
لكني لم أسمع بهذا المكان قط، ولا أعرف أين يوجد وأنا غريبة في هذا المكان، راسلته وسألته كم يبعد هذا المكان عن المحطة التي أنا فيها.
قال لي انه لا يبعد كثيرا عشرة كيلومترات على الحد الأدنى وطلب أن أكف عن الأسئلة والتذمر، وكتب أيضا إن كنت مترددة فلا داعي القدوم.
لماذا يخاطبني بهذه الطريقة.
أكره أن يملي علي أي شخص الأوامر.
اتصلت به لعله يرشدني ويخبرني لماذا غير رأيه في النهاية لكنه لم يَرُد.
هل أتبعه وأذهب للعنوان الذي كتبه لي؟
نعم سأذهب، لا يهمني ما سيحصل بعدها، بطبعي كنت قد تركت ورقة في غرفتي في حالة تعرضت لمكروه.
واصلت احتساء قهوتي ، وأحسست بالجوع فطلبت قطعة كعك بالشوكولاته، واصلت الأكل وشرب القهوة والماء البارد والتدخين في حين كنت أتصفح خارطة الطريق على الإنترنت، المكان يبدو بعيدا وهو حي شبه معزول أيضا أنا أكره الأحياء الشعبية المعزولة التي تبدو أشبه بالقرى النائية خصيصا أني لا أعرف المكان.
أستطيع أن آخذ القطار السريع والذي سيقتلني لمحطة أخرى بعد خمسة محطات لأنزل وآخذ قطارا سريعا آخر سيوصلني للحي الذي يقطن فيه دانيال بعد سبع محطات أخرى بعدها سأمشي لمدة لا أعلم إن كانت دقائق أو ساعات وأسأل عن منزل دانيال لعلني أعثر عليه.

مهمة شاقة في مدينة أخرى لا أعرفها ولا أعرف فيها أي شخص في حالة تعرضت للأذى أو وقعت في مشكلة، والسفرة ستدوم ما يقارب الساعة والنصف أو ساعتين وحتى كامل اليوم إن تهت أو أخطأت في رقم القطار أو نزلت في المحطة الخاطئة، وهذا وقت طويل، ورحلة أخرى طويلة ستكون محفوفة بالمخاطر وكل الفرضيات يجب أخذها بعين الإعتبار.

أنا حائرة ونقاط الاستفهام تدور في ذهني لماذا يعاملني دانيال بهذه الطريقة؟

أشعلت سيجارة فزاد تحديق الرجال بي، فهذه الحركة تعد فسقا إن قامت بها المرأة، حيث ستصنف في أعين الرجال كفاجرة عاهرة ساعية وراء الجنس.

ورحت أفكر لماذا أعذب نفسي بينما كنت في مرتبة إلهية سامية أعذب الرجال وأتسلى بأجسادهم الفانية؟

ماذا حصل لي؟ كيف تغيرت إلى هذه الدرجة، هل هو سحر أم لعنة؟

نعم فالحب أشبه بتعويذة تجعلك قادرا على إزاحة الجبال وإذابة الجليد وتحويل النار إلى ماء.

لا أكاد أعرف نفسي ولا أكاد أصدق أن دانيال يذلني ويضع سكينا على رقبتي.

يتسلى بي وبمشاعري الصادقة ويستغلها ضدي

خلاصة القول، هو يعرف ماذا أريد. يعرف كم أشتهيه وكم أحبه.

ويعلم أيضا أي قادرة على تحمل كل هذا وأكثر.

هل أعود للمنزل بخُفيْ حُنين؟

بالطبع ليس بعد قطع كل هذه المسافة سأواجه مصيري، إن كان كمينا فأنا راضية حتى وإن لقيت حتفي سأكون شهيدة.

أنهيت أكل قطعة الكعك تلك، ورحت أتجول بعيناي في أرجاء المقهى، كل شيء يبدو طبيعي، أناس بسطاء قادمون من الشمال والشمال الغربي كالعادة ينظرون إلي كأني كائن غريب فاجر، غراب أسود منحوس، والرجال يأكلونني بأعينهم تماما مثلما ألتهم أنا قطعة الكعك السوداء التي أمامي.

بكل شهوة وشراهة ونهم.

أَلِفت هذه النظرات في هذه الكافتيريا فهي ليست بالأمر اللا معتاد.

خرجت من الكافتيريا ومن المحطة بعد أن قررت البحث عن بيت دانيال.

وباشرت السير على أمل أن أجد سيارة تاكسي تأخذني للعنوان المطلوب.
لم أرد أن آخذ القطار السريع لكي أتجنب الإنتظار والاكتظاظ والرهاب الإجتماعي وتغيير القطار وانتظار قطار آخر الذي يتطلب ساعة على الحد الأدنى للقدوم والضياع في آخر المطاف.
حتما سأفقد صوابي إن أقدمت على فعلة كهذه.
البحث عن سيارة أجرة يبدو أسهل بكثير.
بدأت الحرارة تشتد، وكان الوقت يشير للعشرة صباحا انه وقت ذروة نوعا ما، إيجاد سيارة أجرة يبدو معجزة أخرى اطمح لتحقيقها.
كل السيارات محجوزة.
بدأت أفقد الأمل، وقفت على الرصيف آملة أن تعترضني تاكسي لعينة.
لماذا حياتي كلها تعاسة وعراقيلُ لهذا الحد؟
وأخذت ألعن اليوم الذي عرفت فيه دانيال وعشقته فيه.
مضى ما يقارب ربع الساعة أو أكثر وأنا أنتظر ودانيال لم يعاود الإتصال بي ولا حتى مراسلتي.
لا يعلم إن كنت قادمة للعنوان الذي أرسله لي، ولم يبدي أي إهتمام بالموضوع.
كنت أتسكع في الشارع المكتظ بالدواب والسيارات كشخص مشرد بلا مأوى.
عقلي يقول لي أن أعود للبيت لأن كل ما أقوم به خاطئ ويؤدي للهلاك.
من يأبه للهلاك؟ المجنون لا يأبه بهذه الكلمة.
فجأة جذبت انتباهي سيارة تاكسي قادمة من بعيد.
أشرت لها بيدي لكنها لم تتوقف.
مهلا هناك سيارة أخرى.
أشرت لها فتوقفت قبل أن أصعد سألني السائق أين عساي ذاهبة.
اخرجت هاتفي وأطلعته على المكان في الخريطة.
فرفض أن يقلني.
شعرت بخيبة أمل وتمنيت أن يتعرض السائق الملعون لأبشع الحوادث ويلقى حدفه، لأنه قال لا، وهذا ليس من حقه.
نعم إنه يستحق الموت، عليه اللعنة.

أحسست بالضيق والرهاب الاجتماعي لأني كنت محط أنظار الجميع، كنت في حالة لا أحسد عليها شخص قادم من مدينة مجاورة يلاحق سيارة أجرة وجهتها مجهولة... هذا جنوني لكن تلك هي الحقيقة.

حدق بي جميع المارة لكني لم أبالي ... فالأمر عادي، لكن الشيء الوحيد الذي اعتبرته غير عاديا كانت تلك المضايقات التي تعرضت لها من قبل رجل وقف على مقروبة مني قصد أن يوقف سيارة أجرة هو الآخر.

"صباح الخير... أنت جميلة... تعجبني ملابسك..."

فعلت كل ما بوسعي لأتجاهل كلماته وإيحاءاته الجنسية المكبوتة المقرفة، تماسكت دون أن أستسلم وأعود أدراجي إلى أن وجدت تاكسي أخرى، لوحت بيدي، فتوقف الرجل وتقدمت نحو السيارة من أجل الصعود، لكن ذلك الرجل الحقير تقدم أيضا وقال :" أنا من أوقف السيارة ... أنا كنت هنا قبلك وأنا الذي يجب أن يصعد."

لكني تجاهلته بينما اكتفيت بسماع سائق سيارة الأجرة يرد عليه :" هي التي ستصعد."

وبصوته الحازم أنقذنا من شجار كان على وشك أن يبدأ.

صعدت أخيرا. بعد مضي أكثر من نصف ساعة من العناء كدت أفقدُ فيها الأمل.

جلست في المقعد الخلفي.

سألني السائق عن وجهتي، لكني كنت مشغولة بشرب الماء ، رحت أشرب بشكل متواصل دون أي انقطاع، إلى أن امتلت معدتي وتدفق الدم في عروقي

وأخذ قلبي ينبض بالحياة، أما السائق فكان ينظر لي بتعجب وينتظر إجابتي.

إلى أن انتهيت من شرب الماء خبأت القارورة في الحقيبة وأنا في كامل راحتي والسائق مازال ينتظر مني الرد كأنه سيفقد أعصابه فملامحه توحي بأنه شخص جاد لا يريد إضاعة الوقت، كل همه أن يعرف أين ستكون وجهتي، لكني كنت مستهترة كالعادة وقلت :" ذلك الرجل المعتوه جعلني أفقد أعصابي لقد كان يضايقني."

فقال السائق :" كان بإمكانك أن تلقنيه درسا."

فأضفت بانزعاج :" أتمنى لو كان بامكاني فعل ذلك، إني أتجنب المشاكل لأني لست من هذه المنطقة ... لكنك جئت في الوقت المناسب."

ثم سألني مجددا عن وجهتي بعد أن نفذ صبره فأخرجت هاتفي مجددا وأطلعته عن المكان المحدد في الخريطة.
كان الجو في السيارة حرا جدا، والشبابيك مغلقة، لم أجد أي اوكسجين لأتنفسه.
أردت أن أفتح الشباك لكن السائق قال إن الشبابيك معطلة لا يستطيع فتحها.
أظن أنه يكذب، لا يريد أن يفتح الشبابيك، هو حُرٌ في النهاية.
سألت السائق :" هل المكان بعيد؟"
فأجابني:" نوعا ما."
لم يرغب في التحدث هو الآخر فهمت ذلك من جوابه المتكون من كلمتين، لكني فهمت أن المكان حقا بعيد.
وظلت السيارة تسير ببطء في البداية بسبب الإزدحام إلى أن خرجنا تدريجيا من وسط العاصمة.
تذكرت أن الحي شعبي، فلا عجب من تواجده في أحواز المدينة.
بدأت أرى الأحياء الشعبية والبناءات الفوضوية التي لا توجد أي جمالية فيها مشهد يشتت حسي الفني.
فسألت السائق :"هل وصلنا للمكان المقصود؟"
لكنه قال :" مازال أمامنا ما يعادل نصف المسافة." و سكت.
كأنني ذاهبة إلى المريخ، يا لها من تعاسة...
هل حقا هو العنوان الصحيح؟
بدأنا نخرج من الإكتظاظ، السيارات بدأت تقل، والمنازل والناس كذلك، أصبحت أرى منزلا كل بضعة أمتار، منازل من الإسمنت لا أعلم إن كانت حديثة التشييد أو منازل لعائلات معوزة أو هو حي مازال على قيد البناء، لا أشعر بالراحة في أماكن كهذه لأني لم آلف مثل هذه الأماكن. فالازدحام يشعرني بالرهاب ، كذلك الأماكن الخالية كهذه.
بيوت عشوائية بنيت على سفح أحد الجبال.
مصانع.
اعترضتنا محطة أو إثنان للوقود.

ثم إختفى المعمار من الوجود، ازدادت سرعة السيارة في الطريق الساحلية السريعة وأصبحت لا أرى غير طبيعة، حقولا على يميني وأخرى على يساري كنت أودع الحضارة تدريجيا، وأرحب بالبوادي منزل هنا ومنزل هناك.

عندها فهمت أن فرحتي لن تكتمل وزاد بي القلق والخوف. معدتي صارت تؤلمني وأريد التقيء ، سألت السائق الذي مل من أسئلتي مجددا :" هل العنوان المطلوب مازال بعيدا؟"

قال :" إننا اقتربنا."

ثم واصل السياقة في كامل الهدوء والصمت.

هدوءه هذا لم يبشرني خيرا، أتمنى أن لا يكون ذلك الهدوء الذي يسبق التسونامي_ الذي سيدمر كل الذي بنيته.

لكن المكان معزول، أشبه بقرية نائية بعيدة كل البعد عن الحضارة، انتابتني نوبة هلع أخرى و لكن يجب أن أسيطر على أعصابي، اتصلت بدانيال، لكنه لم يرد، مازال هذا المُتَخلف يتمادى في الاعيبه.

العالم كاد أن يتوقف فجأة هذا ما أحسسته.

إنها مسرحية أخرى من إخراج دانيال، ماذا سأفعل الآن، هل أخبر السائق أني غيرت رأيي لكي يعود بي للمحطة، بكل بساطة هذا ما يجب فعله.

مرة أخرى... ياله من إنسان مخادع.

في تلك اللحظة كنت استجمع ما تبقى من كبريائي التي سلبها مني دانيال، سأقول للسائق أن يعيدني للمحطة لأنه لا يوجد أي جدوى من قدومي لهذه المنطقة النائية.

يجب أن أخبره. لكن الخوف يعقد لساني لا أعرف كيف أتصرف.

لكن لسوء حظي كان قد تأخر الأمر.

توقفت السيارة بينما كنت أفكر في ما يتوجب على فعله، وأخيرا إبتسم السائق مشيرا إلى أننا وصلنا للمكان المقصود.

أحقا يبتسم؟ ليته لم يقلّني كغيره من السائقين منذ البداية، هو يبتسم وأنا في حالة أبسط ما يقال عنها أنها رثة، الآن لا أعلم ماذا ينتظرني.

طلب حق التوصيلة التي تكلفت على الكثير من النقود والمجهود، أعطيته مستحقاته ونزلت من السيارة.

سيغمى على من الصدمة.
وقفت لبرهة أتأمل المكان الرمادي الكئيب الذي وصلت له للتو.
كل المنازل رمادية بالإسمنت وبعضها مازالت الأشغال قائمة فيه، رمادية كطقس عبوس يقبض على قلبي.
بطحاء ترابية غير مبلطة، الغبار يملأ الهواء، والفضلات مرمية في كل ركن من أركان الحي.
كأني في ربع الصحراء الخالي، كأني في منفى...
في الناحية الأخرى يوجد طريق رئيسي واحد تشقه السيارات القليلة التي ندر ومرت من هناك، ومن الجانب الآخر للطريق كان هناك سكة القطار السريع.
شيء يبعث الأمل أخيرا، على الأقل لن أضيع في هذه البوتقة الإسمنتية.
انتظرت قليلا ثم قطعت الطريق متوجهة نحو سكة القطار، جلست على أحد الكراسي الحجرية التي قد نزع رخامها ولم يتبقى منها سوى الإسمنت.
لم يكن هناك أي شخص يتجول في هذا الحي، ربما لأنه وقت ظهيرة والطقس حار.
مدينة أشباح.
مدينة أرواح رمادية معذبة.
لم أتلقى أي اتصال من دانيال، ولا أعرف إن كنت حقا في المكان الصحيح.
قطعت الطريق مجددا وعدت لتلك البطحاء الخالية.
أسير كشخص فاقد للذاكرة، بدون أي هدف.
إنها غلطتي لأني سمحت له بالتلاعب بي وبالتحكيم بمشاعري، هذا الوحش الآدمي، ما أبشع أفعاله.
تابعت السير ودخلت الحي الكئيب الذي لم يتواجد فيه سوى منازل قليلة.
ورحت أشق الطريق الذي لم يكن ممتلئا سوى بالغبار والنفايات والأعشاب الطفيلية التي انزوى كل منها على حدى، وأتمعن منازله القليلة المبعثرة على اليمين وعلى الشمال. لا يوجد أي مؤشر يدل على أن المنطقة مسكونة، لا أرى أي رجل، أو إمرأة أو حتى أطفال.
يال العجب حتى الأطفال لا يلعبون الكرة في هذه البطحاء الواسعة.

كأني في فيلم رعب، أنتظر هجوم الزومبي من مكان ما. كل العالم اندثر، كأن الناس قد رحلوا أو هربوا من جائحة ما إلا أنا ، بقيت وحدي في برزخ الأموات هذا وفي كل تدرجات ألوانه الرمادية.
بينما كنت أسير اعترض طريقي كلب سائب، أبيض، نحيل وشاحب، لم أخف منه بل فرحت، على الأقل لقد اعترض طريقي كائن حي.
أخيرا وجدت دكانا صغيرا يبيع المواد الغذائية العامة. آه وكم سررت بذلك الاكتشاف، كأنني مستكشف تطأ رجله قارة جديدة لأول مرة، و راح يبحث عن أوجه الحياة فيها. وقلت لنفسي بنوع من الفرحة :" أخيرا وجدت كائنا آدميا آخر غيري أنا."
دخلت الدكان الذي كان مظلما لم تنره غير أشعة الشمس ولم تتواجد فيه العديد من المواد، فقط بعض المواد الأساسية اليومية، أخذت أقلّب ذلك الدكان إلى أن قابلني رجل عجوز متوسط القامة والبنية، لحيته بيضاء وشعره أبيض خفيف، يلبس قميصا صيفيا رمادي اللون كان يجلس على كرسي خشبي صغير في احدى الزوايا المظلمة، إبتسم لي حتى ظهرت أسنانه الصفراء المتبقية. يبدو عجوزا طيبا، بادرته بالإبتسامة، ثم إستسمحته عذرا وسألته إن كان هناك رسام يدعى دانيال في هذه المنطقة وناولته كل أوصافه وأضفت أني أبحث عنه لكي يرسم لي لوحة زيتية.
فابتسم لي العجوز الطيب مجددا وقال أنه يوجد رسام يدعى دانيال يقطن في آخر الحي.
سألته إن كان متأكدا، فأجاب والإبتسامة لم تفارق وجهه قائلا إنه رسام معروف ومحبوب في هذا الحي ولا يوجد سواه بهذه الأوصاف.
وصف لي العجوز بالتفصيل أين يقع المنزل، آخر منزل في الحي إن واصلت السير مباشرة دون أي انعطاف ثم استدرت على اليمين وسرت حتى نهاية الحي قبل أن أعبر ممرا ضيقا يربط بين هذا الحي والحي المجاور سأجده المنزل الأخير على اليسار هناك.
شكرته جزيل الشكر وواصلت طريقي بقليل من الأمل. .
الآن ستكون الصدمة لدانيال عندما يراني واقفة أمامه.
وصلت لنهاية الحي أخيرا، التفتُ على يميني فوجدت مجموعة من المنازل البسيطة،

أما على يساري، وكما ذكر العجوز وجدت منزلا اسمنتيا كغيره من المنازل وبابه حديدي ورقمه ستة وعشرون هذا هو المنزل الذي وصفه صاحب الدكان، توجهت نحو المنزل المقصود.

هنا يعيش دانيال، في هذا الانعزال التام عن الحضارة، تأملته مليا لم أعد أقوى على الوقوف من وقع الصدمات والانتكاسات المتوقعة والتوتر.

أعصابي ومعدتي وأقدامي، كل عضو في جسدي يتضرع للراحة.

إنها اللحظة التي انتظرتها منذ سنوات، أظن أني لن أجده أبدا... كم أخشى هذه الفكرة.

إنه لا يعرفني جيدا ولا يعرف مدى جرأتي ومدى قوتي على تحمل كل المشقة في سبيل شهواتي و حبي له.

لكن اختبائه هذا لم يدم لوقت طويل، ها أنا الآن أمام منزله، سيصدم، سيصاب بنوبة قلبية عند رؤيتي، فاجعة لم تكن على باله ولا على خاطره، ظن أني دمية يحرك خيوطها كما يريد، ويلعب بمشاعرهَا ويسعى لدهسها وتدميرهَا تحديدا كما حاول قبله كل العالم ولكنه فشل، نسي أني أنا التي تتحكم في الأقدار وتسييرها كما تريد.

أنا التي أَحْبِكُ وأكتب فصول قصتنا وهو الدمية التي أحركها، فهو مجرد شخصية ثانوية في فصل من فصول حياتي.

تقدمت وقلبي يدق بأسرع قواه، كأنه قرع للطبول.

لقد انتهى كل شيء ولا مهرب من الحقيقة.

لم يكن هناك أي جرس لأقرعه.

طرقت الباب مرة واحدة وانتظرت لبعض الثواني ثم طرقت الباب مرة ثانية.

بينما كنت بصدد مواصلة الطرق، إذ أن الباب فُتِح فجأة.

وكانت الصدمة الأخيرة التي لم أتوقعها.

أصبح التشويق سيد الموقف أعصابي لم تعد تحتمل وأوشكت على الانهيار أنساتي سادتي... لقد انتصرت.

تمعنت مليا، ورشقت عيناي في الشخص الذي فتح لي الباب.

شخص أعرج ذو قامة قصيرة، تجاوز طوله قفل الباب ببعض السنتيمترات ... أقصر بكثير مما تصورت لكني لم أهتم، كأن يرتدي سروالا أصفر فاقع ذكرني

بسيارات الأجرة التي كنت أطاردها، وذكرني بتلك الشمس الشريرة الحسودة التي أصابني بِبقْلَةٍ شمسية، وذكرني بكل الأشياء السيئة التي مررت بها حتى وصلت إلى هذا الحي الذي لم يرق لي إلى حد الآن، وكان يلبس قميصا أزرق نيليا مخططا بخطوط زرقاء بترولية.

نعم، بعد طول عناء وانتظار، وإكتئاب ليالي ضاجعت فيها الخمر وأدوية الأعصاب والأعشاب بأنواعها، دانيال يقف أمامي بقامته القصيرة العرجاء، وقميصه الذي تدلت أكمامه لتخفي أطراف يديه الغير مكتملتين.

ملامح وجهه لخصت الموقف كله. دانيال أمامي، قبالة وجهي مصدوم، لم يجد ما يقول. وسرعان ما تحول وجهه من وجه ابيض شاحب شحوب الأموات إلى وجه محمر كالجمر من قوة الصدمة. لحيته بنية خفيفة كما عهدتها، شفتاه ورديتان، وعيناه تحولنا أزرق داكن مائل للرمادي واتسع بؤبؤ عينيه ليهرب ذلك الأزرق البريء الذي عشقته. وشعرهُ منسدل كالعادة... لم يقل أي كلمة.

أظن أنه غير مرحب بي هنا. هذا ما فهمته من تصرفاته.

أنا أمامه شحما ولحما، وهو لم يقل أي كلمة، لم يقم بأي ردة فعل.

فكنت الأولى التي بادرت بالحديث قائلة :"أخيرا، بعد أن كدت أن أفقد الأمل، ها أنت أمامي، رسامي المفضل هوسي الذي أردت فقط أن أراه، لكني فهمت كل شيء وسأعود من حيث أتيت."

واستدرت عائدة أدراجي.

حتى استوقفني صوته قائلا: "يا لها من مفاجأة...غير متوقعة، لكني سعيد بقدومك".

ثم أضاف مهمهما:" تفضلي بالدخول."

وبالطبع لم أمانع، دخلت المنزل، وعبرت البهو، وكان قد سبقني دانيال ودخل الغرفة التي على يمينه، كانت غرفة مرتبة، بها تلفاز كبير، أثاث عصري أريكتان كبيرتان، طاولة صغيرة يضع عليها أغراضه، وطاولة مستديرة كبيرة ركنت في الزاوية اليمنى، عشرات اللوحات الزيتية تملأ المكان، بعضها على الأريكة، والبعض الآخر على الأرض، وأدوات الرسم كانت على الأرض وعلى تلك الطاولة الصغيرة التي توَسطت الغرفة.

كانت تلك غرفة للجلوس ومرسما له في آن واحد، كان المكان معبأ بأدوات الرسم المبعثرة زادته لمسة فنية جميلة فهمت من خلالها أنه يرسم بشكل يومي، إنها فوضى فنية، وجنون فنان، عالم انعزالي بامتياز يغلب عليه الهدوء بعيدا عن المدينة وكل الناس.

المكان الأمثل إن كنت تبحث عن الإلهام والهدوء والبدايات الجديدة.

مشهد أشعَرني بالحنين لأيام سأقْضيها أرسم مع دانيال هنا بين هذه الجدران.

تمعنت في كل تفاصيل الغرفة التي كان أثاثها بنيا فاتحا، وجدرانها مطلية بالأرجواني الداكن، أحببت ذاك اللون، أرجواني كالكدمات التي تغلف قلبي.

أحببت تلك الغرفة لأني لمست فيها روح دانيال، على ما يبدو فهو شخص مرتب جدا، لا توجد ملابس مبعثرة ولا أوساخ، المكان كان جميلا ونظيفا.

عكسي أنا فقليلة هي الأيام التي تكون فيها غرفتي مرتبة ونظيفة.

لوحاته الموجودة في الغرفة سرقت قلبي كما فعل هو منذ أعوام، مناظر طبيعية لحقول، وغابات وبحار وجبال... أبدع في خطف الملامح من الطبيعة ومحاكاتها على أوراقه، بهدوءها وغضبها، برمالها وأمواجها، وصورتها... الطبيعة التي كان دانيال يرسمها أجمل من التي أراها بالعين المجردة، لأنه رآها بعين الفنان، فخلقها في أبهى حلة.

لوحات لأشخاص لا أعرفهم يبدو أنها طَلبيَّات من بعض الزبائن، وجوه أبدع في تجميل قبحها وتحسين جمالها من كل الزوايا، لا أستطيع أن أرسم أي شخص، لأني أرسم ما أراه جميلا حتى وإن كان بشعا في نظر المجتمع، لكن عندما يرسم دانيال لوحة لأي شخص يختفي القبح ويركع الجمال في حرمة ريشة رسام لامست أفكاره المِثاليةَ متعاليةً عن الواقع ومتغاضية عن بشاعته ، ووجدت أيضا صورًا لقطط وعديد الحيوانات الأخرى، مهلا... هناك أيضا عصافير حتى الحيوانات أبدع في رسمها، شعرة بشعرة إلى أن يكتمل فراء القط الناعم، وريشة بريشة ليكتمل الطاووس المتعالي المتباهي بجماله باسطا ذيله بكل غرور، مثل دانيال تماما.

لوحات طبيعة صامتة، لكنها في الواقع ليست بصامتة، كل انحناء فيها يروي قصة نجاح، كل قطرة طلاء تعكس ارادة فنان وعزيمة تفتحت كوردة بين الأشواك.

لقد أبدع في كل الأساليب الفنية، الحديثة والكلاسيكية.

أنا انبهرت بعشرات اللوحات التي كانت أمامي ونسيت تعبي وحزني وتوتري.
لا يجدر بي أن أقول عن نفسي فنانة، ولا يجدر لأي كائن مهما كان أن يقول أنه فنان، حتى دافنشي[47] ورامبرانت[48] لا تقارن لوْحاتهما بما أراه الآن.
دانيال هو الفنان والمبدع الوحيد بدون منازع، لا مجال لمقارنته معنا نحن الرسامين الهواة.
كلنا مبتدئون في حضرته، وهو سيدنا وسيد كل المدارس الفنية من قبل بداية التاريخ. تاريخ الفن هو دانيال وهو مستقبله ونجمُه المشع الساطع، لا قبله ولا بعده، نعم أنه أسطورة الفن القديم و المعاصر.
كم أتمنى البقاء في هذه الغرفة والتحديق في هذه اللوحات إلى أن تنتهي الحياة.
هذا المكان هو جنة للمبدعين والعاشقين للرسم مثلي. أخيرا وصلت للجنة التي طالما حلمت بها.
بدت على دانيال ملامح الارتياح، وفجأة قطع دانيال لحظة تأملي وقال:" يمكنك الجلوس في أي مكان يريحك."
ابتسمت وجلست قبالته أحدق له بإبتسامة عريضة منبعثة من شرايين قلبي.
لم أتمكن من النظر إليه مباشرة بسبب حالة التوتر، فأنا لم أوقع أن يكون لقاءنا الأول كهذا، بدون تلك القبلات الحارة والجوٍ الرومانسي والكلام المعسول المبالغ فيه مثلما تخيلته، ظننت أنه سيقدر مجهوداتي على الأقل، لكنه لم يتفوه بكلمة واحدة وهذا ما يحيرني.
نظرت إليه، ثم بادلني نفس النظرات، لم أجد أي شيء لأقوله، لكن في تلك اللحظة كل ما أردت فعله هو توبيخه بسبب ما اقترفه في حقي من ذنوب.
أما هو، فكان يرميني بنظرات ثاقبة لم أتمكن من معرفة سوى إن كانت نظرات تعجب وإجلال للتضحيات التي تكبدتها من أجل العثور عليه.أم هي نظرات كره يخفي وراءها تساؤلاً عن سبب قدومي؟
هل هو سعيد أم حزين؟

[47] دافنشي : ليوناردو دافنشي رسام إيطالي من عصر النهضة.
[48] رامبرانت : رسام هولندي من عصر الباروك.

هل أُفسحُ مجالا للحوار؟ لكن ماذا سأقول، خصيصا أني لا أعرف ماذا يدور في رأسه؟
لكن الشيء الوحيد الواضح وضوح الشمس أنها ليست بالمفاجأة السارة وكم هو غير مرغوب بي في هذا المنزل.
بعد صمت جاف دام لدقائق، نطق دانيال أخيرا قائلا:" أنا حقا آسف عن كل ما بدر مني... لم اتمكن من القدوم. "
ضحكت فور سماعي جملته الشهيرة تلك وابتسمت إبتسامة ساخرة، عذر أقبح من ذنب كالعادة، لكني في النهاية سأسامحه حتى وإن لم يعتذر، فقد تعودت على تصرفاته الخرقاء لأني فهمت دانيال وفهمت تصرفاته التي لا يوجد أي تفسير منطقي لها، كل ما يريده هو أن يتعالى ويحس أنه الآمر والمسيطر.
لم أكن متأكدة ان كان يريد مني البقاء أو الذهاب، فلم نتمكن من تجاذب أطراف الحديث، فكل منا صامت يحدق بالآخر كأنه كائن غريب، كأننا لا نعرف بعضنا ولم يسبق لنا ان رأينا بعضنا.
قدومي لم يكن صائبا ولا جدوى منه وعلمت انه لا يوجد لي مكان في قلب دانيال الذي لم يجهد نفسه بمحادثتي.
علي الذهاب ليس لدي حل آخر فقلت:" يجب أن أذهب، سررت برؤيتك، لكني مجبرة على الذهاب."
استغرب دانيال من عجلتي وقال :" لما العجلة، أنت تقطعين علي لحظة تأمل حلمت بها منذ أن حدثتك أول مرة ...أ حقا سترحلين ... وبكل هذه السرعة، بعد أن تكبدت مشقة السفر للقدوم إلى هنا."
فقاطعته قائلة :" أنا لم آتي من أجلك لدي العديد من الأمور التي يجب ان اقوم بها وأظن أنه لا يوجد لي مكان في عالمك الصغير هذا وبين لوحاتك . "
فضحك واستطرد قائلا : " كلانا نعلم أنك أتيت من أجل موعدنا وقطعت كل هذه المسافة من أجل رؤيتي، لكن أنا الذي تهربت من رؤيتك مثل كل مرة، أنا آسف، حقا آسف، لن تفهمي تصرفاتي، لن تفهمي لماذا فعلت هذا، تعلمين أني لا أستطيع التنقل لذلك طلبت منك المجيء ... أكرر اعتذاري . "
ساعتها اقتنعت أن خطتي قد نجحت بالفعل ودانيال طلب مني البقاء معه،

فابتسمت، وفرحت وعلمت أنه حقا سعيد لرؤيتي غير أن الموقف كان غير ملائم.
فرحتي بلقائه لا توصف، وزاد حجم فرحتي عندما نظر في عيني وقال :" أنا حقا أحبك، لم أتمكن من أن أنساك رغم محاولاتي... لكني كنت خائفا يجب أن تتفهمي تصرفاتي، اقبلي اعتذاري عزيزتي وأنا أعدك أنه سيكون الاعتذار الاخير لانني لن أرتكب حماقة أخرى تحطم قلبك. "
شعرت بارتياح فور سماعي لهذه الاعترافات التي لمست فيها الصدق والألم في كل كلمة أخرجها من فمه فحضنته قائلة :" دانيال، لي الشرف أن أكون حبيبتك، ولي الشرف أن أتواجد في منزلك بين كل هذه اللوحات الفنية، رغم اني كنت غاضبة من تصرفاتك، ومن معاملتك لي، لكن الآن و بعد ان قابلنا بعضنا اطلب منك شيئا واحدا، أريدك أن تعطيني فرصة اثبت فيها مدى حبي لك ومدى صدقي وإخلاص مشاعري. "
فقال بينما كنت أحتضنه:" قدومك إلى هنا وكل التحديات التي قمت بها هي أكبر دليل على محبتك لي، كم أنا محظوظ لانك حبيبتي، يا جميلتي ستجعلينني أسعد رجل في العالم. "
ثم ابتسم واضاف :" بالمناسبة لوحاتك غاية في الجمال والابداع مثلك يا عزيزتي."
سعادتي كانت لا توصف عندما قال أنه يحب لوحاتي أيضا.
وهكذا بدأنا بالحديث ونسينا ذلك الموقف الذي جعل كلا منا متوترا، وأخذ دانيال يحدثني عن مشاريعه المستقبلية وعن المعارض التي سيعرض فيها في القريب العاجل وقال :" أريدك أن تكوني بجانبي في كل المعارض التي سأقيمها، في كل الأماكن التي سأزورها، أريد أن يراك كل العالم معي، أريدك أن تكوني زوجتي التي ستجعلني فخورا. "
هذا هو الكلام الذي قطعت كل تلك الكيلومترات لسماعه، مخططي يسير على أفضل وجه، دانيال يريدني أن أكون كل شيء في حياته، ومنذ هذه اللحظة سأسعى للتحكم في كل شيء.
حدثني عن عائلته، وعن أصدقائه، وأخذت المواضيع تتتالى الواحدة تلو الأخرى وسعادتي لا توصف، وشهوتي وتوقي لكل تلك الأحاسيس الرومنسية يزيد، تمنيت أن أنقَضَّ عليه وأُقبله، لكني لا أستطيع.

سألته بينما كان جالسا في حضني أداعب شعره الكستنائي وأمرر أصابعي بين خصلاتهِ الناعمة:" عزيزي هل تريد الخروج معي، لقد أعددت برنامجا مناسبا لموعدنا الغرامي الأول، صدقني الجو سيكون ممتعا سيروق لك الأمر."
فأجابني :" في الواقع أحبذ البقاء بالبيت، كما ترين المكان شبه معزول لا يوجد أي اماكن لنزورها في هذا الحي الشعبي البسيط، وسيتطلب الكثير من الوقت للوصول إلى المدينة، بالاضافة الى أني لا أشعر بالراحة عندما اتواجد في الأماكن المكتظة..."
وأضاف بصوت خافت خجول :" بسبب حالتي . "
كم تمنيت أن يخرج معي لكني أقدر موقفه.
حديثنا ذاك جعلني احبه اكثر مما كنت أصور، فالحديث معه كان جد ممتع، تمنيت أن لا ينتهي.
دانيال أيضا كان مستمتعا بحديثنا، عيناه كانتا تشعان وتلمعان كالألماس من شدة الفرح.
شعرت بالجوع بعد حديثنا الشيق وتذكرت أني لم آكل أي شيء منذ الصباح، فقلت لدانيال :" لنذهب لأحد المطاعم فأنا لم أذق شيئا منذ الصباح، إني أموت جوعا. "
فقال: " أنا أيضا لم أتناول فطوري، لكن لدي فكرة أفضل سنرسل طلبية للمطعم بما نريد وستأتينا إلى هنا ولا داعي للخروج والتسكع يا عزيزتي . "
فوافقت، رغم أني كنت حزينة لأن دانيال رفض الخروج معي. طلبت البيتزا وشرعنا بالانتظار.
بينما كنا ننتظر البيتزا، خرجت قاصدة دكان ذلك العجوز الطيب وسألني إن كنت قد وجدت الرجل الذي أبحث عنه، فأجبته بالإيجاب وشكرته مجددا ثم اشتريت من عنده بعض المشروبات الغازية لعلها تفتح شهيتنا .
عدت لبيت دانيال مسرعة، توجهت للمطبخ الذي كان مرتبا كغيره من أرجاء المنزل، كل الأواني نظيفة ومرتبة في رفوفها، إذا دانيال يحرص على أن يُبقي كل شيء نظيف وفي مكانه، لذلك فهمت أنه علي أن لا أسبب أي فوضى في المطبخ.
أعددت الطاولة. وضعت الكؤوس، وقارورة الماء والمشروب الغازي والمناديل الورقية وبقينا ننتظر البيتزا.

دانيال لم يمانع كل هذا ولكنه كان متعجبا من اندفاعي لأني كنت أتصرف بحب وتلقائية وكل أريحية كأنني في منزلي، تصرفاتي جعلت دانيال يشعر بإرتياح هو الآخر لاحظت أن دانيال صار يبتسم والفرح يتطاير من عينيه المتلألئتين، لم أعد ذلك الضيف الثقيل، تصرفاتي كانت تعبر عن مدى حبي له، حاولت أن أكون لطيفة قدر المستطاع، وأريه مدى إهتمامي به. يا ليته يعرف كم احبه...

وصلت البيتزا أخيرا.

ناديت دانيال، فجاء يعرج ببطء وصعوبة من غرفة الجلوس إلى المطبخ وكنت أتتبع خطواته إلى أن وصل إلى المطبخ.

أعجبته الطاولة التي أعددتها من أجل الغذاء، رغم أنها كانت بسيطة، شكرني على كل ما فعلته من أجله، لقد كان سعيدا جدا، لأنه وجد شخصا يهتم به إلى هذا الحد.

راقبت الطريقة التي صعد بها على الكرسي بترنح وصعوبة تامة وتخيلت صعوبة حياته والعوائق التي يتعرض لها يوميا وطلب مني أن أسحب الطاولة إليه أكثر حتى يجلس بإرتياح، ففعلت ثم جلست قبالته فقال:" لا... اريدك ان تجلسي بجانبي وتساعديني على الأكل إن كنت لا تمانعين، فكما ترين انا عاجز عن الأكل بمفردي بسبب الظروف. "

فرحت لأن هذا ما أريده هذه هي الخطوة الأولى، إقتربت منه قدر المستطاع وجلست بجانبه و قلت :" طبعا حبيبي بكل سرور."

أخذت أطعمه، إنها المرة الأولى التي أطعم فيها شخصا في حياتي، إن إحساس غريب نوعا ما لكنه أعجبني، تتوقتُ لهذه اللحظة منذ سنوات صرت أتحكم بأكله أخيرا فأنا الوحيدة القادرة على إطعامه، رغم أن دانيال لم يكن متعودا على أن يطعمه شخص غريب، لكنه تقبل الامر، فليس لديه خيار آخر، بعد ذلك ناولته المشروب الغازي وسقيته كأنه طفلي، كأنه لعبة بين يدي .

ثم طلب بعض الماء...

فأعطيته الماء بكل فرح قائلة :" بكل سرور عزيزي دانيال لك ما تريد."

أحسست كأن دانيال طفلي الصغير الذي يجب أن أهتم به.

وشعرت بنشوة بمجرد القيام بهذه الأمور، أستطيع أن أواصل إطعامه لبقية حياتي وسأستمتع بذلك، لن أفرط فيه مهما حصل.

تذوقت معنى المسؤولية لأول مرة في حياتي.
أحسست أنني مسؤولة، أني شخص فاعل ذو قيمة.
أحسست أني الأساس.
وفي الوقت نفسه علمت أن تلك المسؤولية التي رحت اتباهى بها لن تكون سهلة.
إنتهينا من الأكل أخذت، المنديل ومسحت له فمه.
عندما لمست شفتاه، كم تمنيت تقبيلهُما، لكن لا يجب أن أفعل ذلك ودانيال لم يُلَمِّح إلى أي شيء جنسي. لكني لم أتمالك نفسي، وعانقته.
لم يقم بأي حركة، واصلت معانقته وتمنيت لو يتوقف بي الزمن في تلك اللحظة وابقيه في حضني حتى يفنى العالم كله.
ما أطيب رائحته، وما أنعم بشرته.
وضعت رأسه بين يديّ، وأخذت أتحسس شعره الناعم، ثم قبلته من جبينه قبلة حارة وقلت:" أحبك، أرجوك كن ملكي إلى الأبد."
كان ينظر إلى من دون أن يقول أي كلمة، لمسني وشعرت بقشعريرة تسري في كامل جسمي كان إحساسا إيروتيكيًا جعلني أذوب، ظننت أن شيئا مميزا على وشك أن يحصل لكنه سألني :" لماذا تحبينني إلى هذه الدرجة؟ "
لم أجد إجابة تليق بسؤاله هذا، ولم أجد أي شيء لأقوله فبالطبع دانيال لا يعلم مقدار المعاناة التي عانيتها حتى وصلت إليه، لا يعرف اني امضيت سنوات أتخيله قبل أن نعرف بعضنا. لا يعرف أني أعاني من شذوذ جنسي يدعى الاكروتوموفيليا.
فكيف لي أن أجد اجابة تقنع دانيال بعكس ما يدور في ذهني فأجبته عن سؤاله :" لأننا متشابهان عديد الأشياء، احبك لأنك تذكرني بنفسي، أحببتك منذ المرة الاولى التي رأيتك فيها...لن اتركك مهما حصل، ثق بي."
وواصل طرح أسئلته في إستغراب :" لكن لماذا أنا من بين كل رجال العالم؟ هل أنت متأكدة من قرارك، حياتك لن تكون عادية مع شخص مثلي، ستُكرِسين وقتك للإعتناء بي، رغم أني تعودت على القيام بمعظم الأشياء وحدي لكن ستساعدينَني في الكثير من الأشياء... لن يكون الأمر سهلا."

نظرت إلى عينيه مباشرة وقلت :" إنه القدر الذي إختيارك من بين كل الرجال، القدر الذي جمعنا ولن يفرقنا، سأتعود على التعايش معك وسأسهر على راحتك الدائمة... أعدك. "

هكذا مر لقاؤنا الأول الذي مضت عليه بضعة أيام، لقاء حوَّل حياتي ليوفوريا[49]، وجنون رغم كل المعاناة التي مررت بها غير أننا لم نعش لحظات حميمية مع بعض، لكنني انتشيت وأشبعت جزءا من شهواتي، أو ربما كنت قد أشبعت ذلك الجانب السايكولوجي المضطرب.

أفهم أن دانيال كان متضايقا لذلك لم نتمكن من القيام بأي شيء حميمي، ربما لم يكن مستعجلًا، أو ربما لم يكن من اللائق أن نمارس ما يحلو لنا في اللقاء الأول، أفهم أن تصرفاته كانت انطوائية، فقد دخلت حياته فجأة بدون استئذان وفرضت وجودي كالقضاء الذي لا يمكن رده، لكنه سيتعود على كل هذا بمرور الوقت. اتمنى أن يتقبل وجودي في حياته ويجعلني جزءا منها، فلقائنا حل العديد من العقد ومكنني من فهم طريقة تفكير دانيال الذي أصبح بدوره واقعا في حبي،كسبت ثقته وسكنت عقله وسيطرت على كل خلايا دماغه. أصبح متلهفا كالطفل الصغير للقائي مجددا.

لم يعد قادرا على إخفاء محبته، كان في كل مرة يراسلني فيها يطلب مقابلتي, وانا كنت استمتع بالحاحه الشديد على قدومي. وافتعل الأعذار لعدم القدوم وجعله يشتاقني أكثر لدرجة الجنون.

استلقيت في السرير أشرب ما تبقى من قارورة الخمر التي فتحتها البارحة وأخذت أفكر في دانيال، فبعد أن أيقنت حقا أنه قد وقع في حبي قررت أن أتواضع وأزوره بعد اسبوع.

ليتني أراه الآن، ولكن التريث واجب وإلا سيفسد الملعوب كله، عقلي يعيد تشغيل شريط مقابلتنا ويقول ليتني انتهزت الفرصة وقبَّلته من تلك الشفاه، أو داعبت اطرافه قبَّلتها، كان هناك العديد من الفرص لكن لم تكن لدي الجرأة الكافية للمسه لفعل كل ما كنت أفكر به،لكن التريث كان واجبا يجب عليه هو أن يقوم بها كما جرت العادة، لاني دائما العب دور البريئة، لذلك سأكتفي بالانتظار إلى أن يحين الوقت ويحادثني دانيال عن شهواته وكل الحب الذي يكنه لي.

[49] يوفوريا: حالة سعادة غامرة تعرف طبيا على انها حالة ذهنية وعاطفية يشعر فيها الشخص بالانتشاء.

في هذه الفترة، أصبحت علاقتي مع دانيال مثالية، كنا منسجمين لدرجة جعلتني أؤمن بأننا خلقنا لبعضنا.
سيكون دانيال في حضني بعد ثلاثة أيام من الآن .
أمضيت هذه الأيام نائمة، حتى وإن استيقظت اهرب من الواقع إلى أحضان أحلام اليقظة التي ألاقي فيها دانيال، رغم اننا كنا نتحدث يوميا ونتراسل بتلك الرسائل القصيرة لبضعة دقائق في اليوم.
دانيال أيضا كان ينتظر قدومي بفارغ الصبر لم يعد يتمالك نفسه، إذ قال لي إنه يريدني أن اقضي معه بضعة أيام، وسنغتنم العطلة الصيفية ونذهب لعديد الاماكن ونقضي عطلة أشبه بالحلم الجَّلي.
سوف نذهب للبحر، وسنزور عديد المعارض الفنية، سنستمتع مع بعضنا ونعيش كل يوم كأنه آخر يوم في حياتنا.
أنا متأكدة أنه سيكون أفضل صيف في حياتي...مليئا بالمغامرات.
جاء يوم لقاءنا الثاني بعد أسابيع من الحرمان، بعد أيام من الانتظار سأرَاه مجددا واجعله يعبدني.
لم يكن من السهل علي أن أفتح موضوع مواعدتي لدانيال وتقديمه لعائلتي وذلك لأسباب كثيرة.
فمثلا أمي لن تتقبل العلاقة كلها مهما بررت لها مدى حبي وتعلقي به، فلن أخفي عليكم أنها سطحية كمعظم الناس وستنعتني بالجنون فقط لأني أحب شخصا لا تتوفر فيه الصفات الزوجية التي حددها المجتمع، أما بقية العائلة، بالطبع سيكون لهم نفس الانطباعات هذا إن لم يزيدوا الامور تعقيدا واستهزؤا بي، فهذا الحال مع أفراد عائلتي مجموعة غرباء يدعون اللطافة، يدعون قبولهم للآخر وخاصة يدعون تقبلهم لي.
لكن... الواقع مخالف لكل ذلك، طالما كنت مصدر خزي وعار لهم.
عار لمسته مرات عديدة لأني لم أكن مصدر فخر لهم مثل بقية أترابي، لأني لم أكن عادية أو مثالية، وأشعرني كل ذلك باليأس والإحباط اللذان كبرا بداخلي لأوقن بعد

كل الحروب الداخلية والصراعات التي عشتها أن الخطأ ليس خطئي ولا يوجد أي شيء لأخجل منه.
عديدة كانت المرات التي تعرضت فيها للإهانات والسخرية في الشارع عندما أكون رفقة أمي، فغالبا ما أمشي في الطريق وأسمع تلك العبارات المتنمرة، شخص أو مجموعة أشخاص رغم أني أعلم أنه ليس من اللائق وصفهم بأشخاص، يقذفونني بأحقر الكلمات الجراحة قصد الاستفزاز فتراهم يسخرون من وزني، أو ملابسي السوداء أو حتى المكياج الذي أضعه...
ومع مرور الوقت تعودت على التنمر الذي كنت أتعرض له في كل مكان أزوره حيث أني أغلقت أذني عن كل تلك العبارات وأمضيت قدما، لكن لم يكن الوضع نفسه مع أمي، حيث أذكر أن صبرها قد نفذ من كل ذلك التنمر وصار الوضع لا يحتمل بكل معنى للكلمة.
لا... تفكيركم ليس في محله، فإن تعرضت للتنمر على مرأى من أعينها لم تدافع عني بل اكتفت بتوبيخي ولومي، لومي على عدم تقبل المجتمع للآخر وعدم قبوله لأي شخص مختلف، لومي لأني لست شخصا عاديا لا يلفت الإنتباه.
خاصة كلما سألها أي شخص عن سبب وزني الزائد، ليس هذا فقط بل شعرت بالعار والخجل وكل أنواع التوتركلما سألها شخص عن سبب ارتدائي اللون الأسود، "هل ابنتك تعبد الشيطان؟".
"هل هي ملحدة تشرب دم القطط وتستحم مرة في السنة؟ ... فعبدة الشيطان يقومون بذلك".
لكن أمي وكذلك كل أفراد عائلتي عجزوا عن الصمود أمام دناءة المجتمع، عجزوا على أن يدافعوا عني، أو على أن يقتصوا لي... أو حتى أن يكونوا في صفي.
بل اكتفوا بمعاملتي كالمجنونة.
حتى إن لم يقروا بأني مجنونة، كنت أرى ذلك في تصرفاتهم يوميا.
لما المشقة إذا، لا داعي لاقحامهم في حياتي الشخصية لأنه لا توجد أي جدوى من مصارحتهم بأمر دانيال الذي سيرفضونه مثلما رفضوا غيره.
لذا كان من السهل على أن أكذب وأقول أني ذاهبة لقضاء بعض الأيام في منزل احد اصدقائي .

وهكذا حسمت الأمر.
لم أكن أعرف عدد الأيام التي ساقضيها مع حبيبي، ربما ثلاثة، أو أربعة، أو ربما أسبوع كامل لما لا.
لم نحدد عدد الأيام إلا أني تمنيت أن لا أعود للمنزل ابدا.
أن ابقى في أحضان دانيال إلى الأبد.
لم ارد التفكير بما سيحصل عندما اذهب لبيت دانيال، بل هذه المرة وعكس المرات السابقة سأدعُ الصدفة تلاقيني بعبدي الجديد دانيال.
جاء اليوم لقائنا الثاني ودانيال لم يتمكن من النوم من كثرة تلهفه لهذا اللقاء، اتفقنا على أن آتي لمنزله فور وصولي فهو كالعادة يدَّعي أنه لا يستطيع القدوم.
لبست ثوبا أسود طويل مزركشا بأزهار صغيرة.
وقبعة دائرية سوداء كبيرة... موضة غريبة ومثيرة للانتباه، فكل الفنانين يرغبون بلفت الانتباه بطريقة لبسهم المختلفة.
حزمت بعض أمتعتي التي سأحتَاجها وملابسي التي سأَلْبسها في الأيام المقبلة,
وأطلقت العنان لمغامرة جديدة.
توجهت للمحطة على الساعة السادسة صباحا، لأني لن أحتمل الحرارة التي ستتصاعد تدريجيا وتُذيب كل طبَقاتي الدُّهنية.
جلست في المقعد الخلفي كالعادة وعقلي يسبح في تيارات من الأحلام التي يفصلني عنها ساعتان على الحد الأقصى.
تحملت مشقة البحث عن سيارة تاكسي ككل مرة. لكني لم أمانع هذا العذاب هذه المرة، معاناة حلوة صارت أشبه بالطقوس التي كان علي تحملها للوصول إلى مَنيّتي.
وصلت أخيرا للحي الرمادي الكئيب.
لم يعد كئيبا بعد الآن لأن حبيبي يقطُن هناك، بل أصبح مكانا أشبه بالجنة بالنسبة لي.
في طريقي اعترضني بعض الناس الذين لم يقولوا شيئا غير التحديق، كأن الكل يعلم أني دخيلة على هذا الحي، نساء تختلسن النظر لي ولملابسي، مجموعة من الرجال يتهامسون، لا أعلم ماذا يقولون... لكن نظراتهم وهمساتهم جعلتني أشعر بالقلق.

أخذت أسرع بطريقة تزامنت فيها طقطقة حذائي مع دقات قلبي التي قطعها فجأة صوت رجل غريب قادم من ورائي :" يا سيدتي... يا سيدتي..."
لكني واصلت تجاهله وحاولت الإسراع أكثر، غير أنه لم ييأس وواصل المناداة علي.
فالتفت له أخيرا، فقال :" صباح الخير... أنت لست أصيلة هذه المنطقة... إنها المرة الأولى التي أراك فيها."
فأجبته :" أجل أنا لا أقطن هنا."
فابتسم وحياني قائلا :" مرحبا بك في هذا الحي، أتمنى أن يعجبك المكان... "
فقاطعته قائلة :" شكرا لك."
وواصلت السير متجنبة حوارا عبثيا فارغا .
هرولت إلى أن وجدت نفسي أمام منزل دانيال.
طرقت الباب، فتح لي دانيال الباب وعيناه تشعان فرحا.
عانقته قائلة :" داني حبيبي، آه لو تعرف كم اشتقت اليك. "
فقال :" وانا ايضا، لقد نفذ صبري."
دخلنا البيت وجلسنا في غرفة الجلوس كالعادة، ناداني دانيال وطلب مني أن أستلقي بجانبه قبل أن نبدأ محادثاتنا.
وضع رأسه على صدري، فابتسمت، بينما كنت أداعب شعره الناعم كالعادة فهو يحب ذلك وقلت :" أخيرا التقينا من دون أي مشاكل أو عراقيل، لا أصدق أنك في حضني."
عانقته وأخذت أُرَبِّتُ على كتفه وأضفت :" أنت أفضل هدية أرسلت لي من السماء، أنت هبتي التي تصارعت الأقدار وتقاتلت النجوم وتصادمت السموات من أجلها أريدك أن تمضي بقية حياتك في حضني."
فقال :" وأنا أيضا يا حبيبتي هذا ما اريده، سأكون ملكك إلى الأبد. "
ثم اضاف دانيال:" هل لديك برنامج لليوم، أعلم أنك دائما ترسمين مخططات جميلة للقاءاتنا... وبالمناسبة أتمنى أن لا تتضمن أفكارك هذه المرة الخروج والاحتكاك

بأشخاص الجدوى الوحيدة من وجودهم هو تعكير صفو مزاجي ورَمْقِي بنظراتهم المَقيتة المشمئزة ".

واصلت التأمل في عينيه اللذان كان لونهما الأزرق هادئا يتوهج كاللآلئ، فقد تعودت أن أفهم نفسيته حسب تغير لون عينيه من الأزرق الهادئ المشع إلى الأزرق القاتم وصولا إلى الرمادي الداكن، وانتقل إلي الفرح الذي رأيته في عينيه وسمعته في نبرة صوته الهادئة اللطيفة وقلت :" لا... هذه المرة فقد اخطأ حدسك، فقد تعودت على الأمر لأنك في النهاية لن تخرج معي مهما رسمت من خطط وأعددت من أفكار، أنت تحرم نفسك من اكتشاف العالم والتمتع به، إنه أمر محزن ومخزٍ لفنانٍ عاشق محب للحياة مثلك. "

فقاطعني فجأة :" أنا في الواقع لا أخرج إلا إذا كان لدي معرض أو حوار في احدى البرامج، وغالبا ما يأتي الصحفيون ويحاورونني هنا في منزلي بين هذه اللوحات، لذلك لم أتمكن من القدوم لمقابلتك، من الصعب أن أخرج من هذه العزلة، فالمكان حقا معزول، معزول عن كل ما تمتاز به الحياة الاجتماعية، جيراني لطفاء للغاية، أقضي وقتا ممتعا معهم عندما أشعر بالملل، وأنا تعودت على هذه العزلة وهذا النمط من الحياة، ظننت أنك لن تتقبلي الأمر في البداية ولكنك كنت عكس كل الناس الذين حولي، لا ادري مالذي أعجبك أو مالذي جذبك في شخصيتي وفي شكلي خاصة، لآخر لحظة لم أتَحقق من صدق مشاعرك تجاهي إلى أن رأيتك امامي ذلك اليوم ... ومنذ ذلك الحين كل شيء تغير في حياتي رأسا على عقب. "

سكت قليلا ثم أضاف ساخرا بنفس ذلك الصوت السعيد :" حقا يا لكي من مجنونة. "

فقلت والابتسامة لم تفارقني لأن حديثه كان أكثر من ممتع، شعرت بأني كنت أوَّثق حياة رسامي المفضل واعاينها بأدق تفاصيلها والفوضى التي تحوم حولها، ذلك الجانب من الكواليس الذي لم أره في كل محادثاته التي أجراها :" لقد انتبهت لكل هذا، لذلك لم أعد أرغب في قضاء ليال بيضاء اخطط فيها لافكار وهمية لن تلتحم بالواقع مهما حاولت، بل ستبقى معزولة في مخيلتي مثلما تنعزل أنت بين جدران هذا المنزل، فقدت الأمل من كل ذلك. "

فاستغرب دانيال وقال :" أيعني ذلك أنك فقدت الأمل مني؟... لا تقولي ذلك"

في الواقع لم يهمني كثيرا إن خرج دانيال معي أو مكثنا في المنزل طوال حياتنا لأني أردته أن يكون ملكي فقط لا ملك المجتمع والصحافة والمعجبين الذين يشترون من عنده اللوحات قصد الشفقة أو التبَاهي ليس إلا، فأجبته:" ليس منك يا عزيزي، كيف لي أن أفقد الأمل من الشخص الذي أحبه، هناك العديد من الأفكار الدرامية تدور في ذهني وأنت بطلها، لكن أغلبها لن يتحقق، لذلك لم أعد أرغب بإرهاق خلايا عقلي الذي سكنت في كل زواياه."

فقال ساخرا :" كلام شاعري، يعجبني انتقائك للكلمات والصور الشعرية التي تستعملينها، هذا كله سببه افراطك في قراءة الكتب."

فقلت وفقد طغى على صوتي بعض الحزن:" كم أتمنى أن تقول لي كلاما شاعريا كالذي أمضيت حياتي في قراءته، كالقصائد التي يكتبها شارل بودلير[50] مظلمة فصيحة ولكن مفعمة بالشهوة والاغراء.

ثم اجتاحنا صمت قاتل لأن دانيال لم يكن رومنسيا قط ولم يتمتع بطلاقة اللسان اثناء المغازلَة، لم ينطق بأي كلمة، للاسف فَرُوح الفنان التي فيه خلى منها الجانب الشاعري، أو الجانب الأدبي عموما .

كان ذلك الصمت بمثابة أمطار تتهاطل وتخمد نيران شهواتي. وتبعث أفكاري لرحِم العدم الذي انبثقت منه وهيمن عليها ذلك الفراغ المطلق، لا أعلم إن كان فراغا عاطفيًا ودانيال بين أحضاني، أو فراغا اجتماعيا يشكل ازمة في هويتي، وأزمة في التواصل مع المجتمع نتاجها الوقوع في هوة الاغتراب.

كل الأشياء التي هربت منها وقصدت تناسيها وجعلت دانيال تيعلتي الوحيدة للخروج منها وملاقاة شخص أضحي في سبيله وأفعل كل الأشياء التي أقسمت بأن لا أفعلها من أجل أي رجل كان، لكنه مازال صامتا مستمتع بالاستلقاء على صدري ومداعبتي لشعره، صمْت كئيب جمَّد الوقت وشل عقارب الساعة وجعلني أتوه في أفكاري وأتدحرج بين هضاب شكوكي الواعرة، لكن فجأة رن الهاتف، لكن دانيال اكتفى باغلاقه قائلا :" لن أدع الهاتف يفسد علينا لحظة جميلة كهذه."

ثم عاد للاستلقاء على صدري ة الاستمتاع بصوت العدم.

[50] شارل بودلير : شاعر وناقد فرنسي تمكن من استيعاب عديد التناقضات في شعره.

لكني قررت أن أكسر قيد الصمت الذي لجَّم أفواهنا وباشرتُ بالقول:" أريد فقط أن أراك ترسم، أريد أن أقضي أياما أتمعن في كل الآليات التي تستعملها عندما ترسم، وكيف تخلط الالوان، وتمسك الفرشاة بقدمك، هذا كل ما أريد القيام به، أريد أن أكون تلميذتك ذلك سيمنحني طمأنينة كبرى وسيجعلني أفرح."

فضحك دانيال وقال:" أخيرا ... أمنية معقولة، وأبشرك يا عزيزتي أن أمنيتك هذه ستتحقق في الأيام القليلة القادمة، فمن المفروض أن أتلقى طلبية رسم بعد يومين أو ثلاثة وستشاهديننني أرسم إلى أن تملي من ذلك".

أخذتْ يدي تزحف من فوق شعره متجهة إلى وجنتيه وأخذت أتحسس وجهه، وقلت:" ليس هذا فقط..."

فقال في استغراب من أمره:" أهناك شيء آخر؟ أمنية تعجيزية أخرى يصعب علي تحقيقها لحبيبتي؟ عزيزتي أنا لست مارد المصباح السحري."

فأضفت ضاحكة:" لا في الواقع كل ما في الأمر هو أني أريد أن أجلس هنا على الاريكة وأراقبك وأنت تؤدي كل أعمالك المنزلية، أريد أن أتقاسم معك كل لحظة، أن أعانقك وأن أقبّلك أن أبقيك في حضني."

فأجابني متعجبا:" هذا غريب، لأنني لا أستطيع القيام بأبسط المهام المنزلية بمفردي، فكما ترين حركتي محدودة وبالكاد أقدر على المشي، وأقضي كل يومي مستلقيا على الأريكة أو قابعا في كرسي المتحرك ذاك بانتظار أمي أو أي شخص آخر ليقومَ باطعامي أو مساعدتي إن اقتضت الحاجة... وبحكم أنك ستقضين بعض الأيام برفقتي، طلبت من أفراد عائلتي وأصدقائي أن لا يأتوا ويزعجوني، لانك هنا بجانبي، ولن اهتم بالعالم كله لأنك معي ... ظننت أنك تعلمين كل هذا فأنت التي سأعوّل عليها في هذه الأيام، آسف ان لم أخبرك بكل هذا فقد تعودت على أن تفهمي تصرفاتي من دون أن أتفوه بكلمة، فكما ترين أنا قليل الكلام، فهل ستكونين بجانبي عندما أحتاجك؟"

فرحت فور سماعي تلك الكلمات وقلت:" هذا ما أردت سماعه، حتما سأكون بجانبك فذلك هو السبب الأصلي لتواجدي هنا، أريد أن أساعدك في كل شيء يا عزيزي وأن أدير كل شيء وأتحكم في كل شيء."

رفع رأسه ونظر إلى وقال بصوت خافت:" كم هذا جميل. "

دانيال مازال مستلقيا على صدري، اكتفى بالنوم في حضني ومداعبة وجهي بطرف يده، تحسس وجهي ثم قال:" لم أرى بشرة في مثل نقاهة بشرتك من قبل ... ناعمة جدا."

ثم قبلني من وجنتي .

رفع طرف يده نحو أذني التي أخذ يتحسسها أيضا، بعدها لمس شعري قائلا:" يعجبني شعرك ... ناعم وأسود ... ملامحك ايطالية."

ثم قال :" الآن... دعيني أتأمل عيناك."

فقلت :" ماذا هناك؟"

فقال :" انزعي النظارات."

رميت بالنظارات على الأريكة المجاورة، بينما بدأ دانيال بمداعبة عيناي بلطف ثم قال:" هكذا أفضل... أنت أجمل بكثير دون نظارات، دعيني أتأمل جمال عينيك."

فابتسمت بينما واصل تقبيل جبيني، وجنتي، عيناي ...

فقلت:" أحبك."

دقق في كل ملامحي كأنه يدقق بلوحة فنية، حتى رموشي المستعارة وحاجباي وظلال العيون التي كنت أضعها فوق جفوني.

بعدها اكتفى بوضع رأسه على صدري ثم قال:" عزيزتي... أنا متعب وأرغب بالنوم."

احتضنته وقبلت جبينه، أخذت أداعب شعره الذي لاحظت ظهور شعرات من الشيب فيه .

لم أنتبه لهذه الشعرات من قبل... ذلك أمر عادي لأنه يصعب رؤيتها دون تدقيق.

لقد كبر دانيال.

أذكر أول مرة رأيته في حياتي... كانت قبل خمس سنوات... في التلفاز.

خمس سنوات مرت في لمح البصر .

منها ما يقارب السنتين من البحث المتواصل وخيبات الأمل الذي لم أفقده.

وهاهو الآن أخيرا بين أحضاني يغط في نوم عميق.

ثم أغلقت عيني لأنعم ببعض السكينة.

في تلك اللحظة، لم أعد أتمالك نفسي فتواجده في حضني وبين يدي، فتح عينيه وقبلني قائلا :" أحبك."
ثم قرر أن يباشر بسؤالي عن نوع الكتب المفضلة لدي لعله يخفف لعله يطفي جوا حميميا على هذا المشهد، لكني لم أكن في مزاج جيد للحديث عن الكتب والتيارات الأدبية المفضلة فقلت مجيبة عن سؤاله السخيف الذي لم يُطرح في الوقت المناسب:" كل الكتب."
ثم سكتُ.
لكنه واصل الحديث قائلا:" هيا حدثيني عن نفسك... عن حبيبك السابق، عن كل الأشياء التي لم يسبق لنا وأن تحدثنا فيها ... سأترك لك المجال لتتحدثي عن أي شيء تريدينه."
وهذه المرة لم أتهرب من تلك المحادثة بل استسلمت لساعات من الحديث الشيق والمضحك عن شتى المواضيع .
في ذلك الحين وبينما كنا نتحدث ونضحك اقترح أن أعد شيئا للغذاء قائلا:" كل شيء تحتاجينه موجود في المطبخ، يمكنك إعداد أي شيء تشتهينه، فأنا بدأت أحس بالجوع، سبق أن قلت لي أنّك طباخة ماهرة. "
اصطحبته معي للمطبخ وواصلنا حديثنا عن الكتب والفن الكلاسيكي ريثما كنت أعد الطعام، وأيضا عن عشقي لرامبرانت الذي كان رسامي المفضل قبل أن يزيحه دانيال ويأخذ مكانه، بعدها تناولنا الطعام الذي حضرته للتو، وبدأت أتعود على إطعامه.
طبق واحد، شوكة واحدة وكوب واحد... أصبحنا نأكل من الطبق نفسه وبالشوكة نفسها ونشرب من الكوب نفسه... كأننا شخص واحد، كانت هذه المرة الأولى في حياتي التي أعيش فيها لحظة كهذه... نوع آخر من الحميمية، شعور من الصعب تفسيره، لقد صرنا واحدا منذ تلك اللحظة.
رغم أن الجو لم يكن عاطفيا أو رومنسيا كالذي تخيلته، كان مجرد فطور بسيط مكون من طبق مكرونة بالدجاج في مطبخ خلى من الأزهار ومن الشموع الحمراء المعطرة وموسيقى العشرينات والثلاثينات التي تنبعث من مذياع قديم إلا أني استمتعت، استمتعت بالطبخ لأول مرة في حياتي، استمتعت بالأكل وباطعام دانيال.

كل شيء كان مثاليا.
فور انتهائي من غسل الأواني قال لي دانيال :" سأطلعك على شيء سيثير اعجابك...فلتتبعيني. "
أخذت أتتبع خطواته البطيئة وأنا في حيرة واستغراب من أمري.
هل حضّر لي مفاجأة ما؟
هل سيغازلني... هل سيشبع كل شهواتي المتلهفة لجسده؟
بقيت أتساءل إلى أن وقفنا أمام باب أشار علي دانيال بأن أفتحه.
قمت بفتح الباب وأشعلت النور لأكتشف تلك المفاجأة.
كانت غرفة مليئة بالأثاث العتيق واللوحات القديمة، لوحات قديمة أصلية، أفضل من اللوحات التي كنت أرسمها، وأفضل بكثير من اللوحات التي كان يرسمها دانيال.
مكان خيالي أشبه بالحلم يعبق بعبير الماضي.
كالخرافات.
كأنها غرفة في إحدى قصور البارون، كأنني شخصية في احدى الروايات الفكتورية.
كأني في قصيدة شعرية.
كأنني في مسلسل تاريخي.
كأني لست على الكرة الأرضية...
عبرت ذلك الباب ولم أكن على دراية باني سوف أدخل آلة زمنية عادت بي لحقب مضت، هُمتُ الليل وأنا أتخيل نفسي فيها .
عندها، فهمت لماذا دانيال يحب لوحاتي، لم أكن أعرف أي شيء عن هذا الجانب من شخصية دانيال الذي لم أره في التلفاز ولم يفصح عنه هو الآخر في رسائله المختصرة باقتضاب، ولم أكن على علم بذوقه الكلاسيكي الرفيع.
كنت في دهشة يعجز اللسان عن وصفها أمام كل تلك الثروة الفنية التي لا تقدر بثمن، فالغرفة كانت غاية في الجمال والروعة، كأني في متحف اللوفر إلى أن أردف مبتسما:" ما رأيك ؟ هل مازال ذوقي تجاريا؟"
ضحكت من قوله ذاك وأنا أجيبه بكل فرح كأن الدنيا ضحكت لي وصارت راضية علي ومسحت كل ذنوبي:" كيف عرفت أني أظن أن ذوقك تجاريٌ ؟ ما هذه الغرفة

السرية دانيال؟ لقد سرقتْ قلبي مثلما فعلت أنت، تعرف نقاط ضعفي أمام الفن... هذا كنز، إن كنت أحلم فلا أريد أن أصحو، هل هناك شيء آخر لأكتشفهُ."
فقال مسرورا مثلي:" إنها ليست سرية، إنها غرفة كباقي غرق المنزل."
ثم أضاف:" أنت لم تكتشف أي شيء بعد."
دانيال كان كالمجرة التي أكتشف فيها في كل مرة نجما جديدا... وأنا كالثقب الأسود أردت امتصاص كل تلك النجوم.
اجتزنا الغرفة وأشار علي دانيال بفتح نافذة الشرفة، كانت تلك النافذة تطل على الحقل الذي كان وراء منزله، لم يكن هناك أي منازل أخرى تشوه تلك اللوحة الطبيعية بحكم أن منزل دانيال كان آخر منزل في الحي، أمامه تلك البطحاء الغبرة ووراءه هذا الحقل الجميل.
صافحتني نسماتٌ تسابقت على الدخول من الشرفة لترحب بي بين جدران هذه الغرفة التي حبس جمالها أنفاسي... كأني شخص منتظر منذ سنوات.
ياله من شعور جميل كأني قد ملكت الكون كله، بشُهبه المتسارعة وعجائبه وخفاياه وكل الغموض المحيط به. لحظات أشبه بالخيال، هكذا تماما تخيلت حياتي مع دانيال.
استطرد دانيال قوله:" كل ما في هذه الغرفة ورثته عن والدي، حبي للفن انطلق من هنا، فوالدي كان يتاجر باللوحات الفنية القديمة قضى عقدين من حياته في إيطاليا بين الفن والحضارة والأصالة، كذلك الأثاث القديم ... كان يجوب أوروبا كلها بحثا عن أندر القطع واللوحات، كان مولعا أشد الولع بالثقافة الغربية لذلك أسماني دانيال، اسم غريب عن ثقافتنا ولكنه فريد من نوعه، اسم يليق برسام ... وبعد وفاة والدي، أصرت أمي على الاحتفاظ بما تبقى من أثاث ولوحات وقطع فنية، وضعناها في هذه الغرفة التي قلّ أن يدخلها أحد... فأمي هجرت هذه الغرفة لكي لا تتذكر الماضي ووالدي الذي عشقته أمي ولم تنساه، أما بقية إخوتي لم يرثوا حب الفن الذي ورثته عن والدي لذلك لم يقدروا القيمة الفنية لكل هذه القطع، بل رأوها على أنها أكوام من الأثاث يساوي ثروة حقيقية متروكة، وعندما أصبحت أعيش بمفردي أصبحت هذه الغرفة مهربي الوحيد من العالم... أجلس هنا وأتأمل لساعات، وأبكي بين هذه القطع

الثمينة وأمارس التأمل، فهو كما ترين يا عزيزتي مكان مناسب للانعزال عن ضوضاء المجتمع وتصفية ذهني وجمع أفكاري التي شتتها لي هذا وذاك".
سكت لبرهة من الزمن ثم واصل حديثه بنفس التشويق، محافظا على نفس الابتسامة التي تدل على حنينه للماضي:" لوحاتك، تلك اللوحات الكلاسيكية التي ترسمينها تذكرني بماضي جميل لن يعود، هكذا بدأ حبي للرسم، فتلك اللوحات الكلاسيكية التي تدحرجت بينها في صغري عندما كان والدي يصطحبني معه لمحله، بعثت فيَّ الرغبة في أن أصير رساما... نفس الرغبة التي لمحتها فيك."
ثم أضاف بنفس النبرة التي لم تترك لي المجال للتعليق على كل ما قاله :" آه لوتعلمين كم كنت أشعر بالحزن عندما يبيع أبي إحدى تلك اللوحات، كنت أشعر بالأسى كأني شيعت جثمان أحد أصدقائي الذي لن أراه مجددا، ثم أعود اللوحات المتبقية وأتمعن بكل تفاصيلها، حاولت أن أرسم، كان شيئا أشبه بالمستحيل، كيف لي أن أرسم وليس لي يدين، حاولت أن أمسك القلم بفمي لكن ذلك كان صعبا... وما أسوأ أن تحس بالعجز فانزويت وبكيت في البداية، لأنني لن أتمكن من رسم لوحات يضاهي جمالها هذه القطع الفنية، لكن أبي أصر على أن لا أيأس
وأحاول ثانية، احساس العجز ذلك زادني اصرارا وعزيمة، ثم امسكت القلم بقدمي وساندني أبي وآمن بموهبتي قبل أن يتم اكتشافها، كان ذلك مريحا أكثر، ظللت أحاول، وأحاول إلى أن أصبحت ما أنا عليه الآن. "
فقاطعته قائلة :" افضل رسام في البلاد والعالم كله. "
فقال ساخرا :" دائما ما تبالغين، هناك العديد من الرسامين أفضل مني. "
تنهد ثم واصل حديثه:" حياتي كانت صعبة...ومؤلمة، رفضني الجميع ولم يرحبوا بي في الميدان الفني، لكني لم استسلم، لم يعد هناك شيء مستحيل بالنسبة لي. "
بعد كل تلك الاعترافات التي قالها، أخيرا وجدت مجالا للدخول على الخط ومشاركته في الحديث فقلت:" كلام مؤثر فعلا، لا أعلم ماذا أقول، أو ماذا أضيف بعد كل الذي قلته، عزيمتك هي أكثر شيء جذبني إليك منذ البداية، عزيمة لم أشهد مثلها من قبل، أنت دائما قدوتي في الحياة... لحظة واحدة عزيزي، سأُعد بعض القهوة ونمضي المساء في هذه الشرفة نستمتع بنسمات المساء اللطيفة ومن ثمة نواصل حديثنا الشيق، أريد أن أعرف المزيد عن طفولتك ومسيرتك الفنية. "

فابتسم قائلا:" حبيبتي، يسعدني ذلك سأروي لك العديد من القصص والمغامرات."
احتضنته وقلت:" أحبك. "
وذهبت مسرعة نحو المطبخ أحلق من شدة الفرح والسعادة.
كانت الستائر القرمزية الحريرية القاتمة تتسل لها أشعة الشمس لتخفف من حدة لونها الدموي، رائحة أزهار الياسمين العطرة امتزجت برائحة القهوة التركية الساخنة، كأنها رائحة أصيلة عتيقة خرجت من احدى اللوحات العربية العائدة لأواخر القرن التاسع عشر.
ركزتُ في كل تلك اللوحات التي تم قعت في الغرفة وخاصة في أطرها الذهبية العائدة للعهد الغوستافي[51] في الركن الأيسر من الغرفة انتصب مِحمل رسمٍ كبير وُضعت عليه لوحة من الحركة الانطباعية تحمل توقيع الرسام الألماني آرثر كامف[52]، رسم عليها رجل عجوز ذو لحية كثيفة يرتدي قبعة ومعطفا طويلا بدت كأنها ملابس صيد، أما الأثاث الذي كان في الغرفة كان كله عتيقا أرائك برونزية منقوشة، وأثاث من طراز لويس الخامس عشر كأني كنت أجلس في لوحة باروكية جُسدت على أرض الواقع، أما باقي الأثاث الذي احتلّ الغرفة كان متكونا من أريكة زرقاء عثمانية صغيرة وستائر بزينة يابانية علقت على الحائط الفيروزي المقابل وعلقت بجانبها أقنعة خشبية افريقية، تمثال روماني متوسط الحجم مصنوع من الرخام كان جزءه السفلي مفقودا، وبجانبه تمثال تابوت ذهبي وأسود لأحد الفراعنة، كان هناك أيضا طاولة خشبية عليها قطة سوداء بلورية وبعض الكتب العربية القديمة تعتليها بعض المخطوطات، خزانة على طراز الروكاي[53] وُضعت في الجانب الأيمن من الغرفة احتلت بضخامتها وعظمة زخرفها كل الحائط، لم يكن أي شيء بجانبها لينافسها في جماليتها...
كل العالم في غرفة واحدة.

[51] العهد الغوستافي: هو عصر حكم فيه غوستاف الثالث في السويد و قد كان عصرا مليئا بالأساليب الفنية و المعمارية الجديدة المستلهمة من الحركة الكلاسيكية الحديثة.
[52] آرثر كامف : رسام ألماني من الحركة الانطباعية واقترن اسمه بمدرسة دسلدورف للرسم.
[53] الروكاي: نوع من الزخرفات الفرنسية المعروفة بانحناءاتها و قد بدأت بالظهور في حقبة الباروك.

كل الحقب التاريخية قبعت مع بعض في هذه الغرفة العجيبة.قطع فنية لا تحصى ولا تعد ...وهكذا أمضيت مساءا كأنه رؤيا ارتأت لي في احدى الاسقاطات النجمية التي قمت بها.

جلسنا أمام تلك الشرفة وتحدثنا عن ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا الذي سيكون سعيدا ومشرقا، استمتعت بالنسمات الحاملة معها أزكى روائح الطبيعة من أشجار وأزهار، بينما انشغلت بالإنصات إلى حديث دانيال عن أسعد لحظات حياته بين اللوحات القديمة وعلى نجاحاته الساحقة وأهدافه التي حققها وأحلامه التي يهدف لتحقيقها.

"المهم أن تكوني معي وسنتحدى كل العالم".

"سنعرض لوحاتنا في معرض مشترك".

"سنكرس حياتنا للرسم".

"سننعزل عن العالم إلى الأبد".

حل الظلام بعد حديثنا الشيق الذي جعل الساعات تنقضي بسرعة.
ستكون أول ليلة أقضيها في بيت دانيال وبين أحضانه، لكن الغريب في الأمر أن دانيال لم ينطق كلمة واحدة بخصوص ممارسة الجنس، بقيت أنتظر دون جدوى إلى أن نسيت الأمر، نظرت إليه بنظرات شهوانيّة وحركات مثيرة، لكنه تعمد أن يتغاضى على تلك النظرات المشبعة بالشبق والحركات الفاسقة.
لماذا أنا دائما التي تقوم بالخطوة الأولى؟ لكن هذا ما علي فعله، فقلت ودقات قلبي تتسارع :" ألن نفعل أي شيء مميز الليلة، انتظرت هذه الليلة بفارغ الصبر يا عزيزي ؟"
فقال :" أنا متعب ... ربما في المرة القادمة، مازال لدينا متسع كبير من الوقت، أما الآن فأريد أن أنام، أريد أن أستلقي في حضنك ونشاهد التلفاز إلى أن أنام يا عزيزتي."
وهكذا ختمت ليلتي الأولى في أحضانه.
ثم انقضى يوم آخر لم يختلف عن سابقه، وقت ممتع لكن دون أي علاقة حميمية.
لم يعد دانيال مستاءا من تصرفاتي التلقائية الشهوانية المشاغبة، بل صار يضحك منها.
هكذا احتضنته كالعادة لأغرق في أحلام ايروتيكية ستنتهي بحلول الصباح.
غدا سأحسم الأمر، أما أن أنال ما جئت من أجله، أو أعود لغرفتي وعزلتي التي قد تكون اشتاقت إلي.
في صباح اليوم الموالي، جهزت فطور الصباح كالعادة، ساعدت دانيال على قضاء حاجياته حيث اكتشفت جانبا حميميا آخر في علاقتنا حيث لم يسبق لي أن دخلت المرحاض مع شخص ما والتصرف بل أريحية أمامه.
ملأت ذلك الحوض الكبير بالماء الساخن والذي لحسن حظي كان الحوض كبير يتسع لكلينا معا بطريقة مريحة جدا.
استلقيت بينما كنت أدخن وأرتشف قهوتي السوداء تلك، وستلقى دانيال على صدري كعادته، والماء الدافئ يغمرنا ويحرك أحاسيسي التي مازلت أحاول كبتها أمام دانيال. استرخيت وجعلت الماء يريح أعصابي ويخُّد من توتري رغم أن هذا المشهد خلى من كل الإيحاءات الجنسية إلا أنه كان أشبه بالخيال، استلقيت في ذلك الحوض

منتشية تغمرني سعادة لا توصف تطفو فوق قطرات المياه التي تتلهف لملامسة كل منطقة في جسمي .

ودانيال كان قد أغمض عينيه مستسلما للحظة لم يحلم بها كامل حياته، ومن الغريب أنه لم يكن في حالة إنتصاب رغم أنها كانت أول مرة يراني فيها عارية تماما كلامنا كان قليلا كالعادة ولكننا كنا في لحظة انسجام بريئة استمتعنا بها كامل الصباح .

خرجنا من غرفة الاستحمام، بعدها جففنا أنفسنا ولبست ملابسي بعد أن ألبست دانيال ملابسه أيضا .

لم أكن في مزاج جيد بعد ذلك الحمام، فما الفائدة من تواجدي هنا و شهواتي لن تتحقق...

أدفع ثمن أمنياتي العجيبة...

بالفعل أسْتَحق هذا العذاب الداخلي.

الساعة الحائطية المعلقة بين اللوحات الزيتية في غرفة الجلوس تشير للعاشرة صباحا، كل شيء نمطي، رتابة جديدة غزت حياتي، دانيال مستلق على الأريكة، وأنا جالسة على الأريكة الأخرى المحاذية له، كنت اتأمله كالعادة، إلى أن قال لي:" غدا سأبدأ برسم لوحة جديدة".

لكني تجاهلته، فقال مجددا وهو يحاول النهوض:" ألست متشوقة ؟... لماذا أنت ساكتة؟"

نهضت وتقدمت نحوه، جلست بجانبه على الأريكة، فاستغرب قائلا:" ما الأمر؟"

لم أجبه، وتابعت تجاهله، تقدمت أكثر وأكثر، أحكمت يدي على جسمه وحضنته بقوة، نظرت إلى عينيه، ومسكته من شعره ثم قبلته قبلة عنيفة طويلة مليئة بالغضب والشهوة في نفس الوقت، لم يكن بوسعه التقاط أنفاسه وحاولت أن أنزع له قميصه، لكنه قاومني .

نظرت إليه بنظراتي الشيطانية السادية التي بثت الرعب في قلوب الناس وبالتحديد كل الرجال، نظرات مميتة مليئة بالأحاسيس، وهمست بصوت خافت لعوب :" أريدك، أريدك ..."

لم يقم بأي حركة، كأنه جماد، إلى أن صرخت في وجهه غير مبالية بما سيحدث بعدها :" لما لا تفهم؟ لما لا تحس؟ ألا أعجبك؟ ألا أغريك...لماذا أنا هنا، أجبني فالوضع لم يعد يحتمل، أجبني؟"

قال دانيال وبرودة أعصابه التي عهدتها لم تفارقه:" لما الصراخ ؟ ولما العجلة." ارتبك قليلا ثم أضاف :" تعرفين أني أحبك."

برودة دمه تلك جعلت دمي يغلي، فأنا عكسه تماما عصبية وسريعة الغضب وهو يعلم ذلك لكنه يتعمد إثارة أعصابي فواصلت صراخي:" لا أريد حبا كهذا، أنا أشتهيك، أريد أن أحس بك كرجل... كحبيب."

فقدت أعصابي واستحوذتْ على روحي أخطر شياطين الكون، نزعت كل ملابسي حتى ملابسي الداخلية، وقفت أمامه عارية تماما، لم يرغب بالنظر إلي لكنه حافظ على هدوءه المستفز المألوف.

نظرت اليه بنفس النظرة الشهوانية اللامبالية بأحاسيسه وكنت فاقدة للأمل مثل كل مرة، وقلت بصوت خافت نوعا ما يعبر على فقداني لكل آمالي:" والأن ألا أُحرِّك لك مشاعرك، ألا يثيرك جسمي؟"

إحمّر وجهه، لا أعرف مالذي حل به فجأة كأنه يرغب بمضاجعتي لكنه يقاوم.

ربما هو منبهر لدرجة أنه لم يجد مصطلحات يعبر بها عن مدى غبطته.

أو صدمته.

أو كلاهما في آن واحد.

الوضع ازداد حدة بيننا، وجهه لا يزال محمرا، مصدوما من كمية الغضب التي سلطتُها عليه في آن واحد، يختلس النظر لجثتي الضخمة الهائجة أمامه، كأنه فيل هائج في السيرك وفقد مروِّضه السيطرة عليه فأخذ يدعس ويحطم كل الذي أمامه وثدياي الكبيران المتدليان يتمايلان وانحناءات قوامي الممتلئ المتراخي التي أخذت تهتز للأسفل والأعلى مماهية كل حركاتي الانفعالية.

استفقت من نوبة الغضب تلك وجلست بجانبه على الأريكة، ضممت رأسه لصدري المتعرق العاري بطريقة جعلت شعره يلامس حلمتا صدري ويلتصق بهما.

أما هو ... المسكين مازال صامتا لم يجرأ على الكلام أو الدخول في عراك جدالي لا مهرب منه.

رأيت الخوف يغتصب براءة عينيه الجميلتين وشعرت بالأسى حيال ذلك.

قبلته من جبينه وطلبت الاعتذار، وقلت وأنا أحاول أن أحافظ على هدوء أعصابي وأمنع دموعي من التساقط:" أتمنى أنك قبلت اعتذاري... سأرحل في كل الأحوال، سأذهب لحزم أمتعتي... شكرا على الاستضافة الجميلة، حان الأوان ليعود كل منا لحياته الطبيعية."

بينما كنت بصدد النهوض لجمع ملابسي المتناثرة على الأرض قال دانيال بصوت كئيب بائس أشبه بالمنعدم:" أقدر مشاعرك، وثورانك، لأن الخطأ خطئي، لن تفهمي الموقف الذي أنا فيه، لذلك لن أمنعك من الذهاب."

وانهمرت دمعة من عينيه.

شعرت بالخزي لما اقترفته من شرور في ذنب داني حبيبي المسكين، لم أقصد اهانته، ولم أتعمد أن أبكيه، عانقته بكل حب وندم، ليته يغفر لي تسرعي، ليتني

تريثت، ليتني لم أفصح عن مشاعري وشهوتي التي أفقد التحكم في مقوَدها من وقت لآخر.
أبقيته متكأ على صدري وداعبت شعره، لأنه يحب ذلك، لكنه لم يقل كلمة أخرى بخصوص الامر المعقد الذي ذكره، هل هو خجل، أو عجز أو مرض آخر... يالني من شخص أحمق متهور.
دقائق من الصمت مرت كالعادة إلى أن نطق دانيال بصوت غمرته الأنَّات:" من حقك أن ترحلي، لديك كل الأعذار من البداية لم أكن أعلم أنك ستصبرين علي لهذا الحد وعلى أعذاري التي لا تصدق، ولم أعلم أننا سنصل لهذا الموقف، أما الآن فلم يعد لدي أي أعذار سخيفة لتتدعي بأنك صدقتِها، الأوراق كلها على الطاولة، باتت مكشوفة، أنا لا أستطيع أن أخبرك بما أخفيه فالأمر معقد لن تتفهميه ... أنا الآن في مأزق، تمنيتك أن ترحلي دون كل هذا الإحراج، رغم أن الأمر كان صعبا علي لأني أحبك، تعلقت بك ولكن هناك العديد من الأشياء التي لن تتفهميها ... أشياء يصعب علي تفسيرها لأني وعدتك بأن لا أحطم قلبك. "
وراحت دموعه تتهاطل كالأمطار ولم يبذل أي جهد في إخفائها هذه المرة رغم أني لم أفهم ما الأمر وما هو الشيء المنعقد الذي يحاول إخفاءه لكني أحسست بمقدار ألمه وقررت أن أمنحه بعض الوقت لعله يعزم مصارحتي.
كلماته أحزنتني، تمنيت في تلك اللحظة لو اعتبرني دانيال كصديقة وصارحني بما يخفيه ويكدره لهذه الدرجة التي جعلته ينفرني.
أحسست بكل ما في الاغتراب من معاني، كأنه لا يثق بي ولا يريدني أن أشاركه همومه
عادت كل أمنياتي لتطفو في المجرة بين أشباح النجوم، وأشباح أحلامي.
أحلامي التي ودعتها.
أحلامي التي غمرها طوفان الكلام الذي قاله دانيال للتو.
أحلامي صارت محالا وتلاشت ككل القصص المأسوية.
ككل المسرحيات الاغريقية.
نهضت ومسحت دموعه وواصلت الحديث بعد تفكير عميق:" انسى الأمر من فضلك لن أجبرك على الكلام، أريد ان أعلمك أني لن أتخلى عنك، أنا لست راحلة،

لن أتركك تواجه كل ذلك وحدك، أريد أن أقضي ما تبقى من حياتي معك، أريد أن أساعدك في كل شيء تقوم به، وأريد أن أشاهدك ترسم أريد أن أحقق التواصل الروحي بيننا فهو أعمق من كل الأشياء الحسية الملموسة."

وأضفت مبتسمة:" أريد أن أقضي المساء في غرفتك العجيبة تلك، وأستمع لذكريات طفولتك، أريدك أن تشاهدني وأنا أرسم، وأضحك، وأستمع للموسيقى معك، وأقرأ لك الكتب، هذا كل ما أريده من الكون، لن أهتم بأي شيء آخر."

لا أعلم ما الذي كنت أقوله للتو، لا أعلم إن كنت على حق، أو إن كان البقاء خيارا خاطئا ككل قراراتي وقبلته من فمه قبلة لطيفة كفراشة حطت على ورد شفتيه فقال:" أنا أحبك، لم أتوقع موقفا كهذا، أحبك."

واصلت احتضانه قائلة:" أنا آسفة يا عزيزي، لو تعلم كم أحبك... لن أتخلى عنك مهما حصل، أعدك لن أتخلى عنك."

وعدته أن لا يتغير أي شيء في علاقتنا، لن أتخلى عنه، سأكون بجانبه أينما ذهب، سأكون تلك المرأة التي وراء ذلك الرجل العظيم الذي يراه الناس كقدوة.

مرت الساعات بسرعة إلى أن أيقظني دانيال بعد الساعة الثامنة، مازال الوقت مبكرا بالنسبة لي، أريد أن أواصل النوم، لكن علي النهوض فورا لأساعده في روتينه الصباحي كالعادة.

بينما كنا نشرب القهوة قال لي:" اليوم سأبدأ برسم لوحة جديدة، ستحقق أمنيتك وستشاهدينَني أرسم طيلة أسبوع كامل، حتى تكتمل اللوحة."

قلت له بكل حماس:" إذا لن أعود للمنزل إلا عند انتهائك من الرسم."

فأجابني:" بإمكانك العيش معي إلى الأبد، يجب أن تفكري في الانتقال إلى هنا، المكان جميل وهادئ، ستكونين دائما برفقتي."

مجددا دانيال يتخذ قرارا متسرعا، لم أعطه أي أهمية، لأني أعلم أنه مجرد كلام، مجرد نزوة عابرة سينساها مع الايام لكني فرحت وأخبرته بأني سأفكر في الموضوع.

جلسنا في غرفة الجلوس أين اعتاد دانيال أن يرسم بين ألوانه وأوراقه وشرع في إنجاز لوحته الجديدة، رسم على الورقة بقلم الرصاص أهم تفاصيل الوجه التي فهمت من خلالها أن اللوحة تعود لعجوز من قبائل "الطوارق[54]" رحالة يلبس لباسا صحراويا أزرق. راقبته وهو يخلط بعض الألوان بدقة مثيرة للانتباه. وضع الطبقة الأولى من الألوان على الوجه، بعد أكثر من ساعتين من العمل ترك الطبقة الأولى لتجف ثم سيواصل عمله في اليوم الموالي.

نظفت ادوات الرسم تلك، ورتبت الألوان التي أشار علي أن أبقيها في مكانها بجانب اللوحة.

لم تكن لدي أي رغبة بالرسم، لم أرد لأي شيء أن يفسد علي لحظات التأمل والنقاهة تلك.

وبهذه الطريقة قضيت كل أيامي أشاهد دانيال وهو يبعث الحياة في لوحته تلك، إلى أن اكتملت، وباعها، وانتهى الأسبوع وعدت الى المنزل متناسية كل تلك الأيام بتوترها وهدوءها بعد أكثر من أسبوع قضيته في منزل الأحلام.

كأني خرجت من الجنة التي سأعود إليها بعد أيام.

[54] الطوارق : مجموعة أمازيغية مسلمة تعيش في الصحراء الإفريقية.

كل أفراد عائلتي يتساءلون عن أن أيام عطلتي، كيف قضيتها، هل استمتعت؟
لكني سئمت أسئلتهم التافهة الطفيلية، كأنهم يتجسسون على الجانب السري من حياتي الأخرى مع دانيال، سئمت الكذب، والتمثيلية التي وقفت أمام المرآة لساعات أحفظ نصوصها لكن لم يكن أمامي أي خيار آخر غير مواصلة الكذب.
عدت لغرفتي المظلمة ولرسائل دانيال القصيرة، عدت للانعزال عن عائلتي وكل الناس، وعدت للوحاتي وذكرياتي مع دانيال التي لم تفارق ذهني ولم تمحوها الأيام.
هكذا انقضى أسبوع آخر من حياتي المملة.
وسأذهب لزيارة دانيال مرة أخرى، لكني لن أبيت هناك ولن أبقى لوقت طويل , ستكون زيارة قصيرة كرسائله.
ثم تتالت زياراتي القصيرة لمنزل دانيال كل أسبوع.
أمضينا أشهرا على ذلك المنوال إلى أن قارب الصيف على الرحيل.
أشهر ولت وعائلتي في حيرة من أمرها ما سبب زياراتي المكثفة لصديقتي التي ليس لها وجود في الأصل.
لن أجيبهم، سأتركهم يتخبطون في عتمة جهلهم، بعيدا عن مخططاتي الشريرة التي لن أقحم فيها أي شخص آخر فقد مللت أسئلتهم التي تقاطر منها الفضول.
هل هناك شيء يضايقك؟
أخبرينا سنساعدك.
هل ... وهل ... وألف هل؟
أسئلة ضجرت من سماعها والبحث عن أكاذيب تلائمها يسهل عليهم تصديقها.
ضغط وكذب لم أعد أتحمله إلى أن قررت وحسمت الأمر.
سأنتقل للعيش مع دانيال لقد مضى بضعة أشهر على تعارفنا، لكننا تعودنا على بعضنا، ومع حلول فصل الخريف وقدوم شهر سبتمبر سيصبح منزل دانيال بكل ما فيه من لوحات ملكي، أما دانيال سيكون ملكي إلى الأبد كباقي أثاث المنزل.
وعالمه كله سيصير ملكي وبين يديّ.
سأبسط ذراعيّ على الكبيرة والصغيرة، سأجلس هناك واتحكم بكل تفاصيل حياته.

غير أن علاقتنا كانت أفلاطونية[55] بامتياز، إلا أني تعودت عليه وعلى وجوده بجانبي، ومشاهدته وهو يرسم.
قضيت فترة لا بأس بها وأنا أخطط ما هي الكذبة التي سأقولها لعائلتي، لأني في النهاية سأذهب وسأستقر ولن أعود لهذا المنزل المشؤوم، فقد انكتب على جبيني أن أتتبع حبي الأزلي مهما كانت العواقب.
سأتبع قلبي كالعادة.
قلت لعائلتي أني سأنتقل للعيش مع صديقتي الوهمية تلك قصد إيجاد عمل في احدى المدن الصناعية القريبة.
إنه الوقت المناسب للاستقرار، وتحقيق التوازن المالي في حياتي.
كذبة لم أجد صعوبة في حبكها، وكان من السهل أن تنطلي على أفراد عائلتي السطحيين.
لا أعلم إن كانوا قد صدقوا الكذبة أو تظاهروا بتصديقها، لكنهم في النهاية رحبوا بها دون أي أسئلة وبدون أي اعتراض.
لم يكونوا متحمسين لبقائي معهم، في النهاية أنا مجرد شبح، كائن ليلي يغادر غرفته فقط لإفراغ الثلاجة، لذلك فتواجدي كعدمه لن يصنع فرقا كبيرا في حياتهم بل سيوفر عليه مشقة طهي ما يكفي لأربعة أشخاص إضافيين .
فبعد قضائي سنوات منفية في غرفتي أنصب شباكي لهذا ولذاك وافقت عائلتي على انتقالي دون تردد أو إلحاح أو بذل أي جهد يذكر في إقناعي بالبقاء معهم، لكن ليس بالأمر مهم تواجدي معهم كان ماديا بالأساس، فقط جسدي حاضر معهم وعقلي مع دانيال الذي سُرّ كثيرا بالخبر
" ستكونين في منزل حبيبك وزوجك و نعيش معا الى الأبد".
هكذا علق على الخبر فور سماعه إياه.
"سنكون معا إلى الأبد".
إلى الأبد... قال.
لا أعلم ما الذي اقترفته بحق نفسي، هذه لن تكون الحياة التي حلمت بها، سأعيش بقية حياتي أخدمه وشاهده يرسم.

[55] علاقة أفلاطونية : حب غير رومانسي يتطرق للاقتراب من الحكمة والجمال الحقيقي بدأ من الجمال المادي إلى الجمال الروحي.

لن نخرج مع بعض.
لن نشاهد غروب الشمس ونحن مستلقيان على رمال البحر الذهبية.
لن نشاهد شروق الشمس فوق سفح جبل ما.
لن نتحدث مع لوحة الموناليزا[56] وتمثال ديفيد[57].
لن نستمع لصوت الطبيعة وانهمار شلالاتها.
لن نجوب العالم بحثا عن المأكولات الاستوائية.
ضحيت بكل طموحاتي هذه وسبقتها بالنفي، فعلت كل هذا من أجله دانيال في حياتي حقق لي اكتفاءا ونشوة أنستني أحزاني وآلامي.
هذا قدري الذي جعلته يجمعني بدانيال رغما عن أنفه.
إنه المكتوب الذي كتب في لوح محفوظ بين طيات السماء.
قدري الذي أمليته على الطبيعة بالحرف الواحد وأجبرتها على الانصياع له.
قبل أن أعزم على الرحيل وأحمل كل أغراضي لمنزل دانيال قررت أن أقابل السيد محمد وأطلعه على آخر التفاصيل وأعلمه بخبر انتقالي لبيت حبيبي.
ذهبت لشقة السيد محمد كالعادة وقد فرح لرؤيتي تماما كالمرات السابقة ورحب بي أفخم وأفضل ترحيب، لكن هذه المرة أصر على أن نخرج ونذهب لمكان قال إنه سيروقني، مكان "مفاجأة" كما أراد أن يسميه.
لبس بذلة سوداء أنيقة جلس في كرسيه المتحرك وتوجهنا إلى إحدى الحانات، لكنها لم تكن كالحانات التي أعرفها، أو كالتي نادرا ما أرتادها، كانت كالحانات التي أراها في الأفلام الأجنبية، كأنني في حانات أحد المدن الأمريكية، ضوء أحمر خافت وجدران خشبية قاتمة ، صور فوتوغرافية قديمة بالأبيض والأسود لفنانين وممثلين عالميين.
موسيقى الجاز كانت تنبعث في كامل أرجاء الحانة ورائحة كل أنواع الكحول والخمريات التي اختلطت بأفخم أنواع السجائر وأبهضها ملأت المكان وزادته رونقا خاصا، حقا كأنني في فترة الأربعينات .

[56] الموناليزا : لوحة الرسام الإيطالي ليوناردو دافنشي.
[57] تمثال ديفيد : منحوتة رخامية ضخمة للنحات الإيطالي مايكل آنجلو.

تأملت المكان مليا كان هناك العديد من الأشخاص يرقصون على تلك الأرضية الخشبية ويتمايلون مع أنغام السكسوفون يشربون ويرقصون هروبا من الواقع وصناعة للذكريات، أما أنا كم أردت أن أرقص مثل هؤلاء التائهين الباحثين عن مصدر للمتعة ومعنى للحياة، لكن لم يكن هناك أي رجل ليمسك بيدي ويدعوني لرقصتي الأولى ويراقصني على أعذب نغمات الجاز ويقبلني ببطء ثم يضمني إليه بقوة ويقبل رقبتي ثم يهمس في أذني بكلمة "أحبك" ونواصل الرقص تحت هذه الأضواء الحمراء الخافتة.

نظرت لكل الجالسين حولي، كل الأشخاص يبدوا أنهم أثرياء الطبقة الراقية كالسيد محمد وكلهم كانوا مشغولين بالتَسامر والشرب والرقص والاستمتاع بأعذب ألحان موسيقى الجاز التي تُنشي كل مستمع لها وتنسيه همومه.

في الواقع، اعتبرت هذه المفاجأة من أفضل المفاجآت التي تلقيْتها في حياتي، فلم أتوقع أن يكون المكان جميلا وخاطفا للأنظار لهذه الدرجة، أحببت الإنارة الخافتة وكل شيء متعلق بجمالية المكان من صور وجدران خشبية وطاولات ومقاعد سوداء جلدية.

جلسنا في ركن منزو في تلك الحانة وقد كنت في قمة الفرحة والسرور وقلت معبرة عن شدة اعجابي بالمكان:" يا له من مكان جميل، كأنني في فيلم كلاسيكي، مكان مدهش، كيف عرفت ذوقي وكيف عرفت أني أشرب؟"

كانت الإنارة الحمراء تتوهج لتكون قوية أحيانا وخافتة في الأحيان الأخرى كنت أراقبها وأستمع للسيد محمد وهو يجيبني:" الأمر كان سهلا، فكل الناس المكتئبين يدمنون الشرب، هذا المكان ليس بحانة فقط فهو مطعم أيضا ويقدم أشهى الأطباق وألذ المقبلات، فقارُورة نبيذ أحمر ستكون أفضل مع شريحة لحم مشوية."

فقلت ضاحكة:" كلام صائب."

فأضاف:" دعي الليلة تكون مميزة قبل أن تنتقلي لمنزل حبيبك الذي دائما أنسى اسمه، ستكونين ضيفتي الليلة قبل أن تغادري المدينة، أعلم أنه ليس بالقرار السهل أن تتركي كل حياتك وتبدئي حياة جديدة من الصفر مع شخص جديد، أتمنى أن يروقك المكان الذي ستنتقلين له وأن لا تتسرعي باتخاذ القرارات... فالمسؤولية ليست سهلة يا عزيزتي."

لم أعرف بماذا أجيبه ولكني لم أشأ أن أخبئ عنه أي شيء فقلت:" في الحقيقة ... المكان أشبه بالمنفى لا أعلم إن كان يصح وصفه بالحي السكني أو بالقرية فالمكان ناء بعيد عن كل التجمعات الحضارية، أما المنزل، فهو أشبه بالعزلة أو بالاقامة الجبرية ... كأنك في سجن ولكن مسجون مع الشخص الذي تحبه... صحيح أن المنزل جميل وفيه كل ما أحتاج ولكن أشعر بأني تسرعت باتخاذ القرار، كأني سأظلم نفسي."

فقال في استغراب وحيرة من الأشياء التي كان بصدد سماعها:" لما العجلة إذا، لماذا تعذبين نفسك عزيزتي؟ ألهذه الدرجة تحقدين على نفسك؟ ما سبب كل هذا،

أ تفعلين كل هذا من أجله ... أعلم إنه قرارك ولكن لن تستطيعي التأقلم في بيئة كهذه، صدقيني العزلة هي أسوأ شيء يصيب الإنسان، ولا أريدك أن تمري بتجربة كهذه، مازلت شابة والحياة كلها بانتظارك وأي شخص سيواعدك سيكون أسعد رجل في العالم، لا تتسرعي ولا تتخذي قرارا كهذا."

ثم أضاف :" فكري في نفسك أولا، لا أحد يستحق كل هذه التضحيات."

رغم أني كنت أعلم أن كل كلامه كان صائبا وإنه على حق في كل الذي قاله غير أني لم أعدل عن قراري وقلت:" لقد فات الأوان، سأنتقل لبيت دانيال وسأبقى معه وأشاركه عزلته تلك لأني أحبه ... أحبه واخترته من بين ملايين الناس، مستعدة للتخلي عن كل الأشياء التي أحبها من أجله، لا أفهم ماذا حل بي، كأنني تحت تأثير تعويذة ما..."

تنهد السيد محمد وقال:"أتمنى أن تراجعي قراراتك وأن لا تَقْسِي على نفسك لهذا الحد."

فقلت في ألم:" لا أستطيع، شيء أقوى مني يدفعني للقيام بكل ذلك... لقد وقعت في حبه، في غرامه وعشقه."

طلب محمد لكلينا بعض الويسكي الأسكتلندي الرفيع وأخذ يدخن سيجارته الكوبية الغليظة ثم أشعل لي سيجارتي بكل لباقة كالعادة كما يتصرف النبلاء والرجال الذي يقدسون المرأة وقد استلطفت الأمر والجو كله فقد كان يعاملني كالملكة بالضبط كما يجب أن أعامل ثم قال:" لست صغيرة، وأعلم أنك درست الموضوع جيدا قبل الإقدام على أي شيء."

ترشف القليل من الويسكي وأضاف:" أرأيت أن حدسي لا يخطئ، قلت لك أنه سيعود وقلت لك أنه جدير بفرصة ثانية ففي النهاية لن يجد امرأة بجمالك ...أنا سعيد لأنك سمعت كلامي ووجدت الحب الذي تحلمين به."

فقاطعته:" أجل لقد فعلت لكن الأمر لم يكن سهلا على الإطلاق، فمقابلتنا كانت بمثابة معجزة كانت على وشك أن لا تتحقق، لكني فعلت المستحيل لتحقيقها فقد أخذت كلامك بعين الإعتبار، أظن أن دانيال يعاني من عديد الإضطرابات النفسية سيتطلب الأمر الكثير من الوقت لأفهمه لكنني لست نادمة فدانيال هو قدري وقد عبر لي عن حبه في النهاية ."

فرد مبتسما:" أنا سعيد من أجلك وأقدر موقفك فكل الناس يستحقون فرصة ثانية، إنه ليس تحامقا أو سذاجة كنت أعرف أنه يحبك وأتمنى أن تتضح الأمور بينكما عما قريب أقدر تفهمك لموقفه رغم أنه تصرفَ مثلي، حبيبك طائش مثلي ... الأمر مضحك."

وانفجر ضاحكا.

أظن أن هذه الجملة كانت الجملة الأخيرة التي تمكنت من سماعها عندما كنت صاحية محافظة على توازن عقلي وقبل أن أدخل في عالم آخر، فقد كنت قد دخنت وشربت الويسكي الأسكتلندي اللذيذ وأكلت شريحة لحم مع الفقاع بالإضافة إلى الجبن والفواكه الجافة واستمتعت بالموسيقى التي لم تتوقف كامل الليلة.

كل ما حولي جعلني أنتشي، ليلتها شربت لدرجة أني لم أعد أقوى على سماع تلك الموسيقى أو ثرثرة السيد محمد التي لا تطاق .

مواضيع تافهة لم تشد انتباهي عقلي كان مع دانيال وقلبي كان يتلهف لاحتضانه لم أعد أقوى على الصبر والاحتمال، أخيرا سنكون سويا وسأنتقل للعيش معه تحت سقف واحد، لن أدع أي شيء يفرقنا مهما حصل فدانيال هو الشخص الذي اخترته وأحببته وقررت أن أكمل حياتي معه.

لا أتذكر ماذا حدث في بقية السهرة فقد أكثرت من الشرب إلى أن سيطر دانيال على فكري وعقلي وخيالي وواقعي، كل ما أستطيع أن أستحضره في الوقت الحالي أني استفقت في الصباح الموالي في منزلي وفي غرفتي التي لا أعرف كيف وصلت

إليها بعد سهرة جنونية أفقدتني السيطرة عن نفسي فأنا عبد ضعيف أمام الكل أنواع المشروبات الكحولية.
حاولت النهوض من السرير لكني أحسست بدوار من كثرة الإفراط في الشرب كالعادة كل شيء أقوم به في حياتي بإفراط، أفرط في الحب وأفرط في التفكير وأفرط في الأكل.
لكن ينتظرني اليوم الذي انتظرته لسنوات، فاليوم هو موعد انتقالي لمنزل دانيال لذلك علي أن أسرع في حزم أمتعتي والإستعداد للسفر.
وانتقلت لمنزل دانيال أخيرا...

بقيَت بضعة أيام تفصلنا على الخريف الصدأ.
قضيت آخر أيام الصيف منزوية في غرفة دانيال التي أحب أن أسميها الغرفة العجيبة لما فيها من قطع عجيبة نادرة، لم أتوقع في حياتي كلها أن ألمس لوحة أصلية للرسام الألماني آرثر كامف إنها أغلى قطعة في المنزل كله، ربما تفوق قيمتها سعر المنزل بكل الأثاث الذي فيه.
غير أن الخريف على الأبواب، لكن الطقس كان حارا ذلك اليوم لا عجب من ذلك فالإحتباسُ الحراري هو مشكلة العصر.
كنت أنا ودانيال كعادتنا جالسين في شرفة تلك الغرفة العجيبة، ككل مساء، ارتحت في ذلك المكان وشعرت كأنه وُجد في هذا الكون من أجلي.
كنت جالسة على أحد الكراسي البرونزية التي كانت مختبئة خلف أكوام اللوحات أدخن سيجَارتي السوداء الطويلة كعادتي وأشرب ما تيسر من النبيذ الأحمر الذي تشابه لونه مع الستائر ومع لون أحمر شفاهي الذي اعتدتم عليه.
ودانيال كان بجانبي جالسا في كرسيه المتحرك كالعادة لكنه لا يشرب ولا يدخن.
كنت آنذاك في حالة تأمل بعيدا عن كل ضوضاء ومشاغل الحياة اليومية.
أتمعن جمال الطبيعة التي امامي، وحبيبي دانيال الذي كان جالسا على يساري وصوته الهادئ البريء كأن الجنة قد تواضعت ونزلت للارض.
كنت أحلق في الفضاء حرة أتسابق مع الريح، نوّمني الأفق الذي لاح فيه خيط وردي يبشر بالهدوء ويبعث السكينة في قلبي.
بضعة لحظات تفصلنا عن الليل.
أخذت العصافير بالرحيل والشمس بالغروب لتفسح المجال لحضرة الليل المبجَّل، فالشمس وقوتها تخشاه والعصافير تهرب لتحل مكانها أسراب من الخفافيش لتحرس الدجى .
كل الناس تهاب الليل وظلامه، إلا الفنانون والعاشقون والبائسون الذي يبدع بعضهم ويبكي البعض الآخر في الساعة الثالثة صباحا.
حَفيف العشب وأوراق الأشجار بالإضافة إلى صوت الصراصير الذي يملأ الحقل: مقطوعة سيمفونية كان قائدها بومٌ اتخذ من احدى الأشجار القريبة مخفرا له ليكون المايسترو هذه الليلة.

أطفأت ضوء الغرفة، وأشعلت ثلاثة شمعات وَجدت كل منها مكانا في شمعدان برونزي طويل قديم وقف بجانب الشرفة كالحارس الذي ينير ليلنا ويسهر على راحتنا.

تسامرنا ليلتها، وكان الجو رومنسيا بكل معنى الكلمة، لكن دانيال لم يغازلني، لم يقم بأي شيء رومانسي كالعادة أو يتفوه بأي كلمة معسولة، لأنه عاجز على التعبير عن مشاعره بطريقة شعرية على حسب قوله.

أنهيت كأس النبيذ وسكبت كأسا ثانيا وأخذ وجهي بالإحمِرار مع كل رشفة أحتسيها وشعرت بحرارة تسري في دمي وفي كل شراييني وأوردتي.

لا أعلم إن كان ذلك سببه تأثير ما أحتسيه من شراب، أو افكاري الجنسية .

فبمجرد التفكير في دانيال والنظر إليه وهو جالس في كرسيه بجانبي يحدثني عن أتفه المواضيع التي لا تستهويني أشعر باثارة كبرى.

لكن لم أفهم سبب تمنعه وهروبه مني في كل مرة، أعلم أنها ليست غلطته، فأزمة الإحباط النفسي التي يعاني منها سببها الرئيسي هو أنه لم يجد أي فتاة تحبه وتجعله يعيش تلك اللحظات التي تقاتلت من أجلها كل البشرية بين مؤيد ومعارض .

نشأ على فكرة أنه غير قادر على إيجاد الشخص المناسب، لما التمويه فهذا ما يقوله الجميع كيف لرجل بمثل حالته أن يتزوج ويشبع غرائز أنثى تنتظر وحشا كاسرا يسحق فَرجَها ويدمر فتحتها الشرَجية إن اقتضى الأمر ذلك.

سقيت نفسي كأسا آخر من النبيذ وأشعلت سيجارة أخرى أُلهِب بها رِأتيَّ وأخمد بها نيراني النيمفومانية.

وفي تلك الليلة ممارسة الجنس مع دانيال استحوذت على أفكاري .

لم أكن في كامل مداركي العقلية ... كأني منتشية ومخدرة كأني تحت تأثير حبوب الهلوسة.

صوت البوم والصراصير الصغيرة المحتمية بالاعشاب يتعالى ليداعب أسماعي كأورغن تعالت رناته في إحدى الكنائس القديمة القوطية في ليلة اكتمل فيها القمر كهذه.

واصلت الشرب لدرجة أني لم أعد اقدر على الوقوف أو الحركة، فقدت التركيز التام والتحكم في كل حواسي.

لا أتذكر موقف دانيال من هذا كله، لكني أتذكر أنه كان في لحظة تأمل مثلي لا أعلم في ماذا كان يفكر.
تغلبت على ذلك الدوار ونهضت وأنا أتمايل لأحضر قارورة نبيذ أخرى، وكل ما حولي كان يتمايل كأني في سفينة تشق قلب عاصفة هوجاء.
كل أثاث الغرفة كان يرقص على وقع معزوفة البوم والصراصير.
وقعت على الأرض، أو ربما جلست على الأرض فأنا لا أتذكر التفاصيل.
استلقيت وأخذت أحدق بالسقف الأبيض المنقوش الذي توسطته ثريا عملاقة منطفئة ولكن انعكس ضوء تلك الشموع الثلاثة وضوء القمر الشاحب المتسلل من شباك الشرفة على بلوراتها الكريستالية المتدلية فبعث فيها الأمل وجعلها تشع بالحياة هي الأخرى .
منظر أمتعني وجعلني استلقي في مكانِي غير قادرة على النهوض وإحضار قارورة النبيذ .
أما دانيال مازال جالسا قبالة الشرفة في كرسيه المتحرك كما تركته.
يعشق القمر وينصت لمغازلاتِ الطبيعة.
رفعتُ عيناي نحوه بطريقة جعلته يرتسم لي مقلوبا يتمايل أيضا كبقية الأثاث وجدران الغرفة من وقع تأثير الكحول على عقلي المسلوب.
مقلوبا غير ثابت لكنه وسيم ومثير كما عهدته.
أشرت عليه أن يأتي ويستلقي بجانبي لنتمتع سويا بهذه اللحظة التي سرقناها من الجنة و بصورة القمر المقلوب وانعكاس ضوءه على البلورات المتدلية من الثريا.
لكنه رفض.
من يهتم لأمره، سأستمتع بذلك المنظر وحدي، لن أدعه يعكر مزاجي هذه الليلة خصيصا لأني أحس باليُوفوريا تسري في عروقي.
تجردت من كل ملابسي واستلقيت عارية تماما على الأرض أحسست بلطافة الزربية الحريرية المفروشة التي رحبت بجسدي الهامد فوقها عانقته، تم واصلت ملاحقة أفكاري التي سبَقتْني لدانيال، إلى أن سمعت صوتا يحاول تشتيت أفكاري قائلا:" لقد أكثرت من الشرب ليتني ما سمحت لك بذلك، فكرة خاطئة كغيرها من أفكارك."

ثم اختفى ذلك الصوت.
آه تذكرت انه صوت دانيال لا أعلم بماذا كان يتمتم أيضا...
لمست صدري ورحت أداعبه وأضغط عليه مرة بلطف وأخرى بقوة إلى أن قاطعني صوت صحوة الضمير الراشد ذاك مجددا بقوله:" يا إلهي ... أنت سكرانة لهذا الحد تداعبين نفسك على الأرض، هذا ما كان ينقصنا..."
تظاهرت بعدم سماعه إلى أن هم بالنزول من كرسيه متجها نحو غرفة نومه. لكني استوقفته قائلة:" ابقى حيث انت أرجوك... إن كنت فعلا تحبني، أريد أن أنظر إليك بينما أداعب نفسي... إلى أن أشبع، أنا أحترق لأني أشتهيك، فقط إبقى حيث أنت ودعني أواصل ما بدأتُه. "
لا أعرف إن كان قد استغرب من طلبي الغريب ذاك، لكنه ظل جالسا على كرسيه المتحرك دون أن يلفظ أي كلمة، انزلقت يدي متجهة نحو بظري الذي أخذت أداعبه بحركات دائرية بطيئة بكل لطف، وصورة دانيال وهو أمامي، مخلوق آدمي بشحمه ولحمه يواصل اثارة مشاعري.
القمر هو أيضا كان يراقب حركاتي الشهوانية بكل تمعن وتركيز، حتى القمر أغريتُه ودانيال مازال جامدا أمامي كالصنم الذي لا يصلح إلا للعبادة .
اكتفيت بإدخال اصبعين في فرجي بكل بطء و رمنسية إلى أن شعرت بهزات طفيفة جعلتني أتأوه وأضفت صوت تأوهاتي الإيروتيكية للمقطوعة التي ترأَّسها البوم.
كأنها أوبِرا إيطالية تسقي القلب وتغذي العقل وتشفي الروح المُعتلَّة.
أغمضت عينيَّ وواصلت تحريك أصابعي بطريقة أسرع إلى أن أحسست بجسم كبير واقف أمامي حجب ضوء القمر الذي يسترق النظر لخطيئتي، ولامست أنفاسه الباردة جسمي المتعرق، فتحت عيناي اذ بدانيال يقبلني في نفس الوقت
استدار واعتلاني قائلا :" لا تتحركي."
وواصل تقبيلي بطريقة شهوانية لم أتوقعها.
نزعت له ملابسهُ حيث أصبح عاريا تماما، بدا لي جسمه العاري في ضوء الشموع والقمر المكتمل كتمثال فينوس دي ميلو[58] لكن في نسخة ذكرية بشرية مغرية أكثر، متوهجة بالحياة والشهوة، لا رخامية باردة.

[58] تمثال فينوس دي ميلو : من أشهر التماثيل الكلاسيكية القديمة و معروف بذراعيه المفقودين .

وبدأتُ تقبيله بكل عشق وحب وشوق بينما ألقى بكل ثقل جسمه على جسمي، كلانا عاري، وكان دانيال فوقي يقبلني، كان منتصبا راغبا في معاشرتي .
فقد أحسست بانتصابه واستلطافه لمساتي وقبلاتي وقد أبدى ارتياحا كبيرا تجاهي هذه المرة، لذلك تمكنتْ به الشهوة مثلي وسرعان ما بدأت أنفاسه في التثاقل وعرقه في التصبب ووجهه بالاحمرار.
لن أسأل ولن أهتم بما حصل وكيف انتصب دانيال، المهم أنه شعر بشيء من الشهوة تجاهي.
أخيرا بعد كل هذا الحرمان صار دانيال بداخلي وأحسست معه الأحاسيس الايروتيكية التي تركتُ كل ملذات العالم من أجلها .
كنت أتأوه وأتنهد مخرجةً أنفاسا متقطعة تزيح آلام الشهوة من صدري الذي كان يقبله دانيال، أشعرتني هزات الجماع تلك برعشة ... ثم برعشات لذيذة جعلتني أصل لقمة النشوة ودانيال أيضا كان مستمتعا وأنفاسه أصبحت متقطعة أثقل من أنفاسي.
تأوهاتُهُ كانت أعمق من تأوهاتي وقطرات عرقه كانت تتقاطر على صدري ووجهي إلى أن دفن وجهه بين نهداي بعد صرخة مليئة بألم الشهوة والارتياح.
مسَّحت على شعره وقبلت جبينه بينما كان مستلقيا فوقي.
ثم استلقى بجانبي على الأرض وهو يحاول التقاط أنفاسه أما أنا فقد استجمعت قواي ونهضت لإحضار سيجارة أشعلتهُا وأعدت الإستلقاء بجانبه أدخن سيجارتي، نظر إلي دانيال ثم قال ضاحكا:" كان ذلك جامحا... لقد فعلتُها أخيرا، يا لك من مجنونة."
وضحكت معه وتعالت ضحكاتنا في تلك الليلة المقمرة ثم احتضنته إلى أن نمنا على الأرض.

****

الجزء الثالث

وهم السريالية

لم أتخيل في يوم من الأيام أن حياتي مع دانيال ستصل إلى ذروتها.
دانيال الذي أصبح متصوفا مثلي، انعزل على كل العالم، اغترب عن عائلته وعن أصدقائه ومعجبيه، هرب من عدسات الكاميرات ومن المعارض الفخمة التي تَرتادُها الطبقة الأرستقراطية الراقية من الناس.
بعد انقضاء شهر كامل في منزل دانيال، يمكنني القول بعد مجهود طويل أنه صار ملكي، توقف عن الكذب وعن لاعبيه الصبيانية السخيفة، أصبح شخصا مسؤولا كأي رجل في عمره فبالرغم من تآمر كل الكون ضدي إلا أني نلت ما أريد في النهاية.
انقضى الصيف الذي سئم معرقلَتي بحرارته وكآبته، وحل فصل الخريف ليرحمنا من تلك الحرارة.
تساقطت كل أوراق الأشجار بعد أن تحول لونها للذهبي ثم البرونزي ... بعدها أخذت تسابق الريح وتملأ تلك البطحاء المغبرة.
تعرت الأشجار وأظهرت أغصانها الجافة، هرب اللون الأخضر مع تدرجات المصفرّة لتحل مكانه تلك الألوان الترابية التي بعثت في قلبي المزيد من الارتياح.
لا يوجد فصل أفضل من الخريف ولا يوجد شهر أفضل من شهر أكتوبر.
كل شيء فيه مميز، تلك اللوحة الطبيعية الصامتة، بقشها الأصفر المشع كخيوط الشمس، بأوراقها المتناثرة على قلبي.
بتفاحهِ الأحمر وخمره، بيقطينها البرتقالي وكعكه اللذيذ، بمشروب القرفة الساخن وحلوى الذرة الملونة.
كنت على موعد غرامي يتجدد يوميا مع كل هذه الأشياء اللذيذة على طيلة الشهر.
فهذا الوقت من العام مميز، المناخ فيه مميز والهواء بارد ومنعش وحيوي... حتى المأكولات لديها طعم خاص.
لأنه ببساطة شهر الهالوين[59].

[59] الهالوين : عيد مسيحي يحتفلون به في آخر شهر أكتوبر ليتذكروا به موتاهم بما فيهم القديسين.

عيد القديسين هذا يجعل المدينة كلها برتقالية ليس بأكسسوارات الهالوين واليقطين الموضوع أمام أبواب المنازل، بل بالعكس، ففي العادة المجتمع العربي لا يُحتفل بعيد القديسين، حتى وإن غزت هذه التقاليد الموروث العربي في السنوات الأخيرة وتواجد من يقيم هذا النوع من الاحتفالات تكون الحفلة بسيطة في آخر يوم من هذا الشهر.

فالحي مازال اسمنتيا كئيبا ومُملا كسابق عهده، لكن الطبيعة لم تبخل عليه بكرمها وزينته بالذهبي والبرتقالي والبني من أوراق أشجارها المتناثرة ليصبح الحي رماديا مشعا بهذه التدرجات الملتهبة.

أصبح المنظر أفضل بكثير...

وكما جرت العادة التي نشأت عليها، فهذا الشهر مقدس والاحتفال به يدوم واحدا وثلاثين يوما على طيلة الشهر.

هكذا عرّفتُ دانيال على هذه الطقوس، وتحمس لبرامجي وكل هذا الجو الذي لم يعش مثله من قبل.

زينّا كامل المنزل بالأشرطة البرتقالية والبيضاء والسوداء، وصممت أشباحا ورقية علقناها في كامل أرجاء المنزل ما عدا الغرفة العجيبة التي لا أتجرأ على لمس أي شيء فيها بل من الأفضل أن أبقيها كما هي جميلة وحزينة على العصر الذي مضى ولم يبقى منه سوى ذكرى اثاث وصور.

لوحات رسمتها بنفسي فيها اليقطين بكامل أنواعه ولوحات أخرى فيها أشباح وجماجم وأيضا هياكل عظمية بلاستيكية اختلفت أحجامها ألقيت واحدة منها على الأريكة والأخرى على الطاولة وحتى في المطبخ.

جماجم أخرى زينتها على الرفوف في غرفة الجلوس، وبعضها وضعته بجانب اليقطين الذي نقشت عليه وجوها ووضعت داخل كل يقطينة شمعة، ليتخذوا من ذلك البهو الطويل مكانا لهم ولوحات لأيقونات من أفلام الرعب العالمية وعبارات مخيفة باللغة الانجليزية كتبتها باللون الاحمر المشابه للدماء وعلقتها بين لوحاته، بالإضافة إلى اللمسة الأخيرة التي كانت بمثابة خيوط بيضاء شكلتها لتتشابه مع خيوط العنكبوت.

فقلت وأنا في قمة السعادة بالإنجاز المدهش الذي قمت به:" الآن أصبح كل شيء مثالي، سنتمتع بهذا المنظر طيلة الشهر."
فقال بضحكته الساخرة كالعادة:" لحسن حظنا أن هذا الأحتفال يدوم سوى شهرا واحدا."
لا أعلم ماذا كان يقصده بالضبط هل شهر يكفي أم إنه مدة مبالغ فيها لهذا الاحتفال البرتقالي؟
إلى أن أضاف بسخرية: " كأننا في مدينة ملاهي..."
ثم توجه لغرفته.
كل المنزل أصبح جاهزا لاستقبال هذا الوقت من السنة، شهر كامل من الجو المرعب، سنشاهد أفلام الرعب كل ليلة ونتبادل قصص الرعب الفولكلورية، كل شيء سيكون مثاليا، لم أعد أقوى على الانتظار.
كلما مر يوم، كلما زادت برودة الطقس، لم يعد بإمكاننا قضاء المساء في الشرفة ولم يعد بإمكاننا مشاهدة الحقل والطيور التي تحلق فوقه ومواكبة تحول ألوانه من خضراء إلى صفراء ذابلة يوما تلو الآخر.
ستشتاق الطبيعة لصوتي، وسيشتاق البوم لتأوهاتي، وسيشتاق القمر لقصائدي الشعرية التي كنت ألقيها لدانيال والكتب التي كنت أقرأها له كل ليلة، وأنا أيضا سأفتقد أصدقائي هؤلاء اللطفاء الذين رحبوا بي منذ انتقالي لهنا.
لذلك قررنا أن نجلس في ركن آخر في البيت، والذي بالطبع لم يكن في غرفة الجلوس، ولا في غرفة الضيوف، بل في ركن لم تتسنى لي الفرصة لوصفه، إنها غرفة دانيال، كانت بسيطة لدرجة أنها لم تستحق الوصف في البداية، أثاثها كان بسيطٌا، سرير وخزانة وطاولة ليلية وُضعت بجانب السرير ولوحات معلقة على الجدران رسم فيها أشخاص اتضح فيما بعد أنهم أقربائه.
لكن الشيء الوحيد الذي جذب انتباهي في هذه الغرفة هو المدفأة، مدفأة رخامية قديمة علقت فوقها مرآة ذهبية منقوشة.
مكان مناسب لقضاء شتاء رومانسي لا مثيل له.
وهذه المدفأة ونيرانها ستكون الشاهد الوحيد على حبنا وغرامنا، وستشهد عديد الليالي الحميمية الدافئة كالدفء الذي يبعثه خشبها في كامل المنزل.

فرشت مرتبة قبالة تلك المدفأة بعد أن أشعلت الحطب الذي في داخلها، وسهرنا نشوي حبات المارشميلو وأقرأ له رواية من روايات لافكرافت [60] بينما ألعب بشعره كما تعودتم علي، هكذا قضينا ليالي أكتوبر السرمدية الباردة نأكل الفشار المكرمل ونحتسي الخمر بين القبلة والأخرى.

عانقته وبادلته القبلات وعشنا أحلى الأحاسيس الحميمية إلى أن غفوت على صدره العاري على وقع صوت دقات قلبه ورائحة احتراق الخشب.

كل ليلة أضع رأسي على صدره واستمع لدقات قلبه وأنسى كل العالم بين أحضانه.

[60] لافكرافت : هوارد فيليب لافكرافت كاتب أدب رعب أمريكي.

حان الوقت الذي قررت أن أمر فيه للخطوة الموالية.
أريده أن يخرج معي ونزور بعض الأماكن كأي حبيبين، إلى متى سيظل هاربا من الظهور معي، إلى متى سأظل سرا، عارا ... عاهرته في الخفاء.
سئمت المنزل والأعمال المنزلية المملة، كل ما أريده هو بعض المغامرات.
فأنا من ذلك النوع من الفتيات: أحب المواعيد الغرامية، والزهور والمفاجآت ... والذهاب إلى السينما والمسرح والمتاحف وقضاء مساء رومانسي في إحدى المقاهي القديمة نقرأ الكتب ونشرب القهوة الايطالية المخفوقة.
لذلك قررت أن اقترح شيئا مميزا على دانيال في احدى الليالي التي كنا جالسين فيها أمام المدفأة كعادتنا نحتسي عصير التفاح ونأكل البيتزا .
انتظرت إلى ان نفرغ من تناول العشاء، بعدها مباشرة قلت له:" لماذا لا نخرج ونقضي يوما خاصا بنا، مميزا بعيدا عن الجدران واللوحات ورائحة الألوان الزيتية التي لا تطاق لكني كنت أدمنها، لأننا لم تسمح لنا الفرصة بأن نخرج معا في موعد غرامي ككل العشاق، نقضي يوما كاملا نتجول وسط المدينة أو نشاهد فلما ما، ونشتري الحلوى والشوكولاتة ونجلس في الحديقة العامة ."
فقال لي ولم يبالي بما كنت اقترحه:" لا أريد، ناقشنا الموضوع ألف مرة وقلت أني لا أريد، تعلمين أني أكره المقاهي والمطاعم والأسواق وكل الأماكن المملة التي اقترحتِها ... إن أردت كل هذا فاذهبي بمفردك لا مانع عندي، عزيزتي يمكنك الذهاب حيث تشائين... لكن بمفردك."
كنت اعلم الاجابة مسبقا ولكني أردت ان أحاول، بالإضافة إلى أنه يستفزني عندما يقول لا بينما يعلم أني لن أرضخ لأوامره، حاولت أن أتمالك أعصابي ولكني فشلت بسبب سرعة انفعالي وصرخت في وجهه :" أنا مللت ... أريد مغامرات جديدة، أريد أن أكتب فصولا جديدة في حياتي مليئة بالجنون معك أنت، أنت الذي اختارتك روحي من بين كل العالم، أنت الذي تركت حياتي وعائلتي من أجلك، أريد أن نغامر ونرى العالم مع بعضنا، أريد خوض تجارب جديدة معك."
قال بينما كان يحدق بالمدفأة والحطب المتآكل من قِبل النيران:" تمعني في هذا المنظر الجميل كم أرغب في رسمه، لماذا تريدين إفساد اللحظة."
إفساد هذه اللحظة !

فسألته:" لماذا تسعى لإحباطي ؟ لماذا تراوغ رغم أنك ستنفذ ما أقوله في النهاية؟ أرجوك هذه المرة فقط، أريد أن نرى العالم من نفس الزاوية، ونضحك على نفس الأشياء وننبهر بنفس الأماكن، أريد أن نكون واحدا بمعنى الكلمة، العزلة شيء جميل ولكن عزلتك مبالغ فيها."

صمت وتردد قليلا في رده هذه المرة، ثم قال:" حسنا موافق لقد استسلمت، لكن أنا الذي سيقرر، سآخذك لمكان سيعجبك، وأنا متأكد من هذا، هناك بحيرة قريبة من هنا ستقضين يوما كاملا بين أحضان الطبيعة التي قضيت أشهرا تشاهدينها من الشرفة، ما رأيك بيوم غد؟ المهم كفي عن النحيب بهذه الطريقة شهر آخر على هذا المنوال وسأفقد صوابي وأصاب بالصداع."

فرحت بهذه النزهة التي سنقوم بها، سنعانق الطبيعة نعبد جمالها الخريفيّ عن ما قريب فاقترحت قائلة:" لا أريد أن أذهب للبحيرة يوم غد، لما العجلة، هذه الفكرة تروقني كثيرا يا عزيزي لم تخطر ببالي، لنأجل هذه النزهة ليلة عيد الهالوين، بقي اسبوعين فقط عليها، ستكون ليلة لا تنسى."

قال في استغراب:" ما الجهني في هذه الفكرة... دائما لا أفهم مقاصِدك."

ابتسمت ابتسامة خبيثة ومسَّحتُ على شعره قائلة:" لأننا لا نرى الحياة بنفس الطريقة ستفهم مقاصِدي في يوم من الأيام."

وهكذا نشأ اتفاقنا، وقضينا ليلة كاملة نخطط لليوم المنشود الذي لم يتبقى عليه سوى أسبوعين.

وهذه المرة لم أخطط وأبني الأوهام وحدي. بل شاركني دانيال في كل هذا.

سنقضي ليلة هالوين حميمية كالتي أراها في أفلام الرعب.

ومنذ تلك المحادثة أخذنا نعد الأيام ونتسابقُ مع ساعاتها بكل سرعتنا، وننتظر ليلة عيد القديسين هذه.

أطلعني دانيال على أن هذه البحيرة تبعد سوى كيلومترين أو ثلاثة على حد أقصى واتفقنا على أن تقلنا سيارة أجرة إلى هناك ثم تعود لنا في المساء، كما أنه طمأنني بأن المكان آمن وخال من الناس ولا داعي للقلق حيال أي شيء.

لم أكن آبه إن كان المكان آمنا أم خطرا، لأن كل ما أردته في حياتي هو الخروج مع دانيال لأني كنت أحب المغامرة كنت طائشة لا أبالي بما قد يحدث، فكما تعودتم علي

أجري وراء المجازفة وأخاطر بكل حياتي من أجل جرعة أدرينالين، روحي المتمردة تتلهف لكسر الرتابة التي تسود على حياة دانيال، أريده أن يتحرر من قيوده، أن يصبح مثلي مندفعا وثوريا غير آبه لكلام الناس أريده أن يصبح رجلا قويا لا بأن يتظاهر بالقوة أمام الكاميرات، كم سئمت من اختبائه من المجتمع، أريده أن يقرر ويخرج ويذهب للأماكن التي يهابها ويرتدي الأسود مثلي والقبعات السوداء الكبيرة، أريده أن يكون قويا لا يهاب أي شيء سواي، أريد أن أكون مصدر خوفه الوحيد، الخوف من خسارتي إنه الخوف الوحيد الذي يجب أن لا يتحداه.

انقضى يوم مثالي آخر من حياتي مع دانيال، أيام بسيطة نوعا ما لكني أحببت البساطة التي كانت تسودها، فهذه الحياة التي كنت أبحث عنها منذ أعوام لم يسبق لي بأن أحسست بسعادة مماثلة، لا أصدق أني أصبحت مصدر بهجة لدانيال، كالشمس التي أحرقتني بغضبها، هكذا كنت أشع في حياته بقوتي التي أحبها وسلطتي التي لا مهرب منها، كنت أنا المسؤولة عنه وعن كل الأمور ففي المنزل، ملأت الرفوف بكتبي وجماجِمي البلاستيكية التي سخر منها دانيال، أما ملابسي السوداء تلك فقد احتلت ثلاثة أرباع الخزانة وتناثر ما تبقى منها على أرضية الغرفة وحتى على السرير تركت مساحة صغيرة في الخزانة لملابس دانيال القليلة الملونة، واحتلّت مساحيق التجميل كامل غرفة الاستحمام ...

أما المطبخ فقد ملأته بالمأكولات غير الصحية، الشوكولاطة والبرجر والبيتزا والمكرونة.

أضفت لمستي الفوضوية على ذلك المنزل البريء، وضعت يدي على كل شيء وعدلته وفكرت في مخططات أهم سأطلع عليها دانيال في الوقت المناسب.

أفكرت في تغيير ألوان الجدران فألوان المنزل مشعة مليئة بالتفاؤل عكسي أنا أيضا ما استفزني في تلك الألوان هو ذوقه اللامُتناسق في اختيار ألوان الجدران التي تتماشى مع ألوان الأثاث ألوان لا تجعلني أشعر بالارتياح كأنني في حضانة للأطفال، ذوقه بالأكمل لم يعجبني، ماعدى غرفتي العجيبة، لن أغير شيئا فيها، لن ألمس قطعة واحدة من أثاثها ولن ألقي عليها أي تعديل إنه المكان المثالي الوحيد في كل الكرة الأرضية.

سأبدأ بتغيير ألوان الجدران الخارجية للمنزل وسنودع ذاك الإسمنت الكئيب، بعدها ستكون جدران المنزل الداخلية شاحبة باهتة تعكس مزاجي، كالألوان الدارجة في الفترات الكلاسيكية، سنناقش هذه التعديلات فور انتهاء الهالوين، سأترك جزءا من شخصيتي في كل ركن من أركان البيت ...

قلبت كل المنزل رأسا على عقب فقد لأحس بالارتياح.

الموسيقى الصاخبة التي تلوث الأسماع والطعام ذو السعرات الحرارية العالية، لم يمانع كل هذه التعديلات الشاذة بل انسجم مع قواعد المنزل الجديدة.

كل شيء مني كان مقبولا، احتللت كامل قلبه بطيشي وشيطنتي.

لأنه كغيره من الرجال الذين عرفتهم ، رأى في شخصيتي الاندفاع الذي لم يشهده في جميع الفتيات.

لمح بريق الإرادة والتحمس للحياة وتجاربها بأفراحها وأحزانها.

لمح كل الأشياء التي لم يتمكن من فعلها.

كنت كالمتحف الذي كلما تجول فيه كلما زاد انبهاره.

كنت كغرفته العجيبة المليئة بالقطع النادرة التي لولا المغامرة لما تمكنت من رؤيتها.

عشنا أياما ممتعة، وتقبل كل منا الآخر بعيوبه ومحاسنه.

كأننا حضارتين مختلفتين متصادمتين.

حرصت على تكون حياتنا استثنائية، حتى الأزمِنَة والأماكن التي كنا نقضي فيها أوقاتا حميمية أردتها أن تكون مميزة.

هربت من المعاشرة الرتيبة المملة كأغلب المعاشرات الزوجية المضجرة، التي تنتهي بالنفور من الطرفين، علاقات تنتهي برجل يبحث عن عشيقة أخرى تنسيه في كابوسه الأسري الذي لن يستفيق منه وبمرأة حبيسة المنزل تسهر على راحة زوجها وتربية أولادها وترتيب منزلها ثم ينام كل منهما في غرفة منفصلة.

أردت أن تكون علاقتنا مثالية خالية من كل هذه الترّهات التي تؤول إليها قصص الحب والزواج التقليدي.

عشنا أيضا لحظات حميمية غير متوقعة، أياما كنا فيها كآدم وحواء خالدين في نعيم ظننا أنه لن يزول. حبنا اكتسح الأجواء وزاد الخريف دفئا ومتعة في شهر الهالوين أكثر.

يوم تلو الآخر إلى أن تأتي الليلة المنتظرة التي لم يبقى عليها سوى يوم واحد.
قضينا الليل نخطط للنزهة، والمأكولات التي سناخذها معنا والموسيقى التي سنسمعها هناك.
سيكون موعدا غراميا كأفلام الأبيض والأسود.
اليوم الثلاثون في شهر عيد اليقطين المقدس، ليلة عيد الهالوين المنتظرة.
نهضت باكرا بعد صعوبة في النوم وأحلام يقظة شغلتني كلما وضعت رأسي على الوسادة قضيت ليلتي أتأمل وجه دانيال الطفولي وبراءته وجماله وهو نائم.
فور انتهائي من اعداد فطور الصباح أيقظت دانيال ومارسنا روتيننا اليومي المعهود بكل طقوسه التي زينتها قبلاتنا الصباحية، بعد ذلك شرعت في تحضير المأكولات التي سنأخذها معنا في النزهة، طبخت الفطائر المحلاة، وشطائر الجبن وشرائح الديك الرومي، بالإضافة إلى هذا كله قطع كيك الشوكولاتة والمشروبات الغازية التي يحبها دانيال وحفظت كل هذه الأطعمة في علب حافظة وضعتها في الحقيبة.
ثم مررت للخطوة الأهم وهي تحضير نفسي للموعد، حرصت على أن أرتدي قميصا برتقاليًا وتنورة سوداء وسترة وحذاء جلديين، أما دانيال فقد ألبسته بذلة سوداء وربطة عنق قرمزية قاتمة وقبعة سوداء كالتي أحب ارتداءها من الحين والآخر.
كل شيء صار جاهزا ولم تفصلنا سوى دقائق على موعدٍ مثير في حقول القش الذهبية.
أقلتنا سيارة الأجرة للبحيرة التي لم تبعد سوى ربع ساعة عن المنزل حسب التقريب.
اندهشت من روعة ذلك المنظر وسكونه.
الوقت كان ظهيرة، والطبيعة كانت منشرحة مرحبة بزيارتنا المرتبة منذ أسابيع، الطقس معتدل والنسمات الباردة تهب على العشب المصفر، لتلامس مياه البحيرة الراكدة.
مشهد هادئ يبعث الطمأنينة في القلب، كاللوحات التي يرسمها دانيال فهمت أن هذا المكان مصدر إلهام له.

فرشنا الملاءة على العشب واستلقيت أنصت لصوت الطبيعة الذي كان كقيثارة داعبت أوتارها قلبي... أحدق في السماء أنا ودانيال الذي استلقى بجانبي وانسجمنا مع أسمى لحظات الارتقاء الروحي، تشبثنا بالغيوم وتسلقنا السماء نحو جنتنا الموعودة على ضفاف البحيرة والنباتات الشاحبة مثلي، أغمضت عيني واستمتعت بالنسيم الخريف وصوت وقعه على العشب والبحيرة... فتحت عيني وأمعنت التأمل في السماء، كانت زرقاء كعيني دانيال، رقيقة وعذبة كحلم الأطفال ...

حبيبي دانيال كان مستلقي بجانبي ...لساعات نتحدث عن حبنا وجمال المكان والفن...

شربنا القهوة وأكلنا كل شيء احضرناه بشراهة لا توصف، كأننا نأكل تفاح الجنة المحرم ونشرب من أعذب خمورها.

كأننا اول مخلوقين آدميين يطآن هذه الجنة الأرضية، المناظر آسرة أخّاذة والطعام لذيذ يملأ معدتنا.

لكني أردت لهذا المنظر المقتطف من الجنة أن تطغى عليه الخطيئة ويحاكي الآثام الآدمية المكبوتة، آن الأوان للخطيئة أن تجد مكانا بين أعشاب البحيرة المحتضِرة.

قبلت دانيال قبلة طويلة إلى أن صرخ في وجهي:" ما الذي تفعلينه ؟ أنت حقا مجنونة... إننا لسنا في المنزل توقفي."

حاول ابعادي لكنه لم يستطع لأني كنت أقوى منه، قبلته وقلت:" الإحساس بالخطر شيء ممتع ... لا تخف."

رحت أداعب دانيال الذي كان حقا متوترا ومتضايقا إلا أنه لم يمانع واستسلم لكل ما أردته في النهاية.

طلب مني أن أناوله بعض الماء وأضفت قائلة:" أرأيت، الأمر كان سريعا، لم يكن هناك داع للقلق ...غالبا ما تبالغ في خوفك عزيزي، الجميع يفعل هذا في الأماكن المفتوحة الخالية."

فقاطعني قائلا:" وغالبا ما تبالغين في تهورك."

داعبت وجنتيْه المحمرتين وقلت:" لأني أحبك ... كذلك أحب المغامرات."

شهدت هذه البحيرة واقعة حميمية كنت أنا بطلتها وأغرقت كل البحيرة بأمواج شهواتي، أغريت آدم في عقر جناته وجعلته يعيش موعدا غراميا لا مثيل له.

هكذا اختتمنا عيد ليلة الهالوين ونزهتنا التي لن تعاد.
عدنا للمنزل فرحين ومتعبين ونمنا في أحضان بعضنا لنستيقظ في اليوم الموالي وننهي اليوم الواحد والثلاثين من ذلك الشهر الذي لن يتكرر، تكاسلنا كامل اليوم الذي أمضينا معظم ساعاته في السرير، نستعيد أحداث اليوم الفارط وموعدنا الذي لا ينسى.
أمضينا آخر يوم في شهر أكتوبر في غيبوبة، لقد خدرتنا روعة الطبيعة والتجربة التي عشناها في الهواء الطلق، كان أروع احساس عشته في حياتي، معاشرة حميمية مصحوبة بالأدرينالين والنسمات الخريفية الباردة جعلت دانيال يفهم ما الذي أقدر عن فعله، إن أردت أي شيء وفي أي مكان يمكنني الحصول عليه.
وهكذا طوينا صفحة ذكريات لم أتخيلها ولا في الأحلام، ليحل مكانها شهر نوفمبر، الطقس سيصبح أكثر قسوة وبرودة وفي الأيام القليلة القادمة سنودع الأوراق الذهبية التي زينت الحي الاسمنتي.
ستتساقط تدريجيا وتذهب أدراج الرياح، والأغصان ستصير أكثر صلابة كقلبي.
لم يكن هناك أي شيء يميز هذا الشهر ولا أي احتفالات خاصة.
لا شيء سوى المسؤولية التي لم أظن أنها ستكون مرهقة لهذه الدرجة، مع الأيام مللت من أوامر دانيال والوقت الذي أقضيه في مساعدته في القيام بهذه وتلك، لم تكن هذه الأحلام التي حلمت بها، ولم تكن هذه الأكروتوموفيليا التي بحثت عنها، مللت من قضاء كامل الوقت واليوم بين جدران منزل كئيب في حي رمادي موحل، وخاصة مللت من تعليقاته عن ملابسي السوداء وافراطي في التدخين.
كنت حمقاء عندما ظننت أن دانيال هو دميتي المتحركة التي أسيّرها كما أريد، لكن في النهاية... كل توقعاتي كانت خاطئة.
أيقنت أن السيد محمد كان على حق هذه ليست الحياة المثالية لشخص مندفع مثلي، صرت أسيرة حب وقعت فيه بسبب تهوري.
والآن أصبحت زميلة دانيال في سجن أبدى انعزالي وصرح شيده حول نفسه.
مللت من تقضية كامل المساء أتنقل بين الغرف اتأمل لوحاته المتروكة التي تنتظر قدوم أحد الأثرياء ليشتريها، لم يكن دانيال بمثابة فينوس دي ميلو بالنسبة لي بل أنا التي كنت تمثالا بالنسبة إليه، مجرد جمال لا يجب أن يراه أحد.

"لا تخبري أحدا عن علاقتنا."
"لا تتحدثي مع أي شخص في الحي نساءا ورجالا."
" لا تتحدثي لأي من أفراد عائلتي."
"افعلي هذا ولا تفعلي ذاك."
كنت ممنوعة من الخروج معه لأنه ألف العزلة، فالناس سيحدّقون بنا أكثر إن رأونا مع بعض.
كل ما كنت أفعله هو مشاهدته وهو يرسم بينما كنت أدخن أو أحتسي القهوة، بصَمته المعهود، بدون أي حديث لنتجاذبهُ، فدانيال كان كثير التكتم عن ماضيه عن حياته الخاصة وعن أعماله المستقبلية، لم أتمكن من مناقشة كل ما كان يدور في ذهنه من طموحات وأحلام، فقط اكتفيت بالمشاهدة كأني شيء ثانوي في حياته، "مثل أي من معجبيه"، عكس كل ما تصورته وسعيت لبنائه.
وللأسف بدأت أحس أن شعلة الحب التي بداخله بدأت بالانطفاء.
فقد كثرت تذمراته وتشكياته، حيث أذكر في أحد الأيام أني كنت جد مشغولة بإتمام لوحة ما، لكنه في ذلك الوقت أصر أن أساعده في القيام ببعض الأشياء التافهة.
"نظفي المكان".
"احضري لي هذا، وخذي ذاك ضعيه في المطبخ".
"غيري لي ملابسي".
كثرت هذه الأوامر التي كان علي تنفيذها بينما كان يقضي وقته في مشاهدة التلفاز أو التحدث في الهاتف، بالطبع مع أشخاص لم أعرف ماهي صلة القرابة التي تجمعه بهم، عشرات المكالمات من أُناس رفض أن يفصح لي عن هوياتهم "صحافة، زبائن، جمعيات، أقارب، جيران... ."
من بينهم فتاة كان كثيرا ما يهتم لأمرها، كل ما سمعته كان أسئلته المتعددة عليها لأصدقائها، أين هي؟ أين ذهبت؟ أين صارت تعيش؟ ...
ظننت أنها أحد أقاربه ولكن ذات يوم سمعته يقول، " لا تخبرها أني أسأل عليها باستمرار."
وقد علمت أنه يرسل لها المال خلسة مع اصدقائها دون أن يقول لها أنه المرسل ودون أن يطلعني بالأمر.

لم أتحلى بالجرأة الكافية للسؤال عن تلك الفتاة، لذلك قررت تجاهل الأمر لكي لا أفتعل أي مشكلة. فأنا لا أرغب في أن أجرح مشاعره.
أما مشاعري فمن يأبه لها...
بالطبع لا أحد.
في ذلك الحي الذي يزداد كآبة مع برودة الطقس غالبا ما ينقطع الكهرباء كلما يشتد الطقس سوءا... حتى وإن كان الطقس جميلا ينقطع الكهرباء أيضا... في الليل وفي النهار ولا أحد يعلم لماذا ...
وشاءت الأقدار في ذلك اليوم الذي لم تتوقف فيه السماء على النحيب انقطع التيار الكهربائي عن حينا الكئيب فلم يتمكن دانيال من مشاهدة التلفاز أو تصفح أتفه مواقع التواصل الإجتماعي التي انسحبت منها ثانية، فاكتفيت بالبقاء معه في غرفة الجلوس أين كان يجلس كل منا على أريكة، دون أن نتحدث أو نقوم بأي شيء، ساد الملل على المكان بأكمله وشعرت بالنعاس إلى أن رن هاتف دانيال.
نظر للمتصل لكنه لم يجب.
تواصل الرنين وتعاقبت الاتصالات، لكنه أصر على أن لا يجيب.
استفزني ذلك الرنين المتواصل إلى أن صرخت:" إن كنت لا ترغب في الإجابة على الهاتف دعني أغلقه، صوته سيصيبني بالصداع."
فرد علي بدمه البارد:" حسنا سأفعل."
ويا ليته لم يرد على ذلك الاتصال، فالمتكلم كانت أنثى لكني لا أعلم من تكون لذلك حاولت أن أفهم من هي من خلال الحديث الذي دار بينهما حيث سمعت دانيال يقول لها:" اشتقت لك... لماذا رحلت... بحثت عنك في كل مكان ... كدت أن أجن... أين صرتي تعيشين... إن احتجت إلى شيء لا تترددي... سأرسل لك بعض النقود قريبا."
وانتهت المحادثة.
هل كان يغازل فتاة أخرى على مسمع مني؟
في تلك اللحظة بدأت أشك في عديد الأشياء، هل هي نفس المرأة التي كان يبحث ويسأل الجميع عنها؟ من دون أي أدنى شك أنها نفسها، لكن من تكون؟

حاولت أن أبدو عادية أمامه وسألته بكل لطف وحسن نية:" عزيزي من كان المتصل؟"

فقال قصد تجنب الحوار الطويل الذي سيفتحه سؤالي:" الأمر غير مهم."

فقلت في سخرية:" لكنك أبديت اهتماما مفرطا بالمتصل... أقصد المتصلة، فمن تكون؟.

فأجابني متهربا:" قصة قديمة وطويلة من الأفضل أن لا نفتح هذا الموضوع."

بدأت أشعر بالتوتر وأتساءل عن السبب الذي يمنع دانيال من التحدث في هذا الموضوع، هل يخفي سرا ما ؟

ولمعرفة الحقيقة لم أجد أي حل غير إسقاط قناع البراءة والصراخ في وجهه ولكن ليس بأعلى صوتي لا، فقد وفرت الانفعال لما بعد:" أعلم أنها نفسها التي كنت تسأل عنها الجميع، لا جدوى في الإنكار أريد أن أعرف كل شيء، أريد الحقيقة وإلا سأرحل إلى الأبد."

ومثلما كان يفعل في كل مرة ... بالطبع تجاهلني.

عندها علمت أن وقت الانفعال قد حان فصرخت بحدة:" أعلم أنك تريد أن تبقيني في الجانب المجهول من حياتك، أن لا تطلعني على أسرارك، أنا شخص نكرة بالنسبة لك..."

نهض دانيال وجلس قبالتي ليتأمل ملامحي المتقلبة، ظل صامتا في البداية لكنه تكلم أخيرا:" لكنك لن تفهمي موقفي هذه المرة."

حاولت أن أستعيد براءتي وقلت له:" أعدك أن أتفهم كل شيء، أنت تعلم كم أحبك."

تمعن ملامحي المختلطة بالقلق والحماس والتمويه ثم تنهد ليقول بنبرة طغى عليها الندم والتردد:" ولذلك أحس بالذنب."

كل شيء تغير فجأة غادرني الحماس ليبقى القلق وحده حبيس مخيلتي فسألته باستغراب:" لم أفهم قصدك... هل تشعر بالذنب لأني أحبك."

فحاول التوضيح:" بل لأني أخفيت أشياء."

سكت قليلا ليزيد من توتري ثم أضاف:" وكذبت في أشياء."

وقفت واتجهت نحوه لاحتضانه بينما كنت أقول له غير واعية بخطورة الأمور التي برع دانيال في إخفائه طيلة علاقتنا:" لا بأس، لا مانع عندي، لقد كنت تكذب منذ البداية، لكن حبي جعلني أتغاضى عن كل هذه الأمور."
فقال دانيال ممزقا شريط أحلامي التي لاحت أمام عيني في تلك اللحظة:" لم أقصد ذلك، في الواقع الأمور أكثر تعقيدا مما تبدو عليه، لكن لا مفر من الصراحة لأنه ليس بامكاني إخفاء الحقيقة أكثر من ذلك' لكن قبلها عديني بأن لا تكون هناك أي انفعالات درامية."
على وقع تلك الكلمات شحبت ملامحي وعجزت عن الكلام فاكتفيت بالإيماء، وهكذا أذنت له بأن يحطم قلبي فقال:" لا أعلم من أين سأبدأ ."
فقلت له في بهتة:" من البداية، أريد أن أعرف كل التفاصيل المشوقة والمملة، لدينا متسع كاف من الوقت والتيار الكهربائي لا يزال منقطعا."
تلعثم في البداية ولكن سرعان ما عادت له فصاحة لسانه وبدأ بسرد الأحداث:" كل شيء بدأ تحديدا قبل سنة من أن أعرفك، حيث طرقت فتاة عشرينية غريبة باب منزلي في أحد الليالي الباردة التي اشتد فيها تهاطل الأمطار قصد أن أسمح لها بقضاء الليل عندي لأنها لا ملك أي مكان تأوي إليه فلم أمانع ذلك وأدخلتها لأعلم فيما بعد أنها كانت تقضي الليالي في المحطة القطار المجاورة منذ أن قامت عائلتها بطردها من المنزل فلم يكن أمامها أي حل غير مغادرة مدينتها والقدوم إلى هنا قصد البحث عن عمل، كانت تتحدث وتبكي، صوتها حزين، ملا بسها رثة ومبللة، تتضور جوعا لدرجة جعلتني أشفق عليها وأبقيها معي بالبيت لتعمل كمعينة منزلية، على الأقل ستهتم بترتيب البيت وتنظيفه وأيضا تساعدني في حاجياتي اليومية ... هذا ما اتفقنا عليه في البداية إلى أن وقعت في حبها."
فقاطعته في صدمة:" لكن مهلا ... قلت لي أنك لم لم تعرف أي فتاة قبلي ."
أخذت مهلة لأسترجع فيها ذكريات تلك الأيام ثم أضفت :" لكن في البداية قلت أنك كنت على علاقة، ثم قلت أنك تكذب ... لم أفهم أي شيء."
فأجابني متأسفا ومحاولا تبسيط الأمور:" أنا آسف، ما قلته في البداية كان صحيحا، لكن فيما بعد كذبت ... كذبت لأني كنت أحاول أن أنساها، أحاول محوها من ذاكرتي ... كذبت عندما قلت أني لم أعرف أي فتاة قبلك، ولم أقع في الحب ولم

أعش أي علاقة عاطفية... كلها كانت أكاذيب لأني أردت فقط أن أنسى... أن أفقد الذاكرة."
اشتد مفعول الصدمة الأولى التي صعقتني للتو ومنعتني عن الكلام، ولم تترك لي أي خيار غير الانفجار بالبكاء .
أما دانيال فقد لمحت الندم وتأنيب الضمير على وجهه، إلا أنه لم يتحلى بالجرأة الكافية ليواسيني أو ليقول أي شيء يخفف من ألمي، وأنا بدوري لم أرغب في مقاطعته أو لومه، فقط اكتفيت بسماعه يسرد بقية التفاصيل:" بقيت معي لمدة سنة كاملة، أحسنت إدارة الأمور ... كل شيء كان مثاليا، إلى أن رحلت."
فسألته بسرعة:" متى انفصلتما ؟"
فقال دون أن يخجل من فعلته:" أتذكرين موعدنا الأول الذي تهربت من القدوم إليه؟ ... في ذلك الوقت كنا قد انفصلنا ولكن ظلت تعيش معي إلى غاية أن تجد مكانا تأوي إليه، لم يكن بوسعي أن ارميها في الشارع، وعندما صرت أواعدك أحست بالتهديد لأني سأتخلى عنها وأبدأ حياة جديدة، فتشاجرنا صباح ذلك اليوم ولم أتمكن من القدوم أو مواجهتك.... بعد أيام رحلت خلسة عندما ذهبت لزيارة أمي، دون أن تقول لي أين ذهبت، أو تترك أي رسالة أو عنوان."
سكت قليلا ليبتلع ريقه أو ربما ليستمع لاناتي المتقطعة ثم واصل حديثه:" عشقتها لدرجة الجنون... كانت أول امرأة في حياتي... لم تكن جميلة أو جذابة ولكني أحببتها وتعودت عليها ... كانت كل شيء، إلى أن رحلت وبقيت حبيس ذكرياتي معها، قصة حبنا كانت أكثر من مثالية، المنزل كان مليئا بالبهجة معها."
ثم سكت كأنه كان يحاول إنهاء الموضوع.
فسألته محاولة أن أفهم :"هل استعدت تلك البهجة معي؟"
فقال مستهزئا:" تقصدين تلك الفوضى التي مازلت أحاول جاهدا التأقلم فيها ... عديد الأشياء التي كنت أتمنى أن تتغير فيك، أردتك أن تصبحي مثلها أردتك أن تملئي ذلك الفراغ لكن الاختلاف واضح بينكما في كل شيء بداية من الشكل ... لكن هذا ليس موضوعنا الآن فأنا أحبك، لا أستطيع العيش من دونك، أنت كل شيء بالنسبة لي الآن... لقد انتهت قصتي معها... صدقيني."

صمتنا قليلا بينما كنت أحاول استيعاب كل الذي كنت أسمعه وحاولت أن أستجمع قوتي وأتغاضى عن أكبر كدبة عشتها في حياتي .
قضيت كل هذه الأشهر أحاول إيجاد تفسير لتصرفات دانيال المشكوك فيها، بنيت كل الفرضيات والأن لقد هدم صرح فرضياتي في رمشة عين، كأني كنت أعيش علاقة وهمية، كأني كنت أعيش في أحلامي وفي علاقة تخيلتها في مخيلتي، لأنزل لأرض الواقع المعاكس تماما لكل ما كنت أحلم به وأجد عديد الأسئلة التي استقبلتني ومنهم خاصة سؤال واحد كنت آمل أن يصارحني دانيال بخصوصه، فسألته:" إن كنت قد نسيتها حقا لماذا نفرتني في البداية، لماذا تهربت من معاشرتي والنظر إلى جسدي."
فأجابني وقد وجد عذرا آخر ومبررا يخفي وراءه أبشع أكاذيبه وأقبح ذنوبه:" لم أكذب بخصوص ذلك الأمر... لم أتمكن لأني كنت أفكر بها، أشتهيها، أريدها وأتخيلها، لم أتحمل فكرة أن أكون مع امرأة أخرى غيرها."
فسألته مجددا:" أ تحبها لهذه الدرجة ؟"
تنهد ثم أجابني من أعماقه:" السنة التي أمضيتها معها جعلتني مجنونا، مرضت نفسيا، جعلتني لا أرى أي امرأة غيرها كأني مسحور أصبت بنوبة اكتئاب حادة فور انفصالي عنها وزرت طبيبا نفسيا بسببها، لم أجد أي شخص يساعدني على الخروج من تلك الأزمة... غيرك، لا تتخلي عني الآن."
كان ذلك كل شيء وهذه كانت الأسرار التي برع دانيال في اخفائها منذ البداية، قصة حب فاشلة جعلته يبحث عن حبيبته السابقة في كل امرأة يقابلها.
على الأرجح كان ذلك أصعب موقف وضعت فيه في حياتي كلها.
منحت دانيال عديد الفرص وقد تمادى في أكاذيبه لدرجة لا تحتمل، أي فتاة أخرى لن تتحمل كل هذا.
لا أعلم إن كان علي أن أتبع قلبي أو عقلي الذي يحثني فورا على جمع أغراضي والرحيل.
ومثل كل مرة حاولت تقبل الأمر والوقوف إلى جانبه في ظروف كهذه بالاضافة إلى أني لم أعد قادرة على العيش دون دانيال لكن فجأة أجد نفسي بين المطرقة

والسندان، إما أن أجبر نفسي على قبول الواقع أو أن أرحل في صمت لأعود لحياتي الكئيبة الخالية من الحب والمعاني بعيدا عن دانيال .
وبعد مهلة من التفكير وجدت نفسي أحتضنه مجددا وأقول له قصد مواساته مرة أخرى أهملت نفسي ودست على قلبي الذي لن يتوقف عن النزيف جراء الكذب الذي كنت اكتشفه تدريجيا:" لن أتخلى عنك إن وعدتني بأن تقطع علاقتها بها نهائيا... مهما حصل لا تجب على اتصالاتها."
ووافق على كل تلك الشروط دون أي مراوغة، ثم قال مستسلما بين أحضاني:" أحبك."
وقلت له بعد تقبيل جبينه:" تعلم أني أحبك وأغار عليك... وأريدك أن تكون ملكي وحدي."
لكنه لم يعطي أي أهمية لتلك الكلمات.

بعد تلك المحادثة التي مثلت منعرجا في علاقتنا، أحلامي تحولت لكوابيس وأوامر أطيعها دون أي تذمر، هربت من صورة الرجل الشرقي تجنبا للأوامر، لأجد أوامر أخرى من نوع آخر، بالطبع لا أستطيع عصيان تلك الأوامر لأنها أساسية في حياة دانيال، لكني مللت... مللت وسئمت كل الغدر الذي عشته.

كل تصرفاته جعلتني أشك أن السبب الرئيسي لعيشي مع دانيال هو فقط من أجل مساعدته.

لذلك بدأت بممارسة ألاعيبي الشريرة القذرة معه وقررت أن أجعل من نفسي الأولوية الوحيدة في هذا المنزل.

يومها، كنت جالسة على الأريكة وبجانبي دانيال الذي كان يشاهد الأخبار في وقت متأخر من الظهيرة بعد تكاسل دام كامل اليوم.

حتى آراءنا السياسية بشكل عام كانت مختلفة، لم أكن أرغب في مشاهدة الأخبار معه والاستماع لتعليقاته السخيفة على الوضع العصيب الذي تمر به البلاد.

كنت جالسة بجانبه، ولكني لم أهتم بالأخبار، كنت مشغولة بصبغ أظافري بطلاء الأظافر الأسود، ودانيال كان يستمتع عندما يشاهدني أقوم بذلك كان يدعي مشاهدة الأخبار بينما يختلس النظر لما كنت أقوم به، طالما عشق تلك الحركات المغرية التي كنت اقوم بها عندما أرتدي جواربي المشبَّكة أيضا والتي كان يقاطعها بقوله الفيتيشي" انزعي الجورب وارتديه مرة أخرى، افعلي ذلك بكل بطئ."

ولم أمانع القيام بذلك لأنه أنثوي ومثير على حسب قوله، وكان يحب طلاء الأظافر الأحمر، لكني كنت أحب الأسود في كل شيء حتى في طلاء الأظافر فالأسود هو لوني المفضل.

نظر حوله كأنه يبحث عن شيء ما ثم قال:" عزيزتي أحضري لي كوبا من الماء."

تعجبت وقلت:" دانيال... أ حقا ما تقول، ألا ترى كم أنا مشغولة، إن تحركت الآن سأفسد طلاء أظافري."

فقاطعني:" ولكني أشعر بالعطش."

فقاطعته أيضا:" ولكني مشغولة، لن تموت إن بقيت بدون ماء لمدة ربع ساعة إضافية. "

فتراجاني قائلا:" حبيبتي أرجوك، أنا حقا أشعر بالعطش."
فقلت ساخرة:" أحضره وحدك إذا، أو اذهب للمطبخ واشرب قدر ما تريد."
فقال في انفعال :" كيف لي أن أفعل هذا وأنا بلا يدين؟ أنا لا أستطيع."
فضحكت ثم أضفت:" وأنا أيضا لا أستطيع، أنا مشغولة الآن بما هو أهم من كوب الماء الذي تريده، تحلى ببعض الصبر، فهي مجرد ربع ساعة إلى أن يجف الطلاء."
ثم ضحكت كالعادة قصد اغاضته.
فتجاهلني بغضب واحتقار وتوجه لغرفته بخطواته العرجاء المتثاقلة، استلقى على السرير بصعوبة وهناك قضى ما تبقى من المساء، حزينا يشعر بالعجز والعطش بمفرده.
أما أنا فقد نسيت أمر كوب الماء ذاك وتركته منزويا في غرفته دون أن أذهب لأطمئن عليه.
ناديته للعشاء ولكنه رفض القدوم. فهو لا يشعر بالجوع على حد قوله.
قضيت الليل بمفردي أشاهد فيلم رعب وقد إخترت فيلم نوسفيراتو[61] الكلاسيكي بالأبيض والأسود، أطفأت كل الأنوار واستمتعت بوقتي وحدي ونسيت أن دانيال يشعر بالعطش والجوع، وغاضب بسبب كوب الماء اللعين.
أنهيت الفيلم في ساعة متأخرة من الليل ثم ذهبت لأنام، وجدت دانيال نائما بكل براءته، وقلت لنفسي:" لا بد أنه يتضور جوعا يال المسكين."
قبلت جبينه ثم أضفت:" لكني لم أجبره على أن يبقى حبيس غرفته كامل المساء، إنها غلطته."
ثم حضنت لعبتي الصغيرة ونمت.

[61] نوسفيراتو : فيلم رعب صامت بالأبيض و الأسود من سنة 1922.

أمضينا كامل الأسبوع في البيت كعادتنا، حديثنا تقلص ومضاجعاتنا اندثرت فقد كان دانيال مشغولا بالرسم ليلا نهارا لم يملك أي وقت لنتقاسمه، وقد طلب مني مسبقا أن لا أزعجه بتصرفاتي الشاذة غير المتوقعة مرة أخرى خاصة عندما يكون مشغولا.
قبلت طلبه وتفهمت موقفه لأني لا أريد أن يزعجني أي شخص عندما أرسم أو أقوم بشيء أحبه، لذلك قررت أن أترك دانيال يستمتع بوقته مع لوحاته بينما سأستمتع بوقتي مع عائلتي حيث سأقضي يومين معهم، لعله يشتاقني أكثر في اليومين القادمين.
في الواقع لم أفعل ذلك تلبية لطلب دانيال، بل فعلت ذلك لأن علاقتنا أصبحت سامة ومتوترة، بعد كل تلك الصدمات التي عشتها معه في الآونة الأخيرة فبعض الوقت الذي سأقضيه بعيدا عنه ربما قد يعيد المياه لمجاريها.
ثم انقضى اليومان في لمح البصر وحان الوقت ليعود دانيال لحضني، فقد تعودت عليه ولم أعد قادرة على فراقه أكثر.
رغم الألم الذي كنت أعيشه جراء اعترافات دانيال وتصرفاته إلا أني لم أفقد الأمل في إصلاح ما تفكك في علاقتنا.
لا أعلم إن كنت حقا مذنبة في حقه في ذلك اليوم لكن لم تكن لدي أي دراية عن ما سيحدث في الأيام الموالية بسبب تلك الحادثة...
كما تعودتم على دانيال فهو يحبذ البقاء في المنزل كامل الوقت، يشاهد التلفاز لتجنب تغامزات الآخرين عليه، أما أنا، يومها قررت أن أضايقه، أو ربما أني لم أقصد مضايقته فتصرفاتي دائما ما كانت سادية وطائشة بطبعها.
بعد انقضاء ساعة في الحافلة وصلت وأنا في قمة السعادة والانشراح لأنني سأحتضن دانيال أخيرا.
لم يتوقف المطر عن التساقط والرعد عن الزمجرة بكل قوة وغضب ولم أتمكن من إيقاف سيارة أجرة ففي طقس كهذا تختفي سيارات الأجرة عن الأنظار، لذلك قررت أن أذهب للمقهى لغاية أن يهدأ الطقس.
جلست في المقهى الذي اعتدت ارتياده في الحي الفرنسي القديم وسط العاصمة، طلبت قهوة واتصلت بدانيال لأعلمه بوصولي، لكن لم أكتفي بذلك فقد طلبت منه أن

يأتي للمقهى ليستمتع معي بالأجواء الشاعرية الممطرة، لكنه رفض صارخا:" هذا مستحيل، تعلمين أني لا أستطيع الخروج."
وأغلق الخط في وجهي بانفعال.
كنت أعلم مسبقا أنه سيرفض لي طلبي مثلما يفعل كل مرة، لكني لم أهتم وقررت أن أستمتع بقهوتي وصوت تهاطل حبات المطر.
وصلت للمنزل في ساعة متأخرة من المساء، مبللة بالمطر وأرتجف من شدة البرد، أما دانيال فقد كان ولا يزال جالسا على الأريكة يرسم مثلما تركته قبل يومين، كأني لم أغب أبدا...
حييته وألقيت بحقيبتي على الأريكة التي كان يجلس عليها ثم استلقيت بجانبه بملابسي المبللة، إلا أن ملامحه لم تتغير، ظل محافظا على تركيزه, يداعب اللوحة بأصابع قدميه، راقبته لبضع دقائق ثم صرخت بصوت عال قصد تشويشه:" أنت لا تحبني."
لكنه أجابني بينما كان يرسم محافظا على كل الهدوء والتركيز اللذان لم أنجح في تشتيتهما:" لماذا تقولين ذلك ؟... أ حدث لك شيء في الطريق؟"
فأجبته صارخة بكل ما أوتيت من جهد:" دائما تعصي أوامري ثم تدعي البراءة، دائما ترفض مرافقتي عندما أخرج... لماذا أنا التي عليها تحمل مشقة الوصول لهذا المكان الخالي والنائي شبيه الصحراء... لماذا رفضت القدوم إلى المقهى؟"
سكت منتظرة عذرا يسهل علي تصديقه لكنه لم ينبس بكلمة واحدة فواصلت الصراخ:" لماذا لا تهتم لأمري ... أنا لا أريد حبا كهذا."
لكنه تجاهل صراخي وواصل الرسم كأنني لست جالسة بجانبه، ثم قال بعد تفكير طويل لعله يعثر عن اجابة عن سؤالي أو كل أسئلتي بأقصر العبارات:" أنا لم أرفض القدوم... تعرفين أني لا أستطيع."
صرخت بعد أن طفح الكيل:" لكنك تستطيع حضور المعارض في كافة البلاد وذلك يكفي."
أسقط الفرشاة من بين أصابع قدميه ثم نظر إلي بكل برودة أعصاب وقال:" عزيزتي لماذا تصعبين علي الأمور؟"
فقاطعته متذمرة:" ولماذا يجب أن تكون أنا من التي تقوم بكل التضحيات؟"

بدا عليه الاستغراب، نفس الاستغراب الذي أبداه في لقائنا الأول، لكنه ظل صامتا، ثم قال بتعجب:" تعرفين أني أعاني من صعوبة في التنقل وأني أيضا غير قادر على التنقل بمفردي , كيف لي أن أقطع كل تلك المسافة وأنا في هذه الحالة؟"

فقلت له بنفس الغضب الذي لم أتمكن من تهدأته:" لا أهتم، لقد سئمت من أعذارك ومن أسلوب عيشك و من كل شيء، سئمت من عصيانك لأوامري، لماذا تتحداني باستمرار؟"

لكنه أجابني مباشرة دون أي ترو أو هدوء:" أتحداك؟ أنت من تطلبين أشياء تعجيزية في كل مرة، كنت بمفردي ولا يوجد هناك أي أحد ليدفع بي الكرسي المتحرك... كيف لي أن أغادر المنزل؟"

ثم غزت وجهه ملامح الارتباك... والحزن أيضا وقال:" تطلبين مني القدوم بكل وقاحة وتعلمين أني غير قادر على السير، أقبع كامل اليوم في كرسي متحرك..."

ثم توقف عن الحديث لتملأ صوته غصة كان يحاول كتمانها لكي لا ينفجر بالبكاء.

ابتلعت ريقي وقلت بكل عناد:" إن كنت تحبني بصدق لفعلت المستحيل ونفذت كل أوامري، كان بإمكانك أن تأتي حتى زحفا على الأقدام... مللت من كل الأعذار."

صدم دانيال لما سمعه للتو، هل هذا حقيقي ؟ هل هي قاسية لهذه الدرجة ؟

وخطرت بباله عديد الأسئلة التي رفض طرحها تجنبا لحدتي وانفعالي الذي تجاوز المعقول في تلك الليلة.

نزل من الأريكة بتلك الصعوبة المعهودة دون اضافة أي كلمة على كل الكلام القاسي الذي قلته والذي سبب في قلب دانيال أعمق الجروح، ذهب إلى النوم تاركا علب الألوان الزيتية مفتوحة و فرش الرسم ملقاة على الأرض .

ومع كل ذلك فلم أتمالك أعصابي فتجاهله لي قد زاد من غضبي وأخذت أصرخ بأعلى صوتي حتى يتمكن من سماعي جيدا:" أنت دائما تتجاهلني عندما تنفذ أعذارك... لما تضع كل اللوم علي... لقد سئمت من كل هذا، دانيال كف عن تجاهلي."

وواصلت الصراخ بمفردي كامل الليل رغم أن دانيال عمد تجاهلي والبكاء بعيدا عن أنظاري، حاولت أن أهدأ وأتنفس ببطء متأملة اللوحة التي كان يرسمها دانيال.

أحضرت ورقة بيضاء جديدة وجلست مكان دانيال محاولة تقليد اللوحة التي كان يرسمها متناسية كل الذي حدث ودانيال الذي غلبه النعاس من شدة الحزن والبكاء.

لم نتحدث عن تلك الحادثة في اليوم الموالي بل تصرف دانيال كأن شيئا لم يكن، إذا أظن أنه ليس غاضبا عني، بالطبع هو ليس غاضب لأنه يعلم أني أحبه.
لكن ما حيرني أنه أصبح ينام في غرفة الجلوس على تلك الأريكة أين يقضي كامل يومه، أصبح يضاجع هاتفه و لوحاته عوضا عني ويلازمهم ليلا نهارا.
تصرفاته هذه أشعرتني بالغيرة، غيرة ليست في محلها.
غيرة يجب أن لا يلحظها دانيال ... فأنا الآلهة وليس من حقي أن أغِير من أشياء ليست لها قيمة.
أردت أن أناقش معه أفكاري والتعديلات التي أود أن أقوم بها على المنزل.
وجدت فرصة لفتح هذا الموضوع وقت الفطور، الطقس كان باردا والمطر لم يتوقف عن الهطول منذ يومين من المفترض أن يشعره هذا الطقس بنوع من الرومانسية والبحث عن الدفء في أحضاني هروبا من الشتاء وبرده.
لكنه خير لوحاته، لجأ إليهم و هجرني.
لم يناديني إلا من أجل مساعدته.
" انزعي لي ملابسي... غيريها... ضعيها في الغسالة..."
وأنا كنت أفعل متغاضية عن كل هذا، وأطلعته عن الموضوع الذي شغلني والألوان التي أريد أن أطلي بها الجدران.
لكني استغربت ترحيبه بالفكرة، ظننت أنه لن يقبل كعادته لكنه لم يمانع وقال مبتسما:" المنزل ملكك عزيزتي، تستطعين فعل أي شيء ترغبين به، لكن لنأجل هذه الإجراءات للشهر المقبل، فكما ترين أنا مشغول هذه الأيام."
فرحت لأنه عاد لطاعة أوامري، توقف عن الجدال والمراوغة وأطاعني دون نقاش.
انتهينا من تناول الطعام وعاد دانيال للرسم، وأنا كنت ملتزمة بالصمت أشاهده وهو يرسم وهو يداعب الألوان ويغازلها، أشاهده وهو يمارس الحب مع التفاصيل التي يرسمها، من المفروض أن أحضى بكل هذا الحب والاهتمام لا لوحاته.
أصبحت تلك الأنثى الغيورة على زوجها، ليس من الإناث الأخريات بل من لوحات خطفته مني، لوحاته التي ينام بجانبها ويغمرها بدفئه ويتركني وحدي في ليالي نوفمبر الغاشمة أتقلب وحدي في السرير بين أصوات تهاطل الأمطار وزئير الرعود واحتراق خشب المدفأة.

لم يفهم دانيال أن الإله ثور[62] غاضب من تصرفاته معي فضرب بمطرقته إلى أن أرعدت السماء وبكت من أجلي لأن دانيال خيّر لوحاته عني.
قبعت بمفردي في الغرفة العجيبة، أراقب الطبيعة الغاضبة على دانيال من وراء النافذة المغلقة، أستمع لنحيب الآلهة التي تواسيني وتخفف من آلامي.
"لن تبكي لوحدك يا عزيزتي، سأبكي معك إلى أن يعود دانيال لحضنك".
هذا ما قالته السماء.
أستلقي بمفردي أمام المدفأة أحدق بنار الغيرة التي التهمت قلبي.
والآلهة لا تزال حزينة من أجلي...
غيرة من بشر وجماد.
غيرة مكبوتة لا أستطيع أن أصارح بها دانيال.
غيرة تشعرني بالقلق، كأن شيئا ما سيحدث، حدسي الأنثوي يخبرني بذلك لأنه ببساطة كل نساء الكون تعلم أنه عندما يحبها رجل يفعل المستحيل من أجلها، يزيح الجبال لمقابلتها، يوقف عقارب الساعة ليعيش لحظة في حضنها.
المهم لن يكون مشغولا بأي شيء في الدنيا غير حبها.
فالوقت نظريا شيء غير ملموس وغير مرئي، نحن من اخترعه وأوجدناهُ في الساعات، فإن أحب الرجل المرأة يتحدى الوقت والساعات وكل عقارب الساعة والأيام والفصول من أجل أن يراها ويمارس معها كل شهواته.
هذا ما قرأته في الكتب، وهذا ما لم أجده في الواقع الكئيب.
لكن إذ بدانيال كغيره من الرجال، يخون ويهرب مني لأحضان لوحاته.
أصبح في الآونة الأخيرة يتمادى في اهماله لي، لا أعلم ما الذي يفكر فيه.
ربما أنا أبالغ في تصوراتي الديستوبية.
ربما أنا أهذي وأتوهم ... نعم فهو مازال بجانبي ومازال يحبني.
ما زلت أطعمه واستلقي إلى جانبه في حوض الاستحمام وأسهر على راحته وأركض إليه متلهفة عندما يطلب مساعدتي، لكن كل هذه الأشياء لم تجعلني أتغاضى عن تلك الأفكار السوداوية.

[62] ثور : آلهة من الأساطير النوردية و يحمل مطرقة و يرتبط بالرعد والبرق والعواصف.

أمضيت الأيام أشاهده يرسم إلى أن أتم ثلاثة لوحات في أسبوعين، لوحات بارزَ جمالها الواقع وأطاح به بطعنة قاتلة.
كلما شاهدته يرسم انسبت مع ريشاته وأنتقلتُ من الواقع لأجلس تحت شجرة في إحدى لوحات الطبيعة التي رسمها.
لا يزال يبهرني مثل أول يوم رأيته فيه.
أخيرا انتهى من الرسم وسيتفرغ لي كالسابق، لكنه أخذ استراحة صغيرة وشرع في إنجاز اللوحة الرابعة.
تعجبت من الأمر وكل هذه العجلة والطاقة الفنية التي كان يسكبها على لوحاته.
فكرة أنه لم يبع أيا من اللوحات التي رسمها مؤخرا ولم تكن لديه أي طلبيات رسم زادت من حيرتي فسألته لعلني أحصل على إجابة تسكت فضولي:" هل ستقيم معرضا عن ما قريب ؟ سيكون الأمر مشوقا لأننا سنكون معا هذه المرة."
فقال:" لا... لا أقيم معارضا في هذا الوقت من السنة، أحبذ الصيف والربيع فالسياح يتواجدون بكثرة في تلك الفصول."
تعجبت من الإجابة وسألت مجددا:" إذا لماذا ترسم كامل الوقت، لقد انقضى منتصف الشهر وأنت على هذه الحالة، هل هناك خطب ما؟ هل هناك شيء يضايقك؟"
فأجابني بأسلوب هازئ مستفز أحاول التعود عليه والتأقلم معه:" لماذا ترسمين ولم تبيعي لوحاتك أبدا؟ أنا لا أرسم للمال فقط كما تعتقدين، أرسم لأهْرب من الواقع كأي فنان. "
اندهشت لإجابته الفظة ومن الطريقة التي خاطبني بها وقلت:" أفهم أنك تتهرب مني، هل أزعجتك بشيء ؟ هل أنت غاضب من تصرفاتي ؟ هل مللت مني ؟ ربما أزعجتك عندما اقترحت إعادة طلاء المنزل أنا آسفة، كان مجرد اقتراح فالمنزل ملكك والقرار النهائي يعود لك، ظننت أن التغيير يرمز للبدايات الجديدة، أردتك أن تبدأ حياة جديدة معي وتتحرر من كل شيء يربطك بالماضي، أرجوك لا تتجاهلني بهذه الطريقة. "
أجابني بينما كان مشغولا بالرسم ولم يبعد نظِريه عن لوحته الجديدة العذراء:" على مهلك لما كل هذه التكهنات، تعلمين أني أحبك، لما كل هذه الشكوك لم أقصد أي شيء من هذا القبيل ."

طمأنني كلامه ولكن طريقة حديثه أشعرتني بالحزن:" أخاف أن تمل مني وترحل كغيرك، لن أتحمل خسارة أخرى في حياتي ."
فقال وهو بصدد تحديد ملامح لوحة الموناليزا على لوحته القماشية:" عزيزتي أنت زوجتي، وحبيبتي وكل حياتي، لن أتخلى عنك، ستكونين بجانبي، ستذهبين معي لكل المعارض والحوارات التلفزية عندها سيرانا كل العالم معا لا أستطيع العيش من دونك... جميلتي الغيورة."
وواصل الرسم دون أن ينظر إلي أو يهتم بمشاعري.
انقضت عشرة أيام كاملة لم يفارق فيها دانيال عشيقته الجديدة الموناليزا التي انتهى من رسمها للتو، انتهى من خلق عشيقة جديدة ليغيظني بها، بالطبع فهي جميلة ومشْهورة ومحبوبة عكسي.
اعتكف أمامها ليلا نهارا يعبدها ويداعب أحاسيسها بريشته وألوانه الزيتية، ينفث فيها من روحه، يضع فيها موهبة أكثر من ثلاثة عقود قضاها في الرسمَ الابداع.
كانت لوحة الموناليزا أحّبَّ قطعة فنية لقلب دانيال، كانت بمثابة المعجزة الفنية التي غيرت مسار الفن إلى الأبد، أحبها لدقتها السابقة لعصرها وتقنياتها ثلاثية الأبعاد والمعادلات الرياضية التي وضفها دافنشي في لوحته الفنية التي لن يكررها التاريخ.
وكل النظريات والغموض الذي يحوم حولها. لوحة كانت نتاج دهاء فذ وذكاء حاد.
قضيت عديد الأمسيات أستمع إلى نظريات دانيال الفريدة من نوعها في شتى المواضيع خاصة موضوع الموناليزا، أو الجيوكاندا كما كان يحب أن يناديها.
فشخص كدانيال يؤمن بنظرية المؤامرة ويؤمن أيضا أن الأرض مسطحة والقارة الإفريقية هي أكبر قارة في الخريطة وأنهم رسموها أصغر من حجمها تقزيما واحتقارا للعالم الثالث، ينفي وجود مخلوقات فضائية ويؤمن بالقوى الروحانية الخارقة للطبيعة، لم يكتفى بهذه الفرضيات التي كنت أؤمن بنقيضها لذلك طالما كنا نتجادل لساعات لا ينجح فيها أي منا في إقناع الآخر لكن في النهاية كنت أخير الاستسلام وأتظاهر بالانحياز لصفه قصد تجنب ذلك الجدال الذي لن ينتهي إلا إذا استسلم شخص منا.
في ذلك اليوم دار بيننا نقاش موضوعه فيلم شيفرة دافنشي الذي رفضت مشاهدته معه لأني لم أشرع في قراءة روايته بعد، وقد تناول دانيال في تلك المحاضرة التي

فتحت لنا عديد النوافذ والنقاشات التي كانت مواضيعها لوحة الموناليزا، ليوناردو دافينشي، عصر النهضة ودور المسلمين آنذاك والحروب الصليبية التي سبقت كل هذا فلن تستطيع أن تقنع دانيال مهما حاولت أن عصر النهضة هو نتاج تمرد على العقائد المسيحية التي نشرتها الكنيسة من خلال تلك الحروب.

بل وعكس الجميع اعتبر دانيال أن عصر النهضة أسس على يد أهم العلامة المسلمين لأنهم كانوا أول من برع في كل ميادين العلم والطب والفلك لتنتشر أفكارهم في الغرب لتشهد أوروبا عصرا جديدا يُعرف بعصر النهضة.

وقد ظهر عديد الفنانين المبدعين في تلك الحقبة التي غيرت مجرى التاريخ مثل رافاييل، بوتيتشيلي، مايكل أنجيلو وعلى رأسهم الفنان العظيم ليوناردو دافنشي.

لكن دانيال لم يعتبر ليوناردو دافنشي من أفضل الرسامين، بل كان يصر على أنه مجرد مقلد يحاكي شتى اللوحات والنظريات.

فقد اعتبره حاكى نظريات عباس إبن فرناس في الطيران، وحاكى الخطط الاستراتيجية العسكرية العثمانية وطور من الأسلحة التي كانوا يستعملونها ليفيد بها جيش فلورنسا في مختلف حروبهم.

أما في الهندسة المعمارية، فلم يشهد له بأي نجاحات قائلا:" هناك العديد من المهندسين الذين لا يستطيع دافنشي مناعتهم."

رغم أني كنت مولعة أشد بالولع بدافنشي إلا أني لم أتمكن من أن أدافع عنه أمام دانيال، لأنه لا أمل لي أن أكسب النقاش.

وكان يصر على أنه لولا تلاميذه لما تمكن من إنهاء لوحة الموناليزا وكان يضيف موضحا:" في البداية رسمها ليوناردو موظفا شيفراته ومعادلاته بينما رسمها بألوان أفتح من ألوانها الحالية، كانت ملامحها أكثر أنوثة في البداية، كان لديها حاجبان وعينان جميلتان وشفتان ورديتان، أما بالنسبة للخلفية فقد كانت مغايرة للخلفية التي نراها الآن، وبسبب تقدمه في السن لم يتمكن ليوناردو من إنهاء تلك اللوحة، فقد ضعف بصره وخارت قواه، لذلك تطلب الأمر مساعدة تلاميذه الذين كان يعول عليهم لكي ينهي تلك اللوحة، ولهذا السبب يرجح الخبراء أن اللوحة لم يقم برسمها ليوناردو دافنشي وحده، فالتعديلات الطارئة على ملامحها التي تم تغييرها ثلاثة مرات على الأقل، والتقنيات المستعملة في الرسم والتدخلات التي في الخلفية تثبت

لنا صحة هذه النظرية، فالخلفية محيرة، وقطعها تشبه قطع الأحجية التي لا تتناسب مع بعضها، كل هذه الأشياء تجعلنا نستخلص أن الرسام لم يكن دافنشي وحده، نظرتها، ابتسامتها، ملابسها، وخاصة الخلفية... كل هذه الأشياء ينبع منها الغموض، أعلم أنها ليست أفضل أو أجمل لوحة في العالم، لكن الغموض الذي حولها يجعلها أجمل وأفضل لوحة في نظري... وحتى ليوناردو نفسه، ورغم كوني من عشاق الفن المعاصر، إلا أنه يبقى ومن دون أي منازع مثيرا للفصول والانتباه."

كنت استمع لهذه النظريات في دهشة وانبهار، أحببت تلك المحادثات الطويلة التي يكشف فيها دانيل عن وجهة نظره الشاملة للفن والعالم، نظريات وإن كنت أؤمن بعكسها، إلا أني استمتعت بالإصغاء إليها وكلي شغف وتشويق، رسخ في ذهني كل شيء قاله كأني تلميذ يتلقى دروسا في تاريخ الرسم من أمهر الأساتذة وقد شعرت بالفخر كلما قال:" أنت فنانة ويجب أن تعرفي كل هذه المعلومات."

أخذ دانيال يتأمل لوحة الموناليزا خاصته وقال:"عندما يتحد الفن والرياضيات، يحدث الإبداع وتولد هذه القطعة المعجزة، ستكون آخر لوحة أرسمها هذه الأيام، سآخذ راحة لبعض الأيام قبل أن أشرع في رسم شيء جديد."

وسررت فور سماعي هذا الخبر لأنه سيعود دانيال الذي عهدته وستعود حياتنا لسابق عهدها.

لنعد بالحديث عن بداياتي مع الرسم، كنت ككل الأطفال مولعة بالرسم والتلوين، كان الأمر عادي في البداية، إلا أن عائلتي قررت أن لدي موهبة استثنائية لكن في تلك السنوات لم أعمد على صقلها، أما في مرحلة الإعدادية حدث شيء استثنائي جعلني أكره الرسم، بكل بساطة لقد كرهته لأن أستاذة الرسم كانت مجنونة تصرخ إلى غاية انتهاء دوامها تضرب كل التلاميذ وتحول تلك الساعات الأسبوعية القليلة إلى جحيم.
في سن الخامسة عشرة وفور دخولي للثانوية عانيت من كل أنواع الرفض والتنمر اللذان سبق وأن ذكرتها في أول الكتاب ولا جدوى في استرجاعهم والحديث عن أسوأ ذكرياتي حياتي لكن علي أن أطلعكم أن تلك السنة الدراسية انتهت بعملية انتحار ولسوء حظي كانت عملية فاشلة، على كل حال هذه التفاهات ليست مهمة الآن بل الشيء الوحيد الجدير بالذكر هو ما حدث بعد الإنتحار، حيث مكثت أياما قليلة بالمستشفى وكما قيل لي " لقد ولدت من جديد" ومنحت فرصة ثانية، فرصة لأصقل موهبتي وحبي الأول والأخير والذي هو الرسم.
"حب الفن".
أول شيء قلته فور استيقاظي "أريد أن أرسم".
ومنذ تلك اللحظة بدأت مسيرتي الفنية حيث أول رسام وقعت في حبه كان ليوناردو دافنشي، أول لوحة عشقتها كانت الموناليزا.
وإذا بدلنيال ونسخة الموناليزا خاصته يحيران كل تلك الذكريات ويثيران كل تلك الجروح.
كفانا من استحضار الماضي الذي لا أطيقه، لنعد للوقت الحالي...
في تلك الظهيرة بعد تناولنا الغداء، أتذكر جيدا أني كنت مشغولة بغسل الأواني وترتيب المطبخ وكنت سعيدة أردد لحنا فرنسيًا كلاسيكي وأشرب الشاي، أما دانيال كان جالسا إلى الطاولة يراقب حركاتي دون أن يقول أي كلمة كالمعتاد.
إلى أن نطق أخيرا وبصوت متردد:" أريد أن أفصح لك عن أمر ما ... أمي ألحّت على زيارتي بعد غد فهي لم تزرني منذ وقت طويل ولا أستطيع منعها من القدوم لأني إشتقت إليها أيضا."

فرحت لما سمعته وقلت بينما كنت أجفف الأواني وأعيدها لمكانها:" يا لها من فرصة للتعرف على والدتك، كم كنت متشوقة لرؤيتها فحديثك عنها جعلني أتلهف لمقابلة هذه ال..."

فقاطعني بنبرة حادة :" لم أقصد هذا، أردت القول بأن أمي لا تعرف شيئا عن علاقتنا والآن ليس الوقت المناسب لاطلاعها، صدقيني ساخبرها في أقرب فرصة فالموضوع يتطلب جرأة كبيرة، تعرفين أني لم أواعِد أي فتاة في حياتي لذلك أشعر بالخجل للتحدث مع أمي في هذه الأمور."

توقفت عن تجفيف الأواني وجلست بجانبه وقلت وأنا في حيرة من أمري:" ظننت أنها تعلم كل شيء، ظننت أن الجميع يعلم كل شيء لذلك توقفوا عن زيارتك فجأة ومنحوك بعض الخصوصية في حياتك كيف أقنعتهم بأنك تستطيع أن تعيش دون مساعدتهم، كيف لك أن ..."

قاطعني ثانية بنبرة أشد حدة:" ما قلته لعائلتي ليس موضوعنا وصدقيني من المستحسن أن لا تعرفي ماذا قلت لهم حتى توقفوا عن زيارتي، أصغي إلي ولا تقاطعيني بتعليقاتكِ على كل كلمة أقولها, أريدك أن تذهبي لمنزلك لمدة أسبوع , أسبوع فقط وستعود أمي إلى منزلها بعدها يمكنك القدوم."

لم أتصور بأنه سيطلب مني شيئا كهذا ... شعرت بشيء من الخزي تجاه ما قاله، لأني ظننت أن علاقتنا جديَّة كما أنه وعدني مسبقا بأنه سيقدمني لعائلته في أقرب فرصة، كما وعدته أنا بتقديمه لعائلتي متى يشاء.

كنت مستعدة لتحدي عائلتي وتحدي كل العالم من أجله، أنا التي كنت متأهبة لكل العراقيل التي ستواجهها علاقتنا، فبالرغم من كون عائلتي متفتحة فكريا ومتقبلة لمختلف العلاقات الجنسية بأنواعها، غير أنهم لن يقبلوا علاقة من هذا النوع، كيف لابنتهم الوحيدة المدللة صلبة الرأس والمراس أن تفني حياتها في سبيل شخص مثل دانيال تنفذ أقسى الأحكام ضد نفسها، أن تحكم على نفسها بالموت البطيء.

أقسمت على أن أتحدى العالم في سبيل حبي لدانيال.

إذا به يحتقرني ويرفض تقديمي لأمه.

فهمت تهربه من الخروج معي، فهمت انعزاله وادعاءه بالانطوائية فهمت كل تصرفاته المشكوك فيها.

شعرت بالحزن والغضب في آن واحد، الصدمة أعجزتني عن الكلام، لم يكن دانيال الذي أعرفه، مئات الأفكار تدور في ذهني وعدت ذلك الغريب غير المرغوب فيه منذ بداية علاقتنا.

لم أستطع أن أخرج أي كلمة من فمي كأني فقدت صوتي وأحلامي كأن دوامة من الأسئلة ابتلعتني، إسودّت أحلامي الوردية وتحول كل الذي عشته للوحةٍ سريالية لا تشبه الواقع في شيء. عقلي مازال يحاول استيعاب ما سمعته للتو وتجرأت وقلت:" لكني لست..."

نعم لقد قاطعني ثانية وبكل ثقة في النفس أصر على تحدي الآلهة:" من دون لكن إنها المرة الأولى التي أطلب منك شيئا، مرة في حياتك انسي ساديتك وسلطتك واسمعيني، عزيزتي إنه أسبوع فقط وبعدها ستعودين، تعرفين أني أحبك وأعدك بأني سأطلع أمي بموضوعنا فور قدومها، سنجعل الأمور رسمية ونتزوج، إن كنت حقا تحبينِني افعلي ذلك من أجلي."

هكذا جرى اتفاقنا، كنت في موقف عجزت فيه عن النقاش ولكني كنت سعيدة لأن دانيال وعدني بأنه سيخبر أمه ويجعل الأمور رسمية ونتزوج عما قريب، سعادتي كانت لا توصف، قريبا سيقترن إسمي بإسم دانيال.

عدت إلى المنزل مسرورةً غارقة في الأحلام، عدت لغرفتي التي لم يطرأ عليها أي تغيير واستقبلتني عائلتي بحفاوة كأني شخص عائد من الغربة.

شعرت بالارتياح والحنين لحياتي السابقة، على الأقل مازال مرغوبا في تواجدي بين هذه الفوضى.

أخذت أُقلِّب أرجاء المنزل وأجوب الغرف، رفوف الكتب المهجورة ورسوماتي التي غطاها خيوط العنكبوت.

خزانتي التي لم يبقى فيها سوى القليل من الملابس .

كل ركن من أركان المنزل افتقدني، وكل المدينة فرحت بعودتي حتى من السماء توقفت عن البكاء.

البرد هنا لم يكن قاسيا، لا أعلم إن كان الطقس هنا أدفء أم هو الإحساس بالدفء العائلي.

فور قدومي استقبلتْ معدتي ما لذّ وطاب من الأطباق الشهية التي تعدها أمي، قضيت اليومين الأولين في الأكل، كم اشتقت لذلك الطعام الزكي.
كنت أهدر وقتي كعادتي في الأكل ومشاهدة التلفاز، لم أتمكن من أخذ قسط كاف من النوم بسبب التوتر الذي منعني أيضا من الرسم والمطالعة.
كل ما كنت أفعله هو التفكير بدانيال.
كان الوقت يقارب الساعة الخامسة والنصف مساءا كنت جالسة على الأريكة أحتسي شراب الشوكولاتة الساخن وأشاهد الأخبار كعادتي وفجأة رأيت ما لم أتوقعه.
في البداية كانت الأخبار نمطية مملة مليئة بالحروب والفوضى وهمجية الإنسان البدائي التي اعتدتها في كل القنوات إلى أن جاءت فقرة الأخبار الثقافية.
أخبار أصابتني بالجنون فور رؤيتها كان هناك معرض للفن التشكيلي يقام في أفخم الفنادق في المدن الساحلية ولكن ما صدمني أن المعرض كان لدانيال الذي طوقه الصحفيون بعديد من الأسئلة عن مصدر إلهامه وسر نجاحه ومشاريعه المستقبلية.
لم أصدق ما كنت أراه وأسمعه.
لقد كذب علي في كل شيء، لقد أعد لهذا المعرض في كنف السرية وأنا كنت كالغبية أغسل الأواني وأساعده على قضاء حاجاته .
خطف الأضواء بأناقته المعهودة وتألقه الذي خطف قلوب كل الحاضرين .
كل اللوحات التي قضى أسابيعًا يرسمها ليلا نهارا "قصد الهروب من الواقع " كما قال علقت على جدران قاعة العرض واصطف الناس في انبهار أمام لوحة الموناليزا التي كانت حديث الساعة ومحل أنظار الجميع .
أما دانيال فقد كان في قمة سعادته يتحدث بكل فخر عن إنجازاته.
غزتني نوبة الغضب فجأة ولم يكن بحوزتي أي مهدئات .
أردت أن أضرب التلفاز وأحطمه، تمنيت أن يكون دانيال أمامي وأضربه أو اصفعه، أن ألكمه وخنقه إلى أن أشفي غليلي وأرتاح...
أخذت أصرخ وأصرخ بأعلى صوتي ولحسن حظي كنت وحدي بالمنزل آنذاك.
أصرخ إلى أن تهاطلت دموعي وبكيت ...
بكيت بأعلى صوتي وصرخت من جوارحي وحطمت كوب الشوكولاتة الساخن وضربت الطاولة بكل ما أوتيت من قوة.

ثم انهرت على الأرض أبكي بينما تعالت قهقهات دانيال والحاضرين المحيطين به وهم يتزايدون على لوحاته بأعلى الأثمان. لوحاته تباع في مزاد في أفخم النزل في البلاد وأنا هنا كالوضيعة أحتسي كوب الشوكولاطة وآكل كالخنزير، على غير علم أو دراية بأن حبيبي في مكان ما من الكرة الأرضية يخونني ويطعنني بخنجر مسموم ويتركني أترنح وأسبح في بركة دمائي.

كان ذلك الإحساس أسوء إحساس عشته في حياتي كل ما أردته من هذا العالم هو أن أسانده وأقف خلفه في أهم لحظات حياته.

لم أفهم لماذا فعل ذلك، ما الذنب الذي اقترفته في حقه ؟

هل قصّرت في خدمته ؟

أَلم أمنحهُ الحب الكافي ؟

ربما لست مثالية بنظره ؟

ما الذي يجعله ينفرني بهذه الطريقة الهوجاء؟

شعرت بالإحباط ورغبة شديدة في الموت فما الفائدة من حياتي إن كنت لا أشرفه أمام عائلته وأمام المجتمع والأضواء، لقد برع في التمثيل أمامي وخدعني بوجهه البريء وصوته الهادئ، أمه لم تزره، ولن يطلعها عن موضوعنا لن نتزوج مثلما وعدني.

بكيت على الوضع الذي وضعت نفسي فيه، بعد أن وعدني بأنه لن يحطم قلبي مجددا فإذا به يقتلعه بعروقه ويخرجه من قفصه الصدري ويدهسه بابتسامته الساخرة التي لا تفارقه.

أيقنت أن قراراتي خاطئة وكل الناس الذين نصحوني منذ البداية كانوا على حق.

أخطأت بحق نفسي عندما ظننت أن دانيال هو الرجل الأنسب من بين كل رجال الكون.

أخطأت لأني منحته مئات الفرص التي لم يستحقها منذ البداية.

أخطأت لأني لم أعرف قيمة نفسي.

أغلقت التلفاز ونظفت الأرضية من الزجاج المبعثر والشوكولاتة المنسكبة وأعدت الطاولة لمكانها بعدها توجهت لغرفتي وأغلقت الباب.

رميتُ بجثتي الميتة على السرير ودفنت رأسي على الوسادة وأخذت أصرخ وأبكي، صرخات تعبر عن الندم إلى أن بح صوتي.
لم أتمكن من التوقف عن البكاء، لقد حدث لي انهيار عصبي لم أتمكن من السيطرة عليه.
عاد افراد عائلتي وتظاهرت بالنوم.
بكيت لساعات.
بكيت إلى أن أصابني الدوار والصداع.
وفقدت وعيي و استسلمت لساعات قليلة من النوم تخللتها كوابيس تجسد فيها دانيال كأنه الشيطان الرجيم.
أفقت من كوابيس الأحلام لأجد نفسي في كوابيس اليقظة التي لا مفر منها.
كوابيس أنا التي تسببت فيها.
أنا التي اقتحمت حياته عنوة.
أنا التي خططت ومهدت لنهايتي.
أنا التي دمرت نفسي وجعلته يسخر مني.
كيف لي أن ألومه وأنا الوحيدة في قفص الإتهام.
كيف للقاضي أن يراعي هذا الموقف.
كيف للمجتمع أن يغفر لي أخطائي.
والأهم من ذلك...
كيف لي أنا أن أغفر لنفسي كل الأخطاء والهفوات التي جعلت دانيال ينظر إلي بعين الشامت.
لم أرحم نفسي فكيف لدانيال أن يرحمني وكيف للمجتمع أن يرحمني.
كيف للآلهة أن ترأف بعبدها الخطّاء.
فذنوبي لا تغتفر.
مهما قدمت من قرابين... ذنوبي لن تغتفر.

أمضيت اليوم الثالث في غرفتي التي كانت أشبه بتابوت حكمت على نفسي أن أُدفن فيه حية.
وليس من الغريب أن لا أتلقى أي رسالة من دانيال فهو مشغول بما هو أهم مني.
ذلك الحبيب الذي ظننت أني أعرفه قبل أن تبدأ حكايتنا.
أحببته بحب لا تصفه كلمة الحب.
ضحيت بنفسي من أجل شبقي وحبي لدانيال الذي كان مشغولا يحصد أموالا طائلة من المزاد الذي تخاطف فيه الأثرياء والمشاهير لوحاته مثلما هو خطف قلبي بكل تلهف وبدون رحمة.
ظننت أني أنا الحاكمة في مملكة قلبه.
ظننت أني المسيطرة لكن حساباتي كلها كانت خاطئة.
ليس لدي مكان في قلب دانيال ولا في حياته. فهمت أنه لن يحبني مهما فعلت ولن نتزوج.
سأبقى تلك العشيقة الجميلة التي يخفيها في غرفته العجيبة الموصدة.
يتمتع بها ويخفيها عن أنظار الحشود المتطفلين الذين سيقتلونه بنظرات التعجب والدهشة. كيف لنا أن نكون معا ونحن لا نتشابه في أي شيء .
حبنا للرسم ليس كافيا لربطنا.
كل الأشهر التي قضيتها في منزله كانت وهما.
فهمت لماذا يسمي الفلاسفة السعادة وهما.
"السعادة" الترياق الذي يبحث عنه كل الناس منذ الأزل.
ذلك المخدر الذي تُنسينا جرعة منه آلام السنين.
ما أجمل أن نكون سعداء وما أسوأ أن ينتهي مفعول المخدر.
شُلَّت حركتي الفكرية، وتمنيت لو يعود بي الزمن للوراء لَمَا خططت ... لما بحثت عن دانيال... لما حدثته ... ولما قابلته .
تمنيت لو امتلكت آلة زمنية تعيدني لحياتي العادية قبل أن أضع عيناي على مصطلح الأكروتوموفيليا أو قبل أن أفقد السيطرة على شهواتي الجنسية وأرجع ساديتي التي جعلت كل الرجال بهيبتهم يخافون الصورة اللانمطية التي رسمتها لنفسي.
اليوم وفي هذه اللحظة ودعت حياتي التي رسمتها مع دانيال.

وجدت نفسي في الخلاء في السراب والعدم.
فهمت نقمتي عن نفسي ونقمتي عن المجتمع.
مجتمع قابلت فيه العديد من دانيال لكن في قوالب مختلفة.
فهمت أن العزلة شيء محتوم لا مفر منه.
فهمت أن ما كتب في لوح أقداري هو الوحدة والكآبة والنحس وسوء الحظ.
لأننا نولد وحيدين ونعيش وحيدين ونموت و نتعفن وحدنا تحت ستة أقدام من التراب.
الحياة ليست للجميع والسعادة ليست مكسبا مشروطا تستطيع أن تمنحه لك الدولة أو المال أو شخص مجهول تُعلق آمالك السامية عليه.
الحياة الهنيئة أصبحت أشبه بالخيال أو الحلم في زمن لا يحق للجميع أن يحلموا فيه و يضعوا أهدافا و يبحثوا عن ما يسميه المجتمع "نصفهم الثاني".
ذلك الرجل الذي مهما كثُرت عيوبه فهو سيكمل المرأة ويسترها ويبعد عنها كلام الآخرين الطاعنين في شرفها.
ما أجمل مفارقات الحياة وكم هي مضحكة.
هكذا هي الحياة إما أن تَظلم فيها الآخرين أو تَظلم نفسك بقرارات جبرية تعسفية تحطمك وتحفر خندقا يفصلك عن مستقبلك الزاهر، فإما أن تعبره بصعوبة أو تدفن فيه مثل المقابر الجماعية للحرب العالمية.
فالواقع هو مقبرة لأحلامنا التي تبنيها ثم نشاهده تموت وتدفن في تلك المقابر الجماعية مع بقية الأحلام.
غابت الألوان في حياتي. عم السواد وكثرت الغربان. ودعت الإبتسامة والفرحة التي أدخلها دانيال وودعت حبي للأكروتوموفيليا.
تجربة جعلتني أدرك أني أهدرت حياتي أبحث عن معنى لحياتي وظننت أن هذا المعنى يتجسد في الملذات وتعذيب الآخرين أو في شخص فاقد للحيلة يتخذ مني آلهته الموقرة.
عرفت في تلك اللحظة أني لن أجد السعادة التي أبحث عنها في الآخرين.
فالبشر يرحلون في نهاية الأمر. يعترفون لك بحبهم ثم يرحلون ليتركوك تتعذب.

فالسعادة لا تكمن في القوة والتجبر لقد كنت مخطئة في ذلك ومخطئة عندما ظننت أن السعادة تكمن في إستعباد شخص قليل الحيلة مثل دانيال.
لن أجد السعادة طالما فكرت بهذه الطريقة لأن السعادة تنبع من الذات والعقل.
لا في المال ولا في الشهوات والبذخ والملذّات.
السعادة أسلوب حياة كامل لا يوجد فيه مكان لدانيال.
فلسفة.
مذهب.
ديانة.
طعنة جعلتني أستفيق وأغلق عيني وأفتح عيني الثالثة عين العقل والحكمة.
أمضيت كامل حياتي وأضعت سنواتها أظلم نفسي.
أمضيت أشهرا أعيش قصة حب من طرف واحد.
ظلمت دانيال معي بتسرعي وسيطرتي، فقد اقتحمت حياته لأخلصه من الرتابةِ التي كان يعيش فيها. دققت في حياتي معه فهمت أنه كان أسعد بكثير قبل أن يعرفني.
فهمت أنه كان سعيدا بوحدته وعزلته التي تعود عليها، صنع سعادته بحبه للفن وطموحه للعالمية.
ذلك النوع من السعادة الذي لم يقتصر على وجود امرأة في حياته تفسد عليه هدوءه وتقطع لحظات تأمله بموسيقاها الصاخبة وصراخها المستمر وتذمرها من ألوان الجدران والأثاث البالي الذي لم يرق لها.
دانيال كان عكسي تماما لم يبحث عن رفيقة تنير دربه، لم يرد امرأة تملأ عالمه وتحوله لفوضى. فالزواج لم يكن من أولوياته ولا من مشمولاته، لأنه ببساطة يعيش في سعادة غابطة بعيدا عن كل هذه الأشياء، لأنه يعرف قيمة نفسه ولا يحتاج أن يراها في مرآة شخص آخر.
ليتني أعرف قيمة نفسي مثله.
ليتني أتمكن من حب نفسي مثله.
فأن تكون منفورا ومرفوضا من قبَل كل المجتمع المحيط بك يجعلك تفكر سلبيا، يجعلك تتبنى فكرة أنك شخص مكروه ومنبوذ اجتماعيا، غير مؤهل للحب.
شخص لا يضحي من أجله أحد ولا يقدسه أحد.

أفكار غرسها المجتمع في عقلي وسقتها التجارب القاسية لتنتج ثمار الحقد والكراهية على كل كائن حي.
كنت أظن أني لست مؤهلة ليحبني رجل ما وصدقت أن الرجل يراني كدمية جنسية.
أفكار تراكمت في داخلي لتزيدَ من نقمتي على المجتمع وخاصة على الرجال الذين لا يرون أني أنثى تستحق العبادة والتضحية. جعلوني أدمن تعذيبهم بأبشع الطرق.
لكن أيها القارئ المتفاجئ باعترافاتي، إن أمعنت التدقيق في الأسطر القليلة السابقة ستفهمّ أني لم أكن أعذب الرجال بل كنت أتلذذ بتعذيب نفسي، لأني في قرارة نفسي كنت على دراية بأني أقترف من الذنوب أبشعها ومن الأخطاء أفدحها لكني لم أبالي.
لم أبالي بالأحكام التي سيرميها المجتمع كالحجارة على جسدي العاري، ولم أبالي برفض المجتمع لعلاقتي اللامتجانسة مع دانيال، ولم أبالي برفض عائلتي للموضوع بالأساس .تجاهلت كل الأصوات الساخرة والنظرات الهازئة. لم أكترث لتساؤلاتهم "كيف لفتاة كاملة مثقفة وأنيقة مثلك أن تحب شخصا غير قادر على القيام بشيء".
تجهالت كل شيء.
أصغيت لصوت رأيي الخاطئ المتعجرف الذي رماني أمام عتبات المجهول وانتهى بي المطاف مكسورة أبكي في غرفة مظلمة بعيدة عن ذاك الزائر الذي أزهرَ بساتين حياتي ثم ابادها فجأة.
عزيزي دانيال تقبل إعتذاراتي، انت لست المخطئ... كم كانت مغامرتنا إستثنائية غلبت عليها الأحزان التي لم أعد أتحملها.
سأعود لغرفتي المظلمة وأقداحي التي تواسيني في محنتي وتضمد لي جراحي العميقة.
لذلك قررت ولن أتراجع عن قراري سأذهب لبيت دانيال وأُحضِرَ كل أغراضي قبل أن يعود من معرضه سأرحل في صمت دون أن أناقشه. لن أتشاجر معه لأنه لا يوجد داع لذلك، لا يحق لي لومه فقد طفح الكيل وفاض الكأس، فكل شيء بات واضحا.
هذه المرة كان من الصعب إخفاء اكتئابي، فقط انقطعت عن الأكل المفرط فجأة وحبست نفسي في غرفتي أراجع ذلك القرار الذي لن أعدل عنه.

فور خروجي من غرفتي تهاطلت علي الأسئلة: هل أنت مريضة ؟ ماذا ألمَّ بك فجأة... إلى آخره من الأسئلة التي لم أجد لها أي كذبة أو لم أرغب في الإجابة عنها.
أفقت في الصباح الموالي بعد ساعات قليلة من النوم والصداع لم يفارقني وأنا لم أقدر على مفارقة سريري , علي النهوض والمقاومة فبانتظاري يوم عصيب.
استجمعت قواي المنهارة التي سلبها مني دانيال وأقسمت على إتمام الأمر الذي قضيت الليل أفكر فيه.
حتى الطقس كان كئيبا مثلي.
خرجت من المنزل متجهة إلى المحطة كالعادة بعد أن قطعت نصف الطريق، كنت أسير في ممر خال تماما من المارة رفعت رأسي نحو السماء التي كانت رمادية غابت منها الشمس وهربت منها الغيوم.
لون حوّل قلبي إلى حجر أو إلى إسمنت وحوّل كل ما حولي إلى عالم مميت هجرته الأحلام والألوان و لم تبقى سوى ذكرى الأرواح العالقة بين الماضي و الحاضر والخيال والحقيقة والقبح والجمال.
غابت العصافير... حتى الخفافيش والغربان غابت هي أيضا.
تحول عالمي إلى رماد .
تساقطت دمعة من عيني بينما كنت أتأمل السماء التي إلى أن تساقطت قطرات صغيرة من حبات المطر على وجهي.
يجب أن أسرع قبل أن يزداد الطقس سوءا .
عدت لأرض الواقع وواصلت السير كجثة تسير بين جموع من الناس يمارسون حياتهم اليومية بشكل طبيعي دون أن ينتبهوا إلى مصيبتي.
أو ربما لم ينتبهوا لوجودي.
مثلي أنا التي لم أنتبه إلى الطريق الطويلة التي طالما ما تذمرت منها.
لم أنتبه للوقت الذي قضيته في الحافلة، ولم أستمع للموسيقى كعادتي.
ولم أمر على الكافتيريا ولم أحتسي القهوة ولم آكل الكعك.
لا أتذكر كم من سيارة أجرة استوقفتها إلى أن أقلتني واحدة منها المهم أني وصلت في النهاية. فتحت باب المنزل الذي كان خاليا من كل الأشياء التي أحببتها، إختفت

لوحات دانيال التي كانت معلقة على الجدران ولم تبقى سوى لوحاتي القبيحَة البشعة التي لن تصلح للعرض ولا للبيع معلقة وحدها بعد أن هجرتْهَا لوحات دانيال.
وضعت تلك اللوحات القليلة في الحقيبة وكذلك كل ملابسي وأخذت كل ما يخصني حتى جماجمي وكتبي، أخذت كل ما استطعت أخذه ثم توجهت نحو الغرفة العجيبة ألقي عليها نظرة أخيرة وأودعها، فتحت النافذة فعصفت علي رياح قوية فأغلقت النافذة وأخذت أتأمل تلك الطبيعة من وراء النافذة لآخر مرة. سالت دموعي، لكني كنت أقوى من أعدل عن قراري ثم إستدرت إلى الباب وأغلقته، تركتُ المفاتيح على الطاولة الصغيرة في غرفة الجلوس وحملت حقائبي التي سدت البهو مترجية مني أن لا أرحل لكني واصلت السير ثم أغلقت الباب مثلما أغلقت قلبي.
هكذا خَتمتُ هذا الفصل من حياتي.
فصلا ليتني لم أعشه.
هكذا جررت أذيال الخيبة معي عائدة إلى دياري. عدت حيث يرحب بي.
ومن دون أن أتفوه بأي كلمة أغلقت باب غرفتي وتجاهلت الأسئلة التي لن أكتسب الجرأة الكافية لأجيب عنها مهما حييت.
كانت أمي تطرق باب غرفتي وتصرخ علي، أصرت على معرفة سبب اكتئابي السريري الحاد لكني واصلت تجاهل صراخها وطرقها المتواصل.
تجاهلت إلى أن فقدت السيطرة وصرخت:" أريد أن أبقى بمفردي ألا تفهمون ... أنا أكره الجميع اتركوني وشأني."
لم تكن لدي طاقة استيعاب كافية لتحمل الحوارات والجدالات واللوم والقصص المزيفة التي سأختلقها لأرضي فضول عائلتي.
لم أخرج من غرفتي إلا لاقتات بعض الطعام ثم أعود إلى وكري.
وانقضى يوم آخر دون تلقي أي خبر من دانيال.
لم أتعجب من الأمر فهو مشغول بجمع أموال طائلة هذه الأيام.
أيام كان عذاب الجحيم أهون من عذابها.
عدت للتصوف في محراب برجي العاجي الذي لم يكن النزول منه فكرة سديدة وعدت لقضاء وقتي في التأمل وأحلام اليقظة، حتى ينابيع دموعي جفت جراء رثاء روحي المتمردة.

نعم أنا ذلك المتمرد الثوري الذي تم نفيه إلى العدم وطرده من جنات العشق التي انتفض من أجلها.
دياري أصبحت بمثابة منفى لرحي التي تاقت للحرية.
سأبقى بين أحزاني ومقابر ذكرياتي مع دانيال.
لن أجد حائطا أسند ثقل ظهري عليه.
لن أجد سببا لوجودي بعد الآن.
انصهرت شموعي واحترقت بلهيبها وانطفأ معها وجداني. غابت الشمس من حياتي وغاب معها دانيال .
انتهى الأسبوع ولم أتلقى أي رسالة من دانيال، من المفترض أن يكون قد عاد لمنزله وتفطن لرحيلي الصامت ورحيل فوضتي التي لا تطاق.
أعلم أنه صار أسعد الآن فهذا ما أراده منذ البداية وهذا ما رفضته أنا منذ البداية.
أنا على اقتناع بأنه لن يحزن لغيابي، وأعلم أنه لن يذرف دمعة واحدة لن تتوقف حياته ولن تحزن لوحاته، ستبقى الشمس في مكانها وسيظهر القمر كئيبا كل ليلة وستواسيه النجوم ولن يأسف أحد لرحيلي.
هكذا تنتهي قصص الحب التي ترسّخ في تاريخ البشرية "بالحزن" ذلك البطل الرئيسي في كل الروايات والمسرحيات التي ستخلدها هذه الأسطر في الذاكرة لأنها كشفت العالم على حقيقته وأظهرت عار المجتمع ونفاقه، لذلك لن يأسف العالم على رحيلي ورحيل من قبلي ومن سيأتي بعدي.
جلست في غرفة الجلوس في ركن بجانب المكتبة وقررت أن أرسم.
لعل الرسم يكون سليتي وينسيني احزاني ووحدتي.
وضعت لوحتي البيضاء على المحمل وقررت أن أرسم شيئا ينشيني ويزيح همومي.
عجزت عن الرسم في البداية ولم أتمكن من لمس الأقلام والألوان.
فشبح دانيال مازال ساكنا في أدراج عقلي، لم يفارق مخيلتي استحوذ على كل ارادتي ورغبتي في الحياة والقيام بأي شيء يريده قلبي.
كم أفتقد الساعات التي أشاهده يرسم فيها!
وبدون أي انتباه وجدت نفسي أرسم لوحة الموناليزا آخر اللوحات التي شاهدت دانيال يرسمها كانت ذكرى جميلة.

رغم أني كنت متأكدة أن لوحتي لن تضاهي جمال ودقة لوحة دانيال لكني لم أكترث، أردت أن أرسم فقط لأتذكره ولأحس بوجوده.
لم أرغب برسم لوحة أفضل من لوحة دانيال أو في الواقع لا أستطيع.
كل ما أردت فعله هو أن أرسم شيئا أتذكر به علاقتنا، شيئا رمزيا يعبر عن حبي وامتناني لذكريات لن تعود.
قضيت كل الليالي أرسم وفي النهار هربت من الواقع المرير لاجئة للنوم لساعات.
ومر أسبوع كامل من الرسم إلى أن انتهت لوحة الموناليزا التي سهرت كامل الليل أرسمها، لكن في النهاية لم تعجبني لا أعلم لماذا لم أكن راضية على النتيجة الأخيرة، لم أرتح لملامحها وتعجبني ألوانها، كانت أشوه نسخة للموناليزا رأيتها في حياتي.
أمضيت بقية الليالي أمعن التدقيق بتلك اللوحة أحاول أن أفهم إن كان هناك عيب ما في وجهها أو في ألوانها، مرت ساعات وأنا أقارن لوحتي بلوحة دانيال ولم يكن هناك مجال للمقارنة. كيف تجرأت على أن أقارن لوحة رخيصة كلوحتي بلوحة رسام محترف بيعت بملايين الدولارات في المزاد. ياله من تصرف غبي.
علقت لوحتي البالية قبالة سريري لأراها كل يوم وأتذكر فشلي الفني .
وفشلي العاطفي على حد السواء.
لتذكرني بدانيال كل يوم وقصة حبنا الفاشلة.
إلى أن توصلت إلى نظرية في يوم من الأيام، فهمت سر لوحة دانيال وفهمت سر لوحتي فلوحة الموناليزا خاصتي كانت حزينة فكلنا نعلم أن لهذه اللوحة ميزة كبيرة. فيستطيع الناظر إليها أن يراها سعيدة ويستطيع أيضا أن يراها حزينة والسر كله يكمن في ملامح وجهها وابتسامتها الغامضة ونظراتها التي تتبعك أينما ذهبت.
لكن لوحتي لم تبتسم لأني كنت حزينة عندما رسمتها فانجر عن ذلك رسم لوحة تعكس الصراع الذي كنت أعيشه في داخلي، لن تبتسم لوحتي كلوحة دانيال ولن يبتسم لي القدر. واصلت تحليل لوحة الموناليزا التي قضيت ساعات في غرفتي أتأملها واستنتجت أن الألوان التي استعملتها كانت أغمق من ألوان اللوحة الأصلية ولوحة دانيال لن أتمكن من مزج الألوان مثل دانيال، لأني لست خبيرة مثله.

لوحتي تلك التي اكتسحها الأصفر الباهت المغبر حتى السماء كانت مصفرة والوجه كان مصفرا كأنها كانت على أبواب الاحتضار والانتقال لعالم الأموات، حتى الخلفية فيها كانت كئيبة كالحقل الذي كنت أشاهده من النافذة في خريف يوم بارد.
أما ما تبقى من اللوحة فقد غمره السواد بحيث اختفت ظلال وجهها بين الظلمات وملابسها كانت سوداء قاتمة كالسواد الذي يغمر حياتي، لم أرسم نسخة من لوحة الموناليزا الأصلية ولا نسخة من الموناليزا التي رسمها دانيال بل رسمت الحزن الذي كان بداخلي. رسمت عذاباتي واحتضاراتي التي لم يهتم لأمرها دانيال، رسمت الموت الذي اجتاح أفكاري َولونتها بالألوان المنعدمة التي كنت أرى بها العالم.
ألوان جعلت لوحة الموناليزا تحزن لأمري وتحس بعمق جراحي.
كآبتي سادت كل ما كان حولي وانتقلت للوحاتي التي أحست بالبؤس المهيمن على مقبرة قلبي.
السعادة لن تجد طريقها إلي مهما رسمت ومهما استمعت للموسيقى الحزينة كل ليلة مهما شربت من خمور، ومهما كتبت من خواطر وقرأت من كتب لأن أفكاري مازالت حبيسة دانيال وعلي احتمال كل هذا.
بضعة أيام وسأتعود على غيابه لكن ليس من السهل محو كل هذه الأعوام الوهمية من الذاكرة في عشية وضحاها.
كل شيء أحاول فعله يذكرني بدانيال لم يكن أمامي أي حل غير العزوف عن الرسم لمدة من الزمن وعوضا عن ذلك قررت أن أشغل نفسي بالمطالعة التي كانت خير رفيق وأنيس لي، وانتقلت لعوالم أخرى في كتب تروي قصصا مختلفة كان معظمها كئيبا مثل قصتي فأحسست بأني لست المخلوق الوحيد المنسحق الذي أُحرقت أجنحته بنار الحب.
كما يحرق الكافر في جهنم.
كما تحرق الجثة في المحرقة ويبعثر غبارها في الجو ليطير مع الهباءات المتناثرة في الريح الذي يلامس بشرة دانيال الطفولية.

أتذكر أني أنهيت قراءة كتاب لوليتا[63] وبعدها كتاب الخيميائي[64] وبعدها مجموعة قصائد تي إس إليوت [65] .
بعدها توجهت لرفوف مكتبتي أبحث عن كتاب شيفرة دافنشي[66] لأقرأه.
فتشت مليا في الرفوف الأربعة التي رُصّت فوقها الكتب كالسردين في علبة ضيقة لكن لم يكن للكتاب أي أثر، فتشت في غرفتي و جميع حقائبي.
وكل الغرف الموجودة بالمنزل ولكني لم أجده.
ماذا لو كان في منزل دانيال.
إن الفرضية الوحيدة التي تفسر اختفاء هذا الكتاب من منزلي.
إن كان كذلك علي إحضاره بأي طريقة كانت حتى وإن كلفني الأمر العودة إلى هناك وإثارة الماضي الذي مازال يسكنني.
لكن لن يهمني ذلك، كل ما أريده هو كتابي.
قررت أن أذهب لاستعادته في أقرب فرصة غير أني كنت مترددة فالذهاب إلى هناك يعني أني سأقابل دانيال، أعلم أنه لن يُسرَّ بقدومي لأنه لم يتعب نفسه السؤال عني أو الاعتذار عن فعلته الشنيعة.
لا بأس سآخذ الكتاب ثم أطوي تلك الصفحة مجددا.
كان الطقس ممطرا وباردا لدرجة أني لم أتمكن من الخروج ليومين كاملين إلى أن هدأ الجو قليلا.
أخيرا لم تتهاطل الأمطار اليوم، لذلك عزمت على الذهاب لمنزل دانيال دون أن أعلمه بقدومي لكن فكرة أن لا يكون موجودا في المنزل جعلتني متوترة.
توتر جعل تلك الرحلة التي تدوم لساعات كأنها أعوام فرُأيته ستحطم قلبي لكن ليس بيدي حيلة.
وصلت إلى الحي الرمادي الكئيب الذي زاده الطقس بؤسا وكآبة.

---

[63] لوليتا : رواية للكاتب الأمريكي من أصل روسي فلاديمير بانوكوف.
[64] الخيميائي : كتاب للروائي البرازيلي باولو كويلو.
[65] تي إس إليوت : توماس ستيرنز اليوت كاتب مسرحي وروائي وشاعر أمريكي.
[66] شيفرة دافنشي : رواية تشويق وغموض للكاتب دان براون.

كأني أسير على الجمر، كأن قلبي يتمزق إلى أشلاء، كنت أسير في بهتة من أمري إلى أن قطعها ذلك العجوز الطيب صاحب الدكان الذي بادر بتحيتي بابتسامة اللطيفة حاولت أن أخفي توتري أمامه ومبادرته بنفس التحية والابتسامة كالمعتاد.
شققت ذلك الحي الذي لم تعد بطحاءه مغبرة بل صارت موحلة بسبب تهاطل الأمطار الكثيفة إلى أن وصلت لنهاية الحي ووجدت نفسي أمام منزل دانيال.
وقفت أمام الباب لأبكي على الأطلال.
تذكرته وتذكرت لقاءنا الأول والتضحيات التي واجهتها من أجل القدوم إلى هنا، وأول مرة رأيت فيها حبيبي المتمنع فكل خطوة خطوتها في هذا الحي لها ذكرياتها الخاصة والطقس الحار الذي تعاقبت حوله الفصول لتحوله لبرد وجمادٍ لا يحتمل.
طرقت الباب.
مرة وثانية وثالثة ورابعة...
طرقت الباب إلى أن تناهت لمسمعي خطى دانيال العرجاء، فتح لي الباب وبدت على وجهه علامات الدهشة والشحوب التي أبداها أول مرة رأيته فيها.
نفس الملامح الجامدة ونفس النظرات، كأن ملاك موت طرق بابه.
كأنه رأى ذلك الكائن الأسود الذي لم يرغب بتواجده في حياته.
وقفت أمامه دون قول أي شيء وقد أمعن النظر في الكارثة التي وقفت أمام بابه وهو لا يصدق عينيه.
نعم لقد كنت أنا بكل شحمي وقبعتي السوداء المستديرة وشعري الأسود القصير وثوبي الأسود ومعطفي الأسود الجلدي الطويل وقفازاتي السوداء الجلدية وحذائي الأسود... كل شيء كان أسود.
حتى الألوان التي زينت شعري اختفت.
حتى أحمر الشفاه تعمدت أن لا أضعه.
اكتفيت بالكحل الأسود فوق عيني. كأني ذاهبة لجنازة، ربما كان الأمر كذلك جنازة قلبي الذي دفنه دانيال منذ مدة طويلة.
أما هو فقد كان يلبس بنطلونا رماديا فضفاضا وقميصا صوفيا ملونا لا يتلائم مع ذلك البنطلون.
أذن لي بالدخول كأن شيئا لم يكن ولم يحدث.

كأنني لم أختفي لأسابيع وكأنه لم يشتق لي أبدا.
لم أصدم بتصرفه هذا لأن ذلك ما كنت أتوقعه، ربما كنت سأصدم إن تصرف عكس ذلك لكنه لم يخيب توقعاتي السوداوية.
عبرت البهو متجهة إلى غرفة الجلوس لكنه استوقفني قائلا:" رجاءا انتظري هنا قليلا "
تجمدت في مكاني ولم أفهم لماذا أمرني بذلك، ثم دخل هو غرفة الجلوس وحاولت اختلاس النظر.
عرفت أنه كان جالسا برفقة شخص آخر يشاهدان التلفاز.
رأيت الطريقة التي توجه بها نحوه وهمس في أذنه بكلمات لم أسمعها لكني فهمتها من خلال تصرفاته حيث قام بإغلاق التلفاز ومن ثمة هم بالخروج.
تلاقت نظراتي بنظرات ذلك الشخص الذي لم أره أبدا طيلة الفترة التي مكثتها مع دانيال، كانت كمعظم النظرات التي أتلقاها في الشارع وفي العمل وفي الدراسة وفي كل مكان ذهبت إليه، نظرات تقول "يا إلهي ما هذا المخلوق العجيب".
لكن ملامحي كانت باردة جامدة لم تهتم بنظراته، مر بجانبي دون أن يقول أي كلمة، تجاهلني وهم بالخروج.
فحاول دانيال تبرير الموقف:" هذا أخي الأصغر، لا تهتمي لأمره فهو يتجاهل الجميع."
دخلت غرفة الجلوس وأول شيء قاله دانيال كان:" لماذا كل هذه الملابس السوداء؟ لماذا هذه القبعة السوداء والقفازات الجلدية السوداء كأنك كنت في جنازة... تعرفين أني لا أحب الّأسود."
كل الناس تكره اللون الأسود يا عزيزي لست أنت الوحيد.
فالأسود يشعرهم بالخوف وعدم الأمان، يكرهون الأسود لأنه غامض ومخيف ويكرهون الناس ذو البشرة السوداء لأنهم مختلفون... كما أنهم يكرهون الليل ويخافون ظلامه.
حافظت على برودة أعصابي وقلت:" هل يزعجك ذلك؟"
فقال باختصار:" لا، على الإطلاق."
ثم تجاهلني.

لكني تكلمت هذه المرة:" هذه المرة حقا لم آتي من أجلك، لم أعد أهتم لأمرك ولأكاذيبك لأعذارك السخيفة التي دمرت حياتي... جئت من أجل استعادة كتابي."
قال في تعجب:" كتابك ؟ أي كتاب لا توجد كتب هنا... لم أرى أي كتاب هنا منذ أن أخذت أغراضك، تعلمين أني لا أقرأ الكتب فأنا مشغول بما فيه الكفاية."
فقلت محاولة أن أطيل بالي معه:" كتاب إسمه شيفرة دافنشي أتذكره؟ مكتوب باللغة بالإنجليزيّة، تذكر فقد حدثتك عنه..."
ثم أضفت:" مرسوم على غلافه لوحة الموناليزا... لوحتك المفضلة."
فقال:" آه الموناليزا تذكرته، لكنه ليس موجودا هنا لم أره في أي مكان، فقد أخذت كل أغراضك دون سابق إنذار."
حاولت أن أتجنب الحديث عن سبب رحيلي المفاجئ وتظاهرت بأني لم أسمع بأمر المعرض الذي أقامه وقلت:" سأبحث عن كتابي ثم أذهب، لا تخف فلن ابقى لوقت طويل."
لم أنتظر إجابته وبحثت على الرفوف الفارغة وتجولت بعينيّ في أرجاء الغرفة، كانت مرتبة كما تعودت عليها، لقد أعاد تعليق لوحاته التي لم يبعها في المعرض على جدران الغرفة.
كل شيء في حياته عاد كما كان.
توجهت للمطبخ ولم يكن كتابي على الطاولة هناك أين تعودت أن أقرأ لدانيال بينما نحتسي قهوة الصباح.
ثم ذهبت لغرفة نوم دانيال من الواضح أن المدفأة لم يشعلها أي أحد أو يجلس أمامها منذ رحيلي، وكتابي أيضا لم يكن في أي مكان لا على الطاولة بجانب السرير ولا فوق المدفأة. فتحت الخزانة وكانت كل الملابس مرتبة في مكانها الاعتيادي تماما مثلما كانت قبل أن تزاحم ملابسي السوداء ملابسه الملونة.
وكتابي لم يكن موجودا في أي مكان.
ربما ألقاه في سلة المهملات، فهذا وارد جدا من شخص مثل دانيال.
التفت إلى الباب ورأيت دانيال يشاهد حركاتي باستغراب فنظرت له نظرة مشبعة بخيبة الأمل وقلت:" إنه ليس في أي مكان، من فضلك أخبرني أين هو ؟ لا تتركني أبحث دون جدوى..."

فقال:" صدقيني لم أرى كتابك هذا يا عزيزتي."
استغربت عندما ناداني بعزيزتي، تلك الكلمة أشعرتني بشيء من الضعف والحنين لعلاقتنا وكل مشاكلها وسعادتها.
اذا مازال لدي مكان في قلب دانيال... محال، ذلك الخائن، لعله يتغزل بكل النساء وخاصة لحبيبته السابقة ثم يناديني ب"عزيزتي"، إن كنت عزيزته حقا لما فعل كل ذلك بي.
حاولت أن أغض سمعي عن كلمة عزيزتي جلست على حافة السرير وقلت:" دانيال... الكتب تعني لي الكثير، هي كل شيء، أحيانا الرسم لا ينجح في انقاذي من الواقع لكن الكتب تستطيع، هي الشيء الوحيد الذي يجعلني أحلم، لأني أبحر في بحر من الكلمات مليء بالمغامرات وتجارب العشق الفاشلة كقصتنا، أقرأ بين السطور وما خلف الاستعارات المشفرة... فقط لأهرب من الواقع وأنسى الألم الذي ما برح مفارقتي منذ الولادة."
لم يقترب دانيال ولم يجلس بقربي ليواسيني بسبب إحساسه بالندم والعار لكنه قال بصوت خافت لعله يخفف عني:" أمتأكدة من أنك بحثت في كل مكان... هل بحثت في الغرفة أين أضع الأثاث القديم واللوحات."
فقلت:" لا... لقد نسيت أمر تلك الغرفة العجيبة."
اندفعت نحو الغرفة مسرعة كالسهم وفتحت الباب وعبرت الغرفة بكل سرعتي، كان كتابي مرميا منسيا على الطاولة بجانب النافذة المغلقة .
كان دانيال ينظر إلي وقد بدت على وجهه علامات الفرحة والارتياح، نفس الملامح التي ارتسمت على وجهي .
ضممت الكتاب إلى صدري وقلت:" يا إلهي ، خلت أني لن أراك مجددا."
ثم استفقت وعدت لوعي.
ومرة أخرى وجدت نفسي في الغرفة التي عشت فيها لحظات لا تنسى من حياتي ولن تمحوها طيات الزمن.
هنا أين حلمت بين مختلف اللوحات الزيتية القديمة، أين عشت أولى اللحظات الحميمية مع دانيال.

أين سامرت القمر وأخبرته أسراري، أين احتسيت القهوة وأشعلت شموع العشق والهيام. وبدون أن أشعر أزحت الستائر من على النافذة وحدقت بالطبيعة الكئيبة التي لم أراها منذ مدة.

استدرت أتمعن في كل أثاث الغرفة التي عشقته قطعة بقطعة، ولكن ما جذب انتباهي هو أن ذلك المحمل الكبير لم تكن فوقه أكثر لوحة عشقتها في المنزل، شعرت بالضيق لأنها لم تكن هناك، وسألته:" أين لوحة آرثر كامف؟"

فأجابني بتردد:" لقد بعتها في ال..."

فصرخت في وجهه بانفعال:" كيف تجرأ؟ كيف تجرأ على بيع لوحة فنية كتلك... ألا تعلم أنها أصلية."

فأجابني بصوته الهادئ المعتاد كأن انفعالي لم يؤثر فيه:" أعلم إنها أصلية وكل القطع التي هنا أصلية أيضا يا عزيزتي، لذلك بعت تلك اللوحة وجنيت ثروة حقيقية."

واصلت الحديث بنفس الانفعال:" عار عليك لأنك لا تعرف قيمتها، مهما ربحت من أموال فهي لن تضاهي قيمتها الفنية والتاريخية..."

فقال ساخرا:" أنا لا أعرف قيمتها، لكني بعتها لمن يعرف قيمتها رجل أعمال مترف يهوى جمع القطع النادرة إشتراها من المزاد الذي أقَمته قبل أسابيع."

استفزني كل ما قاله، فقد كنت أعلم انه فنان تجاري منذ البداية همه الوحيد هو كسب المال لكن ليس لهذا الحد، ياله من أحمق لقد باع أكثر قطعة عشقتها وأمضيت ساعات أحدق بتفاصيلها وألوانها، لا مجال للنقاش في هذا الأمر.

التفت ووجدت الشمعدان مازال واقفا إلى جانب النافذة كما تركته، حتى الشموع الثلاثة مازالت هناك، الغرفة كانت مظلمة لم يتسلل لها سوى بعض أشعة الشمس الغائبة بين الغيوم والسماء الكئيبة.

فتحت حقيبتي اليدوية وأخرجت علبة الكبريت وأشعلت تلك الشمعات الثلاثة.

أما دانيال كان يشاهدني من بعيد دون أن يقول أي كلمة هكذا كان يصمت كل ما رآني منفعلة.

الأشجار مختبئة خلف ضباب شهر ديسمبر في ظهيرة فارقتها الشمس.

كنت أشاهد ذلك المشهد الجنائزي للأشجار اليابسة البارزة خلف أكوام الضباب التي غمرت الحقل. والشمعدان بجانبي ارتسم نور شمعاته كحلقات نارية ثلاثة على سقف الغرفة.

كنت وحيدة كالغراب الذي تساقط ريشه الأسود في طقس شيَّعتُ فيه ضريح آمالي، فقط ذلك الشمعدان الحارس الوفي لا يزال واقفا إلى جانبي كما عهدته يواسي كآبتي التي كتب عليها أن تكون أزلية.

جوٌ أثيري هيأ الطريق ومهده لكل الأشياء التي أردت أن أقولها، لكني لم أقلها، دفنتها في أعماق قلبي وكتمتها بعيدا في عقلي في أماكن لن اتجرأ عن فتحها واستحضارها ثانية، تغاضيت عن الأوجاع والصدمات وعدت إلى هنا.

كانت أياما رهيبة أشبه بالكابوس الذي نجوتُ منها باعجوبة.

حياتي مع دانيال كانت أشبه بالكابوس، حياة تجاهلت كل تقلباتها وانحداراتها نحو هامارتيا [67] لا مفر منها، رغم محاولاتي الفاشلة في إصلاح ما يمكن إصلاحه، إلا أني لم أستطيع إنقاذ المركب من الغرق بمفردي. لأن دانيال قد تمادى في أخطاءه وأكاذيبه، وفعلته الأخيرة التي مازال يحاول التستر عليها التي لا تغفر ولا تبرر بأي عذر أو حجة.

كذب وغدر ونفاق ...

كل هذا في آن واحد من الشخص الذي عشقته وفعلت المستحيل للفوز به.

كم كنت مغفلة عندما صدقت أنه يحبني.

كم كنت مغفلة عندما بررت تصرفاته.

تناسيت اضطراباته العقلية عيوبه التي رآها الآخرون بعين الشفقة. أما أنا فلم أشفق عليه يوما. فقد أحببته دون أن أحكم عليه كما فعل غيري.

وهبت له كل نفسي وكل ما يتمناه الرجال في الأنثى من قوة وإغراء. لكنه احتقرني تلاعب بمشاعري الأنثوية البريئة التي تختبأ وراء قناع السادية الحديدي. رغم كل ذلك فقد خبئني في غرفته العجيبة مع مجموعته النفيسة ثم أهملني وتخلص مني مثلما تخلص من لوحة آرثر كامف. في هذه الغرفة أين أرادني أن أبقى. أراد أن يبقِيَ جميلته في الخفاء. ككل هذه اللوحات التي لن يبيعها لأنها لا تقدر بثمن.

---

[67] هامارتيا: المأساة في الأدب الدرامي تفهم عموما بخطأ أو عيب يعكس السعادة إلى كارثة.

لكنه باعها في النهاية... وخيب كل آمالي.
عندها فهمت أن دانيال يفكر ككل الرجال الذين ذكرتهم في الصفحات الأولى من كتابي. فالمرأة الجميلة والمثقفة والمغرية وخاصة المتحررة التي ينظر إليها كل الرجال والنساء على حد السواء لا تصلح لتكون زوجة. تصلح فقط للإمتاع، تماما ككل القطع القيمة الموجودة في هذه الغرفة، تلك القطع التي لن ترى النور.
يختلي بها دانيال عندما يحس بنقص عاطفي، عندما يغدره كل العالم يلجأ لأحضان هذه الغرفة العجيبة وحبيبته الجذابَة الحنونة.
يريدني أن أكون شيئا ملكه لا يراه الآخرون لأنه يخاف من ردة فعلهم، ماذا لو سخر منه الآخرون، ماذا لو خطفني منه الآخرون، ماذا لو دمر علاقتنا الآخرون.
كل الشكوك التي تدور في عقله حكمت على علاقتنا بالإعدام مع التنفيذ العاجل.
وأنا كنت الضحية الوحيدة في هذه الرواية التراجيدية بامتياز.
ضحية نفسي أولا، وضحية دانيال ثانيا الذي تعود على هذا النمط من الحياة، أخيرا ضحية المجتمع ونظرياته الفارغة المسببَة للغثيان.
أفكار جعلتني أنقم على هذا المخلوق الذي يقف ورائي وجعلتني أندم على دخولي في لعبة اخترعت قوانينها لكني حوصرت في شر أفعالي وانقلبت علي كل أسحاري.
خانني كبار الجان وتحالفوا مع دانيال ومع المجتمع المقيت ضدي .
توجهت إلى الطاولة التي وضعت بجانبها آلة الأسطوانات القديمة التي لم أتحدث عنها من قبل عندما وصفت الغرفة قصد تركها لهذا المشهد المأساوي.
شغلت إحدى الإسطوانات وتعالت ألحان المقطوعة الحالمة[68] لشوبان[69] وملأ صوتها أرجاء الغرفة لتطرب نغماتها اللوحات المنسية.
زادت الألحان المتصاعدة المزيد من الحزن على مشهد الشتاء الكاسِف المهموم الذي كنت أشاهده من النافذة.
لحظة ظننت أني لن أنعم بها مجددا.
انسجمت مع الغرفة والطبيعة والألحان .

[68] المقطوعة الحالمة : مقطوعة تتكون من 21 قطعة منفردة بالبيانو مكتوبة من قبل فريدريك شوبان.
[69] شوبان : فريدريك فرانسوا شوبان هو مؤلف و ملحن موسيقي من فترة الرومانسية بولندي الأصل.

لم أتمالك نفسي وسالت دموعي وبكيت في صمت.
لا أعلم إن لاحظ دانيال الذي مازال واقفا ورائي بكائي، لكنه قاطع تلك اللحظة الحزينة والجميلة قائلا :" أين كنت كل هذه المدة؟"
أجبته محاولة تجنب التحدث في الموضوع:" في المنزل وأنت ؟"
فقال:" مثلك."
ثم سكت كلينا، كأن أحدا منا لم يرغب في إستحضار واقعة رحيلي، لكن نعمة ذلك الصمت لم تدم لوقت طويل، وقال دانيال:" لماذا رحلتي بهذه الطريقة، ماذا حدث؟"
أجبته بينما واصلت النظر من النافذة لأني لم أرغب في الاستدارة والنظر له بالدموع المنسكبة على وجهي فأنا لا أريد استعطافه في كل الأحوال مهما انهرت ومهما ضعفت أمامه... لا أريد شفقته مهما حدث:" ولماذا لم تتصل لتعرف لماذا رحلت ؟"
ثم أضفت في سخرية وغضب:" يا له من هراء... أي نوع من الحب هذا؟ كلنا نعلم لماذا رحلت، لم أرد التحدث في هذا الموضوع وتجنبته منذ قدومي لأني أعلم جيدا أنك تعرف سبب رحيلي... عار عليك، ألا تخجل من نفسك ومن تمثيلك الذي سئمتُ منه، ألَمْ تسأم من دور الضحية البريئة؟ سئمت من كذبك وعدم نضجك ... كيف سمحت لنفسي أن أقع في حب شخص مثلك."
وواصلت القول :" لم أعد أقدر على تحمل كذبك... الحياة معك صارت لا تطاق."
كنت أقول هذه الكلمات وأذرف دموعي من شدة الحرقة والندم على كل الكذب والأوهام التي عشتها مع دانيال.
لم أرغب في أن يراني أبكي من أجله ومن أجل ما وصلت إليه علاقتنا بسبب تصرفاته الطائشة إلى أن قال:"سامحيني، لم أقصد أن أسبب كل هذا الألم."
ليتني أستطيع أن أسامحك في قرارة نفسي، لكن الجرح كان أعمق من أن تضمده كلمة "سامحيني" هذه المرة.
كيف لي أن أنسى الكذب المتواصل والألاعيب؟
كيف لي أن أنسى كم ليلة بكيت إلى أن نمت من شدة الوحدة والاكتئاب؟
لكني أجبته بصوت يكتم حزني وبكائي:" لا تعتذر ... سامحتك منذ البداية، ليست أنت المذنب بالقصة... سامحتك، مثلما سأسامحك دوما."

جلست على الكرسي ووضعت كتابي وحقيبتي على الطاولة وأخذت أمسح دموعي التي سوَّدها الكحل السائل مع دموعي المنذرفة التي لم أعد أخجل من أن تنهمر أمامه، نظرت إليه ولم أتوقف عن البكاء وقلت:" أنت أكثر شيء أردته في العالم، هل طلبت الكثير عندما أحببتك ؟ هل طلبت المستحيل ؟ تمعن في الأمر مليا، فتصرفاتك هي التي أوصلتنا إلى هنا."

لم أتوقع أن كلماتي هذه ستزتفزه إلى ذلك الحد حيث فاجأني بإجابته التي خَلَتْ من الخوف أو التردد عكس ما اعتدته:" حقا... أنا المخطئ في الأمر، ألا تعلمين أن تصرفاتك هي التي أوصلتنا إلى هنا، ألا تعين بشاعة تصرفاتك التي لا تحتمل ؟ تصرفاتك التي لن يحتملها أي رجل آخر... أعطيتك الكثير من الفرص آملا أن تتغري لكن حبك للسيطرة أعماك وجعلك تعيشين في وهم أفكارك وفي سريالية سلطتك، تصرفاتك الهوجاء تلك جعلتني أنفرك، لقد طفح الكيل من السادية التي تمارسينها في حقي، أنا لست لعبتك، ولا عبدك وأي شيئ خاصتك... استفيقي من الوهم الذي تعيشين فيه... مللت من مناداتك لي بلعبتك الصغيرة، مللت من أوامرك عزيزي داني لا تفعل هذا ولا تفعل ذاك، حتى الحياة معك مللتها... حبك للفن واللوحات جعلك مجنونة لهذه الدرجة، تريدين التربّع على عرش الفن والاستحواذ على رساماكِ المفضل ."

كنت أصغي إليه كأن الشخص الذي يتحدث أمامي ليس دانيال ذلك الحمل الوديع البريء الذي لا يتجرأ عن رفع صوته في وجهي، لكنه واصل حديثه هذه المرة دون أن يخاف من نوبات الغضب و من صراخي الذي اعتادهما :" تحملت الفوضى وتحملت شهواتك الشاذة الخارجة عن السيطرة، تحملت تحكمك في ملابسي وطعامي وحتى أوقات نومي، ضحيت في صمت من أجلك يا عزيزتي لكنك ظننت أن هذا الصمت مجرد ضعف مني ورضوخ لسلطتك العمودية اللامتناهية، لم أستطع أن أكون رجلا ككل الرجال، لم أستطع أن أكون رب البيت المثالي، لم أتمكن من السيطرة على أي شيء ... حتى تلك اللحظات الحميمية الجميلة أفسدتها بحبك للسيطرة، كم مرة عبّرت لك عن معارضتي لتصرفاتك لكنك انتهزت كل ذلك..."

ثم صرخ في وجهي وقد اشتدت عليه ملامح الانزعاج والتوتر:" ألا تخجلين ... لست حيوانك الأليف الذي تلعبين به عندما تشعرين بالملل لماذا لا تفهمين هذا؟ أنا

رجل حتى وإن كنت عاجزا... أبقى رجلا، هذا كل ما لم تفهميه، لم تفهمي أني لست بحاجة لمن يحول كل شيء حولي إلى فوضى ويقلب كل حياتي رأسا على عقب..."

كل هذه الكلمات لم تكن كافية لتعبر على الانسحاق الذي كان يحس به دانيال، حيث احتكر الكلمة دون أن يبالي بوجهة نظري للموضوع وواصل كلامه:" آه تذكرت... هناك أمر آخر، توقفي عن التصرف كالمراهقات الشقيات، أنت إمرأة ولديك مسؤوليات في الحياة غير قمع الآخرين واستغلالهم ونفث سمومك، أنت شخص سام ولا أملك الوقت الكافي لجنونك واكتئابك وأمراضك النفسية التي أتمنى أن تشفي منها."

كلماته تلك أثرت فيّ، كانت المرة الأولى التي تحدث فيها دانيال معي بتلك الطريقة والمرة الأولى التي يفقد فيها هدوءه، فقد كان شخصا ناضجا لا يمكن استفزازه بسهولة لكن هذه المرة ثار على شخصيته الهادئة وتكلم من دون خوف.

شعرت بشيء من الأسى تجاهه وفهمت أننا كنا مخطئين في حق بعضنا لذلك حاولت تهدئته بقولي:" آسفة... حقا لا يوجد كلام يعبر عن أسفي، فالخطأ خطئي منذ البداية عندما قررت الارتباط بك، أنا حقا مجنونة لأني أضعت وقتي معك."

فأجابني والغضب مازال مسيطرا على ملامح وجهه:" فقط الحمقى يرضون بحبيبة مثلك، وأنا كنت أحمقا وابلها معتوها لأنني سمحت لك بالدخول لحياتي، حاولت أن أحبك، حاولت أن أجعلك ككل النساء، ظننت أنك ستفهمين أني لا أحب تلك التصرفات الداعرة، كنت آمل أن تصبحي امرأة عادية لكي أتمكن من حبك وتقديمك للمجتمع والعائلة... أردتك أن تكوني امرأة لائقة، تمنيت لو تمكنت من تعويض حبيبتي السابقة، حبيبتي التي لم يكن علي من الصعب تقديمها للعائلة... حتى أمي أحبتها ."

ولا أعلم كيف صرخت في وجهه دون أي احترام أو تقدير:" عادية.... لائقة... لست ككل النساء وخاصة تلك الحقيرة التي أويتها من الشارع، لن أكون ككل النساء الضعيفات تحت إمرة رجل، لن يحدث ذلك ولا في أحلامك، لن أكون لائقة، ولن أكون مثلهن."

توجهت نحوه وانحنيت عليه محاولة تقبيله واغراءه بكل غضبي وثورتي، لكنه تقهقر إلى الوراء وحاول منعي وقال بصوت يعكس قوة شخصيته التي رأيتها في التلفاز وانجذبت إليها من الوهلة الأولى:" لذلك لن نتزوج... لقد حُسم الأمر، ارحلي كرهتك، لم أعد أطيقك، حقا كرهتك."

فقلت باكية:" توقف أنت تقطع قلبي بهذه الكلمات."

ضحك دون أي مبالاة بمشاعري وتذللي ثم قال:" مشاعرك؟ أي مشاعر أنت عديمة الأحاسيس والمشاعر، لا أريد أن أتزوجك... لم افكر في ذلك، لا أستطيع أن أفكر في أني سأقضي بقية حياتي معك أستمع لتذمرك وأفكارك السخيفة، لن نتزوج مهما حصل."

نعم لقد قالها، دون أي اهتمام أو اكتراث لمشاعري ومحبتي الجنونية التي أكنها له، جلست على الأرض منهكة منهارة القوى ومقطوعة شوبان الحالمة مازالت تعزف قصد التمهيد لمشهد احتضاري المأساوي.

قلت بصوت يتضرع لقليل من الشفقة:" لماذا واعدتني منذ البداية ؟ لماذا كذبت علي من البداية... لماذا أنا ."

استطردت في بكائي وصراخي بأعلى الأصوات:" لماذا أنا ؟ لماذا قلت انك تحبني؟ كاذب.... أنا أكرهك.... كاذب.... لماذا ؟ لماذا؟"

أجابني كأنه فرح بنصر ساحق حقق ضدي، أو بانتقام خطط له منذ وقت طويل:" حاولت أن أحس برجولتي وفحولتي كأي رجل في الكون، أردت أن أقضي وقتا ممتعا لكن لم أدرك أن الأمور ستصل لهذا الحد، لم أتوقع أن تكوني قوية وعنيدة."

واصلت نوباتي صراخي التي تعالت أكثر وأكثر:" فاجر... يا لك من حثالة كل هذه المدة جعلتني أحلم ظننت أنك تحبني، جعلتني أحبك، جعلتني أعشقك، أهيم بحبك... أردتك أن تكون ملكي لأني حقا أحبك، بعد كل ما فعلته من أجلك لم تتمكن من الوقوع في حبي."

فقاطعني قائلا:" إن كنت أحبك لَما تهربت من مقابلتك في البداية."

سكت قليلا ليستمتع بصوت نحيبي المصاحب للمقطوعة الحالمة، ثم تنهد وأضاف بدم بارد محاولا تبسيط الأمور:" قلت لك أني حاولت يا عزيزتي، بذلت كل جهدي لكي أحبك، ربما كنت معجبا بك ولكن ليس لدرجة الحب والزواج، لم أستطع ولن

أستطيع أن أحب شخصا مثلك، ولن أستطيع أن تقديمك لعائلتي، ولا أن أقدمك للمجتمع على أساس زوجتي، انتهى الأمر... تقبليه بكل بساطة."

دموعي لم تتوقف عن التساقطّ، بل صارت شلالات أغرق فيها وحاولت أن أسأل لماذا فعل كل ذلك، لكن صوتي صار غير قادر على الصراخ مما جعلني أقول بصوت خافت يعكس تقبلي لشر الهزيمة التي ذقتها للتو:" لماذا ... أريد أن أعرف السبب؟"

فأجابني وهو مستمتع بكل الدراما التي يشاهدها أمامه:" لماذا تصرين على أن أجرحك ؟ كفى حماقة أنت تعرفين لماذا."

فقلت بيأس :" صدقني إن كنت أعرف لما سألتك."

اشتدت دقات قلبي وأخذت السكاكين تقطع معدتي، كأن صخرة كبيرة فوق صدري جعلتني غير قادرة على التنفس، كأني سأسمع حكمي النهائي من قاض ظالم مستبد.

اقترب مني دانيال وجلس بجانبي على الأرض وقال:" تمنيت لو كانت لديك مرآة توريكي الحقيقة، الحقيقة التي يراها كل الناس، قلت أني أريد امرأة عادية في حياتي ليست تلك التي ينظر إليها الرجال من باب الإغراء والنساء من باب التعجب، أردت امرأة أفتخر بها ويحسدني عليها الجميع وهذه المرأة بالطبع ليست أنت، أنت غريبة الأطوار شكلا ومضمون... أخبريني هل حققت نجاحات في حياتك؟ بالطبع لا لم تتمكني حتى من بيع لوحاتك، لم تنجحي في أي شيء، انظري لكل هذا الوزن الزائد، إنه أكبر دليل على عدم إحساسك بالمسؤولية لم تشفقي على نفسك ولا على جسمك؟ لم تحاولي التخلص منه؟ ولم تلاحظي أن عليك التوقف من وضع الصبغات المثيرة للانتباه كالمهرجين، أ لم تلاحظي أنه عليك التوقف عن ارتداء الأسود ...كل شيء فيك مختلف وبطريقة بشعة، اتمنى لو تتمكنين من رؤية الواقع من وجهة نظر الناس، لا من وجهة نظرك، إن كنت مستعدة للتغيير ربما سأبقى معك."

أذكر أن كل العالم الوردي الذي بنيته في تلك اللحظة انهار فجأة كأن اعصار غضب دانيال اجتاحه ودمره في ثانية .

سنوات من الأحلام والحب والتخطيط هدمت في ثانية بأبشع العبارات وأقساها.

تلك الكلمات التي ما كانت لِتؤثر فيّ لو سمعتها من شخص غير دانيال.

إصابته هذه المرة كانت موفقة واتجه السهم لقلبي مما نتج عنه نوبات هلع وتوتر مصاحب صداع ودوار وهلوسات لكني واصلت الحديث لعله يقول شيئا يجعلني أتغاضى عن كل ما سمعته، يجعلني أستفيق من الكابوس :" إذا كل شيء لم يعجبك منذ البداية، لم يعجبك مظهري، حتى ثقافتي لم تعجبك؟ أ لم تنجذب لطريقة تفكيري، وكوني رسامة مثلك؟"

فأجابني باختصار محاولا أن يحسم هذا الجدال الغير متوقع:" بالعكس، لم أقل هذا، جمالك مقبول، ليس الجمال الموجود على أغلفة المجلات أو الصورة التي ينشرها الإعلام تتناولها مواقع التواصل الإجتماعي، ليس الجمال الذي يريده المجتمع، أما بالنسبة للثقافة فلا أحد يهتم بها في هذه الأيام، لا أحد يهتم بالكتب التي تقضين ساعات يومك تقرئينها، أو بالأشعار التي أكل عليها الدهر وشرب، حتى لوحاتك الكلاسيكية لن تجد مكانا في زمن كهذا وبهذه المناسبة أنصحك بأن تغيري أسلوب رسمك... لا نستطيع أن نكون مع بعض العلاقة لن تنجح لعدة أسباب، أتمنى أن تتفهمي موقفي وتعذريه."

ثم انصرف من الغرفة دون أن يضيف أي كلمة أخرى، ربما لأنه لم يعد يملك الجرأة الكافية للنظر في عينيْ، أو ربما لأنه لم يعد يملك كلمات قاسية أخرى يقصفني بها.

وهكذا انتهى هذا المشهد التراجيدي الكئيب وسكتت معه اسطوانة شوبان وهجر الماضي الجميل تلك الغرفة العجيبة التي كانت خير شاهد على أول معاشراتنا الحميمية، أما الآن فصارت مسرحا لجريمة سُفكت فيها دمائي بدون أدنى شفقة ليعم الصمت المكان وتهجرني كل تلك الذكريات الجميلة إلى الأبد.

استلقيت على ظهري أشاهد انعكاس الشمعات الثلاثة على السقف ودموعي ما انفكت على التساقط بشدة والوقوع على الأرض لملامسة تلك الزربية الناعمة.

استغربت من كلامه وصدمت باعترافاته وتساءلت كيف للمرء أن لا يرى عيوبه.

ما أسوأ أن نكتفي برؤية عيوب الآخرين.

راعيت مشاعره ولم أرغب في التحدث عن عيوبه، لذلك خيرت الصمت والبكاء على المواجهة.

لم أفهم كيف لشخص مثل دانيال أن يرى أنه أفضل مني في كل شيء، أن يرى أنه يستحق امرأة افضل مني، أن يراني ساذجة وغير مسؤولة وأن يخجل من الخروج معي.

لم أكن لأخجل بالظهور معه أبدا، كنت سأفتخر به وأقتدي به مهما حصل ومهما قال كل الناس أني أستحق شخصا أفضل ومثقفا أكثر من دانيال قادرا على تحمل أعباء أسرة كاملة بكل مسؤولياتها، رجلا قادرا على اشباع رغباتي الجنسية التي هرب منها دانيال ووصفها بأنها لا تحتمل.

ليتني تمكنت من الرد على كلماته التي لا تزال ترن في أذني.

ليتني أستطيع جرحه كما جرحني.

ليتني تمكنت من القصاص.

لكني من المشرّف أني كنت واعية بما فيه الكفاية على أن أقول كلاما جارحا ورميه بنفس الحجارة التي رماني بها، فذلك لن يحل الموضوع.

فنعته بأشنع الأوصاف ليس بالحل الناجع، ليست الطريقة الأمثل لحل الأمور، ففي نهاية المطاف لكل شخص مرآته الخاصة التي تريه عيوبه الداخلية والخارجية، ما كان عليه أن يطلعني عن عيوبي لأني أراها جيدا و أرى عيوبي الأخرى المخفية, وعيوبي الأخرى التي لا يراها الناس عيوبا، هو أيضا لديه عيوب لكني لا أهتم، لأني أحببته بحسناته وسيئاته قبل كل شيء، احببته كما هو ولم أندم على ذلك.

كبريائي مهما تعاليت وسيطرت لن تسمح لي باهانة شخص لأنه مختلف.

تلك الكلمات شغلت عقلي ولم أتمكن من التوقف عن البكاء.

شعرت بتعب لا يوصف وصداع زاد الأمر تعقيدا ولا أعلم إن كنت قد غفوت أو أنه قد أغمي علي من وقع الصدمة، ولكني استسلمت لذلك الشعور المريح وغفوت فاقدة الوعي كأني في غيبوبة جراء كل ما سمعته لأستيقظ بعد نصف ساعة تقريبا بنوبة هلع اخرى وصداع شديد لا يوصف كأنه حقول كهربائية تسري في دماغي.

لا أعلم كيف وقعت على الأرض لا حول لي ولاقوة ولا أعلم كيف لم أحس ببرد الطقس الذي قد ازداد تقلبا.

تساءلت كيف له أن يتركني مرمية كالجثة المتعفنة ويرحل، ياله من عديم الشفقة.

كانت تلك الشموع الثلاثة قد ذابت وانطفأت والغرفة صارت مظلمة، حتى ضوء النهار قد اختفى وسمعت تهاطل المطر يزداد وقعه على زجاج النافذة.
لم أقدر على الوقوف والصداع جعلني ارغب بالتقيؤ، كأنني سكران يحاول أن يصحو بعد جلسة خمرية.
أخرجت هاتفي من الحقيبة لأرى كم صارت الساعة.
كانت الساعة الثالثة والربع بعد الزوال وجدت رسالة قصيرة من أمي كتبت فيها
" أين أنت عزيزتي ؟ قلت أنت لن تتأخري أنا أنتظرك على الفطور"
فابتسمت وراسلتها وأخبرتها أني سآتي خلال ساعتين.
وضعت الكتاب في حقيبتي، نظرت لوجهي في المرآة ورتبت شعري ولبست قبعتي، وضعت أحمر الشفاه القاتم بعد أن مسحت الكحل السائل من عينيْ.
توجهت للمطبخ لشرب بعض الماء ثم توجهت لغرفة الجلوس أين كان دانيال يشاهد التلفاز بمفرده كأن ذلك الحوار الملحمي الذي دار بيننا قبل دقائق لم يأثر فيه مطلقا.
وقفت في باب غرفة الجلوس وقلت:" هل تستحق أي شيء قبل رحيلي ؟"
فأجابني بينما كان ينظر للتلفاز:" شكرا كل شيء على ما يرام."
فأضفت :" أنا راحلة ولن أضايقك مجددا."
فقال :" هذا هو الحل الأنسب لكلينا، وداعا."
لم أتمكن من قول كلمة الوداع ولم أتوقع أن يكون اللقاء الأخير الذي سيجمعني بدانيال بهذه القسوة والبرودة.
كم كان قاسيا.
وكم كانت كلماته قاسية.
وكم كانت التجربة كلها قاسية.
هكذا كان وداعنا ولقاءنا الأخير، باردا كشهر ديسمبر، صلبا وجافاً كالأغصانِ الميتة.
كئيبا ككل حياتي.
جبت الشوارع هائمة كالشبح، كأني مخدرة.
كَميّت هارب من قبره ومن عذابه.

لا اعرف كيف وصلت إلى المنزل ولم أرغب بتناول الطعام بحجة أني متعبة وأريد النوم.
هذا ما نفعله عندما نكتئب، نهرب إلى النوم، ذلك العذر المشروع "النوم" من يهتم إن نمت لأكثر من اثني عشرة ساعة في اليوم.
مات الوهم الذي بداخلي ورحل طيف الحلم الذي دفعني للحياة، حلمت بلحظات لا يمكن عيشها ولا يمكن خطفها من الواقع لأنها لحظات لم تكن موجودة بالأساس.
رحلت وكنت أعرف أنه لن يشعل أحد تلك الشمعات بعدي ولن يدخل أحد لتلك الغرفة بعدي، كذلك لن يشعل أحد تلك المدفأة ويشوي أمامها حلوى المارشميلو رحيلي سيعيد الرتابَة المألوفة لمنزل دانيال.
كُتِب على كل قصص الحب أن تنتهي بمأساة يموت فيها البطل أو يبتعد عن حبيبته، أما أما فقد مت عندما سمعت تلك الكلمات تخرج من فم دانيال عندما علمت أن خطيئتي هي السبب في إخراجي من الجنة التي لن أعود إليها وحبيب لن أراه مجددا.
وكما جرت العادة، كلما خيب دانيال ظني لجأت للسيد محمد لأشحنهُ بهمومي وموجاتِي السلبية، فهو لا يمانع تلك الجرعة الزائدة من الإكتئاب ويريد أن يستمع لقصصي الشقية وقراراتي الخاطئة، فهو الشخص الوحيد الذي سيستمع دون أن يلومني أو دون أن يوبخني، إنه بمثابة الأب الروحي لي، رغم مرور بضعة أشهر على لقائنا الأخير غير أنني متأكدة من أنه سيرحب باكتئابي كالعادة.
لم يكن لدي رقمه لأتصل به بالإضافة إلى ذلك لم أرسل له أي رسالة لأطمئن عليه، لكن بعد هذه المدة سيسرّ بقدومي فأنا أعلم أني أروق له في كل الأحوال فتصرفاته تدل على ذلك وعينيه تدل على ذلك أيضا، لكني لا أهتم، الشيء الوحيد الذي يجعلني أهتم به هو إصغائه لمشاكلي دون أي كلل أو ملل، إذا فإنه الوقت المناسب لزيارته ففكاهته ستجعلني أنسى كل همومي.
اشتريت قطع البراونيز والشطائر التي يحبها السيد محمد وركبت سيارة أجرة متجهة لعمارة الأنس حيث سأرى السيد محمد مجددا بعد كل هذه الفترة.
على الأقل مازال هناك شخص في الكون يجعلني أضحك ويعاملني كالملكة وفوق هذا كله يهتم لأمري ويصغي لمشَاكلي وتذمري .

كانت السيارة تسير بأقصى سرعتها رغم كل الإزدحام المعهود، وحالة التوتر لم تفارقني، كأن قلبي سيثقب قفصي الصدري ويخرج من مكانه بسبب القلق والاكتئاب والتوتر فهذا ليس بالأمر الغريب فقد توقفت عن استعمال مضادات الإكتئاب رغم أني في أمس الحاجة إليها الآن، لكن لأول مرة في حياتي قررت أن أواجه مشاكلي وحدي وأتصرف كإنسان راشد مسؤول عن أخطائه، دون أي عقاقير كيميائية. هذه أول خطوة قررت أن أخطوها من أجل التغيير، فالهروب من الواقع لن يغيره مهما حاولت.

إلى أن وصلت إلى العمارة حيث يقطن السيد محمد.

دقات قلبي صارت بمثابة العزيف من شدة التوتر، فذلك طبيعي لأن كل ما أردته هو التخلص من حِمل قصتي التي صار لا يطاق.

ركضت نحو المصعد وبقيت أنتظر.... يا إلهي كأن الطابق الرابع لن يأتي.

كلما صعد المصعد طابقا آخر، زاد توتري.

فتِح المصعد، خرجت راكضة نحو شقته، قرعت الجرس وأنا في قمة السعادة.

أخيرا فتِح الباب، وقفت أمامي امرأة أربعينية، نحيلة طويلة القامة ترتدي جلبابا أسودا وتضع حجابا أسود فوق رأسها وقالت لي:"مرحبا كيف لي أن أساعدك ؟"

ابتسمت وقلت:" جئت لمقابلة السيد محمد، هل هو موجود ؟"

تغيرت ملامحها فجأة، كأنها تريد أن تصرخ في وجهي، تهاجمني أو تضربني ... لكن لا أعلم لماذا ولا أعلم من تكون، هل هي حبيبته يا ترى؟

لكنني كنت مخطئة فهي لم ترغب بالقيام بأي شيء من هذا القبيل بل اغرورقت عيناها بالدموع، تماسكت وأجهدت نفسها بحبس تلك الدموع وقالت بصوت يسكنه النكد والهم:" السيد محمد ليس هنا."

وأجهشت بالبكاء إلى أن صارت عينَاها كالجمرتين ثم واصلت حديثها:" لقد توفي منذ ثلاثة أسابيع."

لم أصدق الكلمات التي سمعتها للتو، كأنه لم يعد لدي أي شخص يواسيني في العالم، صدمت صدمة أخرى لم أتوقعها.

كدت أن أنهار، سكتُّ قليلا لعلني أستوعب هذه الفاجعة ثم قلت:" يا إلهي هذا غير معقول... كيف حدث ذلك؟"

فأجابتني:" بنوبة قلبية... لا أعلم كيف حدث ذلك فصحته كانت جيدة، كنت أزوره بانتظام، إلى أن وجدته المعينة المنزلية جثة هامدة في سريره ذات صباح... لم أصدق أنه توفي فجأة بهذه الطريقة، مات وحيدا، هذا ما كان يخشاه، أن يلفظ آخر أنفاسه وحيدا في سريره... آه لو كنت هناك تلك الليلة لَتمكنت من إنقاذ حياته."
ثم تعالى بكائها، وللأسف لم تكن بيدي حيلة، ليس هناك أي شيء لأفعله لأخفف من حزنها، ولم يكن لدي أي شيء أضيفه أو لأهدء به من روع هذه المسكينة.
سرت القشعريرة في كامل جسمي كموجات من الكهرباء تصعقني دون توقف وقلت لها وصوتي كله حزن:" أنا آسفة لذلك، فليرحمه الله، إذا أنت هي أخته، لقد حدثني عنك."
فأومأت برأسها .
حاولت أن أبتسم في وجهها لعل ذلك يهدؤها قليلا ثم استأذنت الرحيل.
جلست على الدرج الذي كان خاليا من الناس و بكيت...
لا أعلم إن كنت قد بكيت على رحيل السيد محمد، أو لأني صرت وحيدة بدون أصدقاء، لا أحد ليواسيني أو يخفف علي.
ثم عدت إلى المنزل منسحقة أكثر من السابق، وضعت المأكولات التي اشتريتها في المطبخ ثم اختبأت في غرفتي لعدة أيام.

تسابقت الأيام على تحطيمي، وزاد معها اكتئابي، أستيقظ في الصباح وأول شيء أفعله هو شرب الخمر ثم أعود إلى النوم أو أبقى في السرير طيلة النهار أتأسف على كل الذي راح من حياتي.
فقدت الثقة في كل العالم مجددا.
كرهت الرسم وكرهت الحياة وكل شيء يذكرني بدانيال.
أفتقده.
حياتي ضحلة من دونه، أشعر بالعجز، كأني فقدت جزءا مني، أحد أطرافي، نصفي الثاني، دقات قلبي، روحي المندفعة نحو حياة لن تعود.
لن تزهر الأزهار فوق قبري ولن تلامس أغصاني الميتة أشعة الشمس .
لن تخرج الفراشات التي في معدتي لتحلق في الفضاء.
لن أعيش قصص الحب الخيالية مع دانيال لأن الرواية التراجيدية التي عشناها حكمت على حبنا بالفناء.
تجرعت جرعة خمر أخرى أشعلت معها سيجارة ثانية ولوحة الموناليزا أمامي بملامحها التي صارت أكثر حزنا وصفرة وشحوبا، لم تبعد ناظريها عني كأنها تريد أن تذكرني بدانيال وكل حبنا وذكرياتنا.
واصلت شرب وقلت لها :**"يالك من بشعة!"**
لوحة الموناليزا تلك التي كانت منعرجا هاما في علاقتنا، كيف لي أن أنسى أن دانيال تركني وفرّ لأحضانها استعملها كعذر ليهرب مني ومن حبي الذي خنقه وأصبح لا يطاق.
اقتلع روحي ليبث روحا أخرى في لوحته تلك.
كيف لي أنسى أنه قدّم عشيقته الجديدة "الموناليزا" لآلاف المعجبين وجعلهم يقعون في غرامها وجمالها وسحر ألوانها ودقة تفاصيلها.
كل ما في الموناليزا يذكرني بدانيال، رسمتها لاتذكره.
أخذت نفسا عميقا من السيجارة وترشفت ما تبقى في قنينة الخمر نظرت للوحة الموناليزا الكئيبة التي كانت تترجاني أن أخلصها من عذابها الذي لن ينتهي طالما مازالت روح دانيال محاصرة بداخلها.
بنظرتها الكئيبة وعينيها الحزينتين ترجتني أن أعتق روحها.

لم تكن بيدي حيلة أخرى فحزنها قد فطر قلبي، على الأقل واحد منا سوف ينتهي عذابه.
أشعلت الولاعة وقربتها من الموناليزا وشاهدتها تحترق، وقد نسيت التعب والبؤس والتركيز وكل روحي وحبي الذين وضعتهم فيها عندما رسمتها، احترقت ملابسها ويديها وصدرها، واحترقت ابتسامتها التي لم تبتسم لي أبدا وذابت ملامحها بين ألْسِنة اللهب.
احترق كل وجهها واحترقت الخلفية التي تذكرني بالحقل الكئيب والبحيرة التي شهدت آخر علاقة حميمية بيننا.
احترقت لوحة الموناليزا بالكامل مثلما احترق قلبي.
لن يزهر زهر شبابي مجددا، ولن تعود أطياف ذكرياتي الجميلة التي دَفنت أسرارها في لوحة الموناليزا ودفنتُ معها حبي وعشقي المتيم.
بكيت وأشعلت سيجارة أخرى دخنتها بينما كنت أستنشق رائحة احتراق روحي واللوحة التي لم أرضى عنها أبدا.
يجب أن أنساه لأني لا أريد أن أجن.
كيف لي أن أنساه وأنا أراه كل ليلة وأصحى على كوابيسه.
توقظني أحلام اليقظة لأستفيق على على صوته وشعره الذي يلامس جسدي العاري
كيف لي أن أنساه إن كنت أتحدث لشبحه كل ليلة.
إن كنت أخبر السماء والقمر وكل النجوم عن حبيبي الذي لن يعود.

انقضى شهر ديسمبر القابض المخيف ورحبت بسنة جديدة لم أكترث لها مثلما لم أكترث بغيرها.
قررت أن أصلح كل ما أفسدته في حياتي، رغم أن السقوط من الجنة أعادني لأرض الواقع وأفاقني.
بعد كل ذلك الصراخ والكلام القاسي الذي قاله دانيال، وبعد أيام من الندم والحزن استفقت.
قررت أن لا أستسلم لموجة الاكتئاب هذه، قررت أن أعيش لنفسي، لكتبي ولفني الذي سأواصل ممارسته مهما انتقدتني كامل الكرة الأرضية.
قررت أن أتصالح مع نفسي.
أن أحبها، أن أحب نفسي وجسدي وكل عيوبي.
قررت أن أنسى سنوات الوهم التي أحببت فيها دانيال ولم تزدني إلا مرضا واكتئابا سأعود للرسم ولقراءة الكتب، بعيدا عن العالم الرقمي الافتراضي.
كل ما حاولت فعله هو أن أتعايش مع جراحي والماضي الذي يقرع بابي في الليالي الباردة، فهذا الشتاء كان كقبر بارد دُفنتْ فيه روحي وأحزاني.
شتاء جمد قلبي وكل أحلامي.
ليأتي بعده الربيع بحلته الزهية التي لم أحبها أبدا، لأني لم أكن قطّ شخصا متفائلا لأتفاءل بحلول فصل الربيع. كل شيء في هذا الفصل كان متفائلا عكسي تماما الطبيعة وكل المخلوقات وحتى الناس.
لبست تلك الأغصان الجافة أثواب البهجة والفرح واكتساها الأخضرار من جديد عاد الأمل في حياتها وبُعثت في أغصانها التي كانت على أبواب الاحتضار أوراق جديدة خضراء يانعة مفعمة بالتفاؤل والحياة والأمل.
كل الحيوانات ترحب بهذا الفصل الجميل الذي لا أراه جميلا أبدا، عصافير تزقزق وتغني بين السحاب وأوراق الأشجار المنفعة نحو الحياة الجديدة، فراشات تحط من بستان إلى آخر تجوب العالم فرحا، تُقَبل الزهور وكل أنواع النباتات.
ذاب الجليد وتوقفت السماء عن النواح.
رغم أن السقوط من الجنة أعادني لأرض الواقع وأفاقني.
نعم بعد كل ذلك الصراخ والكلام القاسي الذي قاله دانيال، لقد استفقت.

قررت أن لا أستسلم لموجة الاكتئاب هذه، قررت أن أعيش لنفسي، لكتبي ولفني الذي سأواصل ممارسته مهما انتقدتني كامل الكرة الأرضية.
قررت أن أتصالح مع نفسي.
أن أحبها، أن أحب نفسي وجسدي وكل عيوبي.
قررت أن أنسى سنوات الوهم التي أحببت فيها دانيال ولم تزدني إلا مرضا واكتئابا.
قررت أن أبدع أن أرسم وأن أكتب وأهرب من ذكرياتي التعيسة مع دانيال.
عدت للانغماس في الحياة ومصارعتها.
إلى أن رأيته مجددا.
في ذلك الوقت من السنة، في شهر أفريل رأيت دانيال في التلفاز كأني أراه لأول مرة.
لحظة كالتي جمعتنا أول مرة منذ سنوات، وكالعادة فصلني عنه ذلك الزجاج اللعين.
كان وسيما للغاية كما عهدته وزادته تلك اللحية البنية الخفيفة وسامة، سرق الأضواء والقلوب بأناقته التي تعودها الجميع، كان يرتدي بذلة زرقاء حاكت لون عينيه اللون الذي عشقته.
كان سعيدا للغاية بدوني، سعيدا لأنه استعاد السيطرة عن حياته، يتباهى بنجاحاته الساحقة أمام عشرات الصحفيين الذي كانوا يُغطون احدى معارضه البرجوازية التي ترتادها تلك الثلة الراقية من المجتمع.
لكني لم أشاهد ذلك اللقاء.
أغلقت التلفاز غير مهتمة بذلك السبق الصحفي لأفضل رسام في البلاد.
توجهت لغرفتي وأغلقت الباب، استلقيت على السرير أفكر وأفكر إلى أن استسلمت في نوم عميق.

ما فائدة الاكتئاب فقد حطم قلبي في النهاية!

النهاية

كلمة الكاتب :

تحدث طه حسين في مقدمة كتابه الأيام عن سبب كتابته لسيرة ذاتية في سن مبكرة فقال:" لقد أمليته لأتخلص من بعض الهموم الثقال والخواطر المزعجة."
هكذا لخص طه حسين الجزء الأول سيرته الذاتية "الأيام" ووصفها بأنها بعض الهموم الثقال والخواطر المزعجة.
نفس التلخيص ينطبق على تجربتي الأولى والبسيطة في الكتابة .
كم كنت حمقاء عندما ظننت أن ثقل الهموم سيزيحها مجرد حبر على ورق.
فعلت ما قاله الجميع، فهذا ما يطلبه الطبيب النفسي من مريضه أن يشكي اوجاعه لورقته لا للناس، أن يكتب كي يرتاح ويلقي بكل همومه واتعابه على الورق.
ذاك الذي ينصت بإصغاء تام دون أن يحكم أو يعطي وجهة نظر.
كلمات كهذه جعلتني أواجه مخاوفي وأواجه نفسي لأول مرة وأعزم عن الكتابة.
لكن ما لم يخبرونا به أن الكتابة خانقة موجعة وقاتلة، فعندما تمسك قلما تدخل في صراع مع ذاتك وأفكارك التي تخاف أن يسخر منها المجتمع الذي سيقرأ ذلك الكتاب وينقسم إلى شقين ناقد ومنتقد.
لكن وافقت على أن أدخل حربا بيني وبين الآخر المخيف رغم احترازاتي في البداية وشرعت أختار ما أباحت لي قريعتي من مصطلحات، في البداية كنت متحمسة وكانت الأمور تجري بسلاسة وأنا أراقب ذلك الكم من الكلمات والصفحات يتزايد يوما تلو الآخر إلى أن انغمست في وصف تيار الأحداث وشعرت بالاختناق.
اختناق أحسست به لفضاعة التجربة التي مازال تأثيرها وجرحها بليغا في قلبي لدرجة أني لم أعد أقوى على التفكير بها.

مرات عدة فقدت القدرة على التنفس وألمَّ بي الاكتئاب والصداع والإحباط جراء نبش قبور الماضي واثارة أوجاعه.
لكني عاهدت نفسي أن أمضي قدما في الكتابة وأنهي الشوط الذي أقسمت أن أمشي على أشواكه حتى النهاية.
فكان إخراج هذا المزيج الأدبي الذي جمع الأدب التجاوزي والايروتيكي والسيكولوجي من جوف روحي وبعثه للحياة أصعب من الموت والولادة والحياة التي بينهما.
فالألم يؤثر فينا أضعاف ما تؤثره اللذة، والجرح حتى وإن التأم فالندبة لا تزول.
أمضيت ما يقارب التسعة أشهر منعزلة عن مجتمع لا جدوى في تواجدي فيه وبسطت أفكاري أمامي وأخذت أناقشها واحدة تلو الأخرى أحاول تحويلها إلى عبارات فقيرة يعجز فقرها عن وصف فظاعة الحزن الذي يسكن بداخلي وسوداويتي التي أزاحت سوداوية كافكا[70].
رغم أن اللغة العربية التي استعملتها كانت جد مبسطة، غير أني أكدت على اختيار عبارات أجدها جارحة في حقي وفي حق غيري وحق كل المجتمع بسبب تلك النظرة السلبية التي أرى بها العالم .
لم أرغب في أن أراعي مشاعر أحد خاصة مشاعري وتعمدت أن أظهر مساوئي قبل محاسني التي ندَر وإن ذكرتها. حتى القارئ نفسه الذي قد يشمئز من عبارات وفقرات تعمدت وصفها لأنقل الصورة على حقيقتها كما يراها عقلي.
بشعة، قبيحة، وقحة لكن صريحة.
دون قفازات ولا تجميل أو أي تلطيف للعبارات التي أصريْت على أن أنتقي أسوأها في بعض الأحيان.
المهم، وبعد كل هذه الأسطر والإطالة المقصودة والاستعارات المخلوطة والغير موزونة وآلاف الكلمات التي ربما قد بعثت فيك أنت أيها القارئ طاقة سلبية، يسعدني القول أن كل الليالي التي سهرتها أكتب إلى أن آلمتني رقبتي وظهري ويدي وحتى قلبي لم تكن ناجعة في حل عقدي النفسية التي تسكن كل الخلايا العصبية في جسمي وازاحة الهموم من قلبي.

[70] كافكا : فرانس كافكا هو كاتب تشيكي متكلم بالألمانية يعد رائد الأدب الكابوسي.

لم أتمكن بعد هذه المحاولة من نسيان الماضي الذي عشته والألم الذي حيرته من جديد.

الكتابة لم تكن حلا، بل زادتني إرهاقا وأرقا ، فليس بالأمر المخفي على حضرة القراء أن الخيارات السيئة هي التي تجعل قصصنا مثيرة للاهتمام وتصلح للقص والحكاية.

خياراتنا السيئة هي التي تجعل النهايات مأساوية أليمة كحبنا للشخص الخطأ في المكان الخطأ والزمان الخطأ، أما الجب الطاهر الملائكي فهو بريء من كل هذه التهم براءة الذئب من دم يوسف.

وإلى حد الآن مازالت السعادة غاية لا تدرك في حياتي وهذا ما سيقودنا إلى المزيد من المغامرات والكتابات.

إلى ذلك الحين أستودعكم خيرا مع تحيات بائس يائس سائم من المجتمع والحياة.

- والسلام -